دكتور محمد فؤاد حجازى

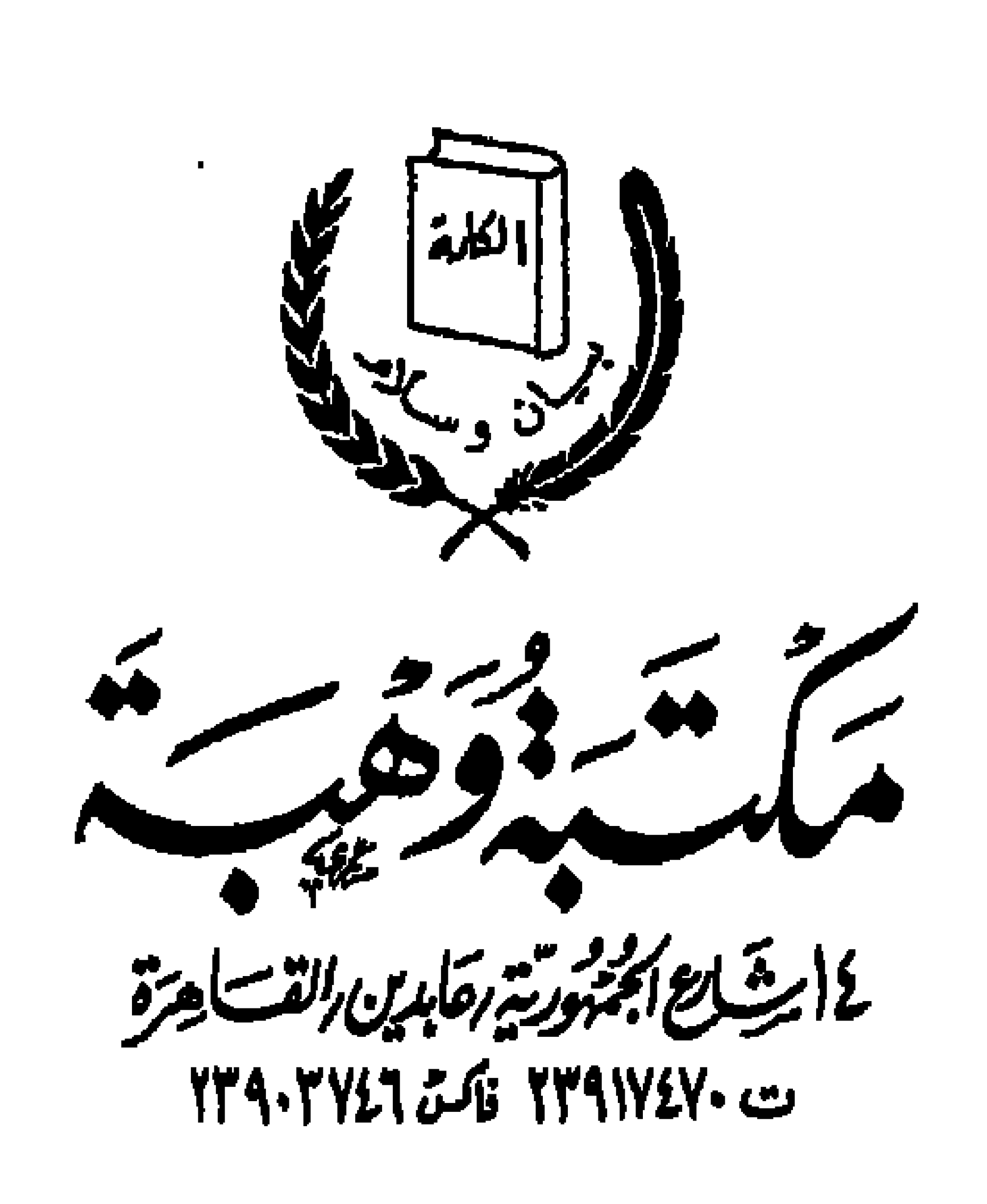
النظريات الاجتماعية



مكتبة وهبة

دكتور محمد فؤاد حجازى

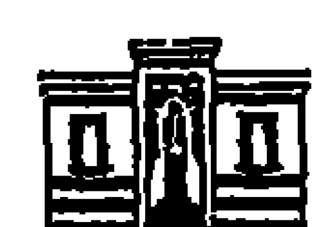




النظريات الاجتماعية
دكتور/ محمد فؤاد حجازى
١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م
الطبعة الثامنة «مزيدة ومنقحة»
مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية - عابدين - القاهرة.
٢٤٠ صفحة، ١٧ × ٢٤ سم
رقم الإيداع: ٤٦٥٥/ ٨٠
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-7335-04-0

تحذير
جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة. غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أى جزء منه، أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية، أو ميكانيكية، أو نقله بأى وسيلة أخرى، أو تصويره، أو تسجيله على أى نحو، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

All rights reserved to Wahbah Publisher. No Part of thie Publication may be reproduced, stored in a ritrieval system, or teansmitted, in any from or by any means, electronic, mechanical,photocopying,recording or otherwise, without the prior written permission of the puplisher.



دار الكتب والوثائق القومية
دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

فؤاد حجازى، محمد
النظريات الاجتماعية/ محمد فؤاد حجازى.-
القاهرة: مكتبة وهبة، ٢٠١١.
٢٤٠ ص؛ ٢٤ سم.
تدمك: ٩٧٧ ٧٣٣٥ ٠٤٠
١- البحوث الاجتماعية
أ- العنوان

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

إلى من نادى المؤمنين:

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

إلى من بفضله يوفق العاملين إلى العمل..

إلى من لايضيع عنده العمل ويجزى به..

إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور...

إلى ربى الذى أحسن مثواى..

فله الفضل والحمد على توفيقه

دكتور

محمد فؤاد حجازى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعتبر الكتابة عن النظريات الاجتماعية من أصعب وأدق الموضوعات فى علم الاجتماع، فالنظريات الاجتماعية تحاول أن تصل إلى مستويات النظرية فى العلوم الطبيعية، بل يمكن القول أن النظريات الاجتماعية فى محاولاتها تلك تتشبه وتوزن بمستويات العلوم الطبيعية، ولكن الملاحظ فى النظرية الاجتماعية أنها تعانى من عدم الاتفاق بشكل واسع ليس فقط حول المنهج فى البحث الاجتماعى، ولكن أيضا حول طبيعة نظامها، وكذلك تعانى من دور الأحكام الأيديولوجية.

وبالرغم من مرور أكثر من قرن على قبول علم الاجتماع أكاديميا، فإنه مازال فى مرحلة ماقبل النموذج، ذلك يعنى أنه لايوجد نموذج للتجارب العلمية أجمع عليه علماء الاجتماع فأصبح نموذجًا يحتذى. ولهذا يتوقع الإنسان نظريات عديدة ومتنافسة، وإن كان هذا لايعنى عدم وجود بعض المدارس الاجتماعية المتعاونة التى تهدف إلى التقدم نحو القيام على أسس تجريبية ذات أهمية جوهرية تدفع بالنظرية فى علم الاجتماع إلى الاقتراب من شقيقتها فى العلوم الطبيعية، ولكن حتى الآن يمكن أن نقرر دون خطأ يذكر أنه ليس هناك نموذج نظرى استطاع أن يحوز على إجماع علماء الاجتماع، أوحتى يكتسب السيادة على سائر النماذج، إذ أنه حتى الآن لايوجد فى الحقل الاجتماعى منظور نظرى استطاع أن يحيط بمسألة اجتماعية تعلو على الزمان، أى قانون له صفة الدوام كقولنا فى العلوم الطبيعية: المعادن والسوائل والغازات تتمدد بالحرارة.

وإن كان كثير من علماء الاجتماع يذهبون إلى أن التنظير أمر ثابت كنشاط مستقل عن العلوم الطبيعية وقائم على منهج علمى، فهم يرفضون الزعم القائل بأن علم الاجتماع غير قابل للتنظير، وكل مافى الأمر أن العلم مازال يشق طريقه بين متغيرات صعبة تعوق نموه.

وغنى عن البيان أن مايراد باصطلاح النظرية الاجتماعية فى علم الاجتماع هى محاولة التميز بين مجرد نظرات أو تأملات مقبولة، وبين فروض قابلة للاختبار بدقة طبقًا لمعايير ذلك النوع المشتق من النظريات العلمية الناجحة، وفى الحقيقة أنه يوجد فى داخل الحقل الاجتماعى بعض المنظرين الاجتماعيين يجاهدون من أجل إثبات أن النظريات السسيولوجية هى نظريات مقبولة علمياً، وأيضا يجاهدون فى صياغة فروض يمكن اختيارها بدقة تجريبياً، وفى هذا الشأن تواجه أولئك المنظرين صعوبات جمة، وأهمها مايسمى بمشكلة العلية أو السببية causal problem ، وتنبعث هذه المشكلة من مجموعتين مختلفتين من المشاكل، الأولى ذلك الموضوع العام الذى يتلخص فى السؤال الآتى: هل يمكن الحديث عن الفعل الإنسانى عند المستوى الفردى «مستوى الوحدات الصغرى» أو عند المستوى الاجتماعى «مستوى الوحدات الكبرى» على أن هذا الفعل له علة أى له سبب؟ والسؤال الملازم السابق هو: هل الوصف والشرح للسلوك الإنسانى لا يتطلب استخدام لغة القصد بمعنى هل السلوك الإنسانى مقصود أكثر منه معلول؟ أما المجموعة الثانية من المشاكل فتتلخص فيما إذا كان الفعل الإنسانى يبلغ من التعقيد إلى درجة يستحيل معها التحليل العلى Causal analysis .

وفى الحقيقة أن الاستخدام العادى لكلمة سبب أوعلة cause يحدث بطرق مختلفة فى مقابل مجموعة من الظروف الأولية المعقدة، وهنا ماذا يمكن اعتباره ظرف وماذا يمكن اعتباره سبب؟ ذلك كله عادة يتوقف على الاهتمام العلمى للباحث، على أى حال هذه الصعوبات التى تواجه عالم الاجتماع وخاصة مشاكل العلية المركبة، والأسباب المتعددة، والأسباب غير القابلة للتحديد، والاعتماد المتبادل، وتفاعل المتغيرات العلية، لم يعد كل هذا عوائق لعلم الاجتماع، فقد استطاع العلم أن يعبر هذه المرحلة، فإلى جانب هذا التراث الضخم من النظريات الشاملة لظروف واتجاهات واسعة والنظريات الجامعة لعوامل غير متجانسة، ومجرد تقارير عن ارتباطات إحصائية يساندها تفسيرات جيدة، فما زال علماء الاجتماع يكافحون فى مجال النظرية، فإلى جانب النماذج العضوية للسلوك الإنسانى التى تتميز باستخدام مفاهيم التوازن، يوجد أيضا نظريات عامة تبحث عن حلول

تجريبية للجدل حول الصـراع والاتفاق العام أى «الاجتماع Consensus»، وأخرى تعمل على إبراز القضايا السسيولوجية فى شكل يشبه القانون، ومتغيرات اجتماعية يربط بينها علاقات علية، وأخر تعـمل على الكشف عن العلاقات الشبه علية بين المتغيرات الكثيفة مثل الثقافة والاقتصاد.

ولكن الصعوبة الكبرى التى تواجه عملية التنظير فى علم الاجتماع لاترجع إلى طبيعـة العلم بقـدر مـاترجع إلى المنظرين أنفسـهم الذين يستـسلمون لـلقهـر الأيديولوجى، ويصبح كل فـريق منهم فرح بما لديه من فكر، بل قـد يصل الحال ببعض المنظرين إلى الـوقوع أسرى ماأقـاموه هم من فكر، والبعض الآخـر أسرى مصالحهم، ذلك يرجع إلى أن علم الاجتماع عندما يتعامل مع المجتمعات الإنسانية هو يتعـامل مع الجماعات الاجـتماعيـة بالدرجة الأولى، حيث تتضـارب المصالح الضيـقة والقـصيـرة، وأعنى بالضيـقة أى الخـاصة بجـماعة دون أخـرى، وأعنى بالقصيرة قصر نظر الجماعات لسعيها وراء العاجلة، ذلك كله يرجع إلى جهل هذه الجماعات بطبيـعة هذا العلم الذى يسعى للكشف عن الحقيقة الاجـتماعية، والتى لقصر النظرتعمل كل جماعة على أن تخرج تلك الحقيقة ملتوية لتؤيد مصالح هذه الجمـاعة أو تلك. وهذا إن دل على شيء، فإنمـا يدل على جهل هذه الجمـاعات المتصارعة بأهمية هذا العلم وما يمكن أن يقدمه من خير للجميع، ذلك إذا شجعت المجتمعـات العلماء فى هذا الحقل بغض النظر عن المصالح المتضاربـة مثلما فعلت المجتمعات مع العلوم الطبيعية، فتعرف هذه الجماعات الحقيقة الاجتماعية، وأعنى بها هنا الغرض من هذا الاجتماع البشرى ووسائل إنمائه حتى تنعم البشرية بخيرات الطبيـعة والمعلم، وتسـود بيننا الأخوة الإنـسانية فننـعم بمعانى الأخوة مـن الوفاق والتعاون والحب.

والله ولى التوفيق..

دكتور

محمد فؤاد حجازى

الفصل الأول

فى معنى النظرية

- النظرية والواقع.
- تعريف النظرية.
- بناء النظرية.
- صفات النظرية.
- أنماط النظرية.
- ظروف التنظير.

في معنى النظرية

النظرية والواقع

يذهب كثير من الناس إلى القول بأن هناك هوة سحيقة بين النظرية Theory والواقع، إذ يعتبر الكثيرون أن النظرية شيء تجريدى ومبهم وغامض، بل وحديث يتكلم فيه الفلاسفة، ومن ثَمَّ فالنظرية ليس لها علاقة بالواقع، ذلك الواقع الذى ينظر إليه الناس على أنه عملى وجزء من الحقيقة، ويختص بشئون الحياة اليومية.

هذه الفكرة خاطئة من أساسها، وفيها شيء كثير من التجنى على الحقيقة، فإذا نظرنا إلى حقيقة العلم ومضمونه نجد أن العلم ماهو إلا منهج لتسجيل الخبرات البشرية والرابط على أسس عقلية بين عناصرها، وتعتبر النظرية مجموعة من هذه الروابط العقلية تستخدم لتفسير وشرح كيف تعمل ظاهرة معينة.

بل ربما كان الربط بين الظواهر هو المهمة الأولى للعلم، فإنه لايقتصر على جعل معرفتنا المتشعبة قابلة للتعامل معها بطريقة منظمة، بل تمتد إلى تنمية معرفتنا الحاضرة والمستقبلة، وماهوأهم من ذلك أنها تكشف عن وحدة عميقة وراء خبرتنا، التى تظهر لأول وهلة أنها متفرقة أو متباينة، بل وكثيراً مايضحى العلماء بآرائهم السابقة من أجل تحقيق الربط العقلى بين ملاحظاتهم، فهم يخشون الأشياء المبعثرة أكثر من خشيتهم للأشياء المبهمة، بل عادة ما ينصرف العلماء حتى عن مشاهدة واضحة من أجل إنقاذ ارتباط عقلى من الانهيار(1).

والمقصود بالربط العقلى Rational correlation هو عملية التفسير، أو يعنى العلاقة المنطقية بين الظاهرة موضوع البحث وبين ظاهرة أخرى أو مجموعة من الظواهر سواء أكان هذا الربط مباشراً أو غير مباشر، فمحاولة الربط بين الظواهر كما يمارسها العلم تقوم على أسس عقلية كالمقارنة، واستنباط أوجه الشبه الشكلية، وإمكان القيام بعدد من المشاهدات والتجارب للتأكد من ثبات الارتباط، وكذلك يلاحظ أن الربط العقلى

(1) Dingle, Herbert: "Science and Human Experiences pp. 14-16.

أيضا يمثل الأساس فى قدرتنا على التنبؤ، ذلك أننا إذا استطعنا أن نكشف عن ارتباط دائم بين أ،ب فإننا كلما شاهدنا أ أمكننا أن نتنبأ بحدوث ب.

وهكذا نرى أن النظرية هى شىء لصيق بالواقع العملى والحياة اليومية، إذ من خلال ماسبق تمثل النظرية الأساس لكل أجزاء المعرفة الإنسانية، وأساس للتفسير اليومى الذى يقوم به الفرد للظواهر الاجتماعية والطبيعية، إن مثل هذه التفسيرات اليومية متضمنة فى الملاحظات العملية، أى فيما نلاحظه يومياً ونحاول تفسيره أى فهمه، ثم إذا نظرنا إلى عملية التنظير Theorizing نفسها وهى ما نعنى به «تكوين وتحسين الشروح التفسيرية» نجد أنها عملية يقوم بها الإنسان بصفة دائمة ذلك أنها عملية أساسية للمعرفة العملية والتأثير المتبادل الاجتماعى أى التفاعل الاجتماعى اليومى.

وهكذا سواء يحاول عالم الطبيعة شرح بناء خلية، أو أب يحاول مساعدة ابنه فى فهم لماذا لا يجب أن يكذب أو لماذا يجب أن لا يغش، ففى كل حالة من هذه الحالات يحاول الأب أن يشرح ويفسر مايمكن أن يحدث من اضطراب فى العلاقات الاجتماعية نتيجة للكذب أو الغش، فالأب هنا يكون قائما بعملية التنظير «تكوين وتحسين الشروح التفسيرية». فالنظرية إذن متضمنة كل هذا بطريقة ما، بمعنى مجموعة من العلاقات المترابطة عقليا بين بعض خبراتنا البشرية.

ولهذا يمكن أن نلاحظ أن النظرية متضمنة فى العلاقات المتبادلة بين الأشخاص، وفى بناء لغة الإنسان، وفى المجهودات العلمية الإنسانية، ذلك أن الناس عادة يميلون إلى تعليل وتفسير بيئتهم الاجتماعية والطبيعية.

وبهذا الأسلوب يرتبط الفرد بالعالم الطبيعى والمجتمع من خلال مجموعة مركبة من المقولات التى تحاول تفسير كيف تعمل الظواهر، وهكذا سواء أكنا نتعامل مع أى جانب من جوانب الحياة طبيعى أو اجتماعى، فنحن نجد مجموعة من التفسيرات المحددة فى داخل متن وضعية اجتماعية معينة، أى ثقافة اجتماعية معينة، التى تعلل وتوضح وتفسر مايحدث، فتفسير ظاهرة المطر فى ثقافة بدائية يختلف تماماً عن تفسير نفس الظاهرة فى ثقافتنا، وبالمثل فى المجال الاجتماعى فنظرية فى الاقتصاد فى ثقافة غربية أو شيوعية تختلف تفسيراتها عن نظرية فى ثقافة إسلامية.

تعريف النظرية

تقدم النظرية الاجتماعية مجموعة من الافتراضات التى تهتم بالمجتمع والظواهر الاجتماعيـة، على أساس أن المجتمع وظواهره له واقعه الاجتمـاعى المنفصل عما عداه من الظواهر، ولقد بذل دوركايم Durkhiem جهدًا كبيرًا من أجل تحقيق هذا الهدف، وأصبحت هذه الحقيقة مسلمة يأخذ بها كل علماء الاجتماع[1].

ومن ثَمَّ فالنظريـة الاجتمـاعية تقف فى تضـاد مع أنساق التفكيـر المبكرة التى كانت تتسـم بالأسطورة والتيولوجيـة والطبيعية عنـد شرحها وتفسيرها للظواهر الاجتـماعـية، فـالنظرية الاجتـماعـية الحـديثة تقـوم على أساس وجـود النسق الاجتماعى كذات مستقلة فى تعارض مع الظواهر الميتافيزيقية أو التيولوجية، ومن ثَمَّ يمكن اعتـبار أن النظرية الاجـتماعـية نشـأت لتبرز تطور ونمو نـسق جديد من التفكير الذى حلت فيه فكرة واقعية المجتمع والحقيـقة الاجتماعية محل التفسيرات الميتافيزيـقية، التى كانت سائدة حتى منتصف القرن التـاسع عشر، ومن ثَمَّ صاغ المنظرون Theorists مفـاهيما عن الحـقيقـة الاجتمـاعية واسـتخدمـوها فى شرح الظاهرات الاجتماعية.

وهكذا أصحـبت النظريات الاجتماعـية تقدم مفـاهيما عن النظام الاجتـماعى والحالة التى فيها يتغـير، أى تقدم مفاهيما عن بناء المجتمع والعمليـات الاجتماعية Social Process، فإذا كـانت النظرية هى مجمـوعة من الافتراضـات التى تحاول شرح وتفسير العلاقات بين الظواهر الاجتماعية.

فطبقًا لذلك تصبح النظرية الاجتماعية عبارة عن قضايا تجريدية ومنطقية مصاغة فى شكل مفاهيم اجتماعية.

ولكن ليست النظرية الاجتـماعية هى مجرد مـجموعة من المفاهيم الاجتـماعية المتراصـة عشوائـياً، ولكن عندما يكتـشف المنظر Theorist بعض المفاهيم النظرية

---

(١) إميل دوركايم «قـواعد المنهج فى علم الاجتـماع» ترجمة دكـتور محمود قـاسم- مكتبة النهضـة المصرية ١٩٥٠ ص ٣١: ٤٨.

Theoretical concept يتـجـه إلى الربط بين اثنين أو أكـثـر فى شكل تقاريرStatements عن الحياة الاجتماعية.

ذلك أنه مهما حاولنا ومهما بلغنا من الدقة فى وصف ظاهرة اجتماعية بمفهوم علمى، إلا أننا لا نستطيع استخدام ذلك المفهوم للشرح أو التنبؤ. ولكى نستطيع الشرح أؤ التنبؤ نحن فى حاجة إلى تقرير نظرى Theoretical statement، أى ارتباط بين اثنين وأكثر من المفاهيم، فمثلاً بمجرد أن نفترض Hypothesize «أنه كلما زادت درجة تركيز التنظيم كلما زادت الكفاءة الإنتاجية» (١) على حد قول فبر، أو مثلاً «كلما زادت كثافة السكان زاد تقسيم العمل» (٢) على حد قول دوركيم، أو «كلما زادت حدة التدرج الطبقى كلما زاد الصراع» على حد قول ماركس، أو «كلما زاد الصراع زاد التكامل الاجتماعى» على حد قول سمل Simmel ونلاحظ أنه فى هذه التقارير نحن تحركنا من مجرد الوصف إلى شكل من أشكال التنبؤ.

يلاحظ أن هناك عدد من الأسماء والمفاهيم التى تشيع الاضطراب والحيرة حول اصطلاح التقرير النظرى من بين تلك المصطلحات الفرض، Hypothesis، والقضية Proposition، والبديهية Axiom، مسلمة postulat، وافتراض Assumption، وربط Corollary، وفى الحقيقة أن كل منهم له وقع ملائم فى المعنى، فكل منهم يشير إلى نوع معين من التقارير النظرية، ولكن نوع دائما أبدا غير واضح، فمثلاً أشار زتربرج Zetterberg(٣) إلى أن الفرض هو تقرير نظرى غير مثبت، بينما القضية مثبتة ومبرهنة بالدلائل.

وبالمثل تعمل كثير من المفاهيم على إبهام وغموض اصطلاح النظرية، ذلك أن هذه المفاهيم لها علاقة بالموضوع، ولكن ينقصها قوة التفسير، مما يجعل الأمر يختلط على كثير من الدارسين. وأهم تلك المفاهيم التى لها علاقة بالموضوع هى الوصف

---

(1) Weber, Max: "The Theory of Social and Economic Organization trans. by Henderson and parsons Glencoe, Free press. 1947.p.377.

(2) Durkhiem, E.: "The Division of Labor in Society" trans. by Simpson, Glencoe III, Free press, 1933. p.256-282.

(3) Zetterberg, Hans L. "Social Theory and Social practice" Totowa, New J., Bedminster press. 1963.

description، والتنميـط Typology، والنموذج Model، والتنبؤ prediction.
ومما يزيد الأمر صعوبة أنه من الصعب أن نجد تعريفًا للنظرية قد اتفق عليه علماء الاجتماع. ومن ثَمَّ أصبح من الضرورى التمييز بين تلك المفاهيم السابق ذكرها حتى يتضح لنا تمامًا معنى النظرية، وإبراز الصفات الأساسية للنظرية. الوظيفة الأولى والأساسية لأى نظرية هى محاولة شرح أو تفسير علاقة الظاهرة موضوع البحث وظاهرة أو ظواهر أخرى، أى أن الوظيفة التفسيرية هى التى تميز النظرية عن تلك المفاهيم التى لها علاقة بموضوعنا، ولكن ليس لها صفة تفسيرية.

فمثلاً لو أخذنا مفهوم الوصف فإنه يشير إلى تبيان صفات ظاهرة معينة دون أن يفسر وجودها أو تغيرها، فوصف لثقافة فرعية معينة مثل زنوج وسط أفريقيا لايفسر علة وجود مثل هذه الثقافة، ولا يشرح التطور والتغير فى تلك الجماعة.

وأيضا يقوم التنميط مجموعة من المميزات يقال إنها تشير إلى ظاهرة معينة أو أنها صورة طبق الأصل منها. فمثلاً تنميط للأسرة كأسرة نووية أو ممتدة لا يشرح أو يعلل شيئًا فى داخل مثل هذه الوحدة الاجتماعية.

وكذلك النموذج، وإن كان ينظر إليه فى بعض الأحيان كالتنميط، فإنه عادة يقوم أساس ملاحظات تجريبية، فمثلاً نموذج المجتمع الصناعى المتقدم فى المستقبل يمكن أن يكون مفيدًا، ويمكن أن يكون مقامًا على أساس بيانات تجريبية، ولكن لا يفسر التطور أو يفسر بناء ذلك المجتمع أو العمليات الداخلية فى مثل هذا المجتمع أى النموذج المقترح، أى أنه ينقصه القوة التفسيرية.

وبالمثل التنبؤ، بمعنى القابلية للتنبؤ، مثلاً أين سيقف فرد ما فيما يختص بالمتغير «أ» عن طريق معرفة موقعه على المتغير «ب» هذا التنبؤ أقيم على أساس علاقات تجريبية سابقة لوحظت بين هذين المتغيرين. فمثلاً يمكن لمدرس أن يكون قادرًا على التنبؤ بدرجات طلابه من خلال منجزاتهم على مدار العام الدراسى، بل وبدرجة عالية من الصحة، دون أن يكون هذا المدرس قادرًا على تفسير العلاقات، أى لا يستطيع هذا المدرس أن يفسر مثلاً حصول طالب معين على درجة عالية فى مادة معينة، وتزداد صعوبة التفسير إذا كان التنبؤ يتعلق بحصول طالب على درجة عالية فى مادة وحصل فى نفس الوقت على درجة منخفضة فى مادة أخرى. ومن هذا

يتضح أنه مهما كانت الارتباطات التجريبية عالية، فإن قدرة هذا المدرس على تفسير هذه العلاقات قد تكون فى أدنى صورها. وهكذا قد يكون الباحث قادرًا على تنمية مستويات أعلى من احتمالات التنبؤ دون أن يكون لديه قدرة تفسير هذه العلاقات. ومن ثَمَّ يمكن أن يكون لدينا قدرة تنبؤية عالية وفى نفس الوقت قدرة تفسيرية أقل، والعكس صحيح، وهكذا يمكن القول أن التنبؤ لايقدم بأى حال نظرية أو شرحًا لها. فالوقائع لا تتكلم عن نفسها، ولهذا فلابد من شرحها أو تفسيرها.

وإن كانت كل هذه المصطلحات أو المفاهيم التى سبق ذكرها هى أجزاء من بناء النظرية فإنها لاتفسر الظواهر التى تشير إليها. إن تلك القوة التفسيرية هى التى تعتبر الخاصية الأساسية للنظرية، فالوظيفة الرئيسية للنظرية هى تلك القدرة التفسيرية التى تملكها.

هذه القدرة التفسيرية هى التى تميز النظرية أو القانون سواء فى مجال الظواهر الاجتماعية أو النفسية أو الطبيعية، فيذهب كارل بيرسون K. Pearson إلى أن «القانون العلمى ليس مجرد تتابع للظواهر أو الانطباعات الحسية أى أن قوانين الطبيعة ليست هى نفسها الظواهر الطبيعية فى تتابعها كما أنها ليست مجرد وصف لهذه الظواهر، فقد أصف كثيرًا من الظواهر دون أن يتضمن حديثى أى قانون علمى، ولكن إذا أردت جعل حديثى يتضمن الحديث عن قانون علمى، فعلىَّ أن أعقد مقارنات بين عدة نظم لتتابع الظواهر والانطباعات الحسية، ثم أنتقل بعد ذلك إلى عمليات التصنيف Classification والتعميم Generalization، فإذا ذكرنا التصنيف والتعميم، ذلك يعنى ضرورة الاستعانة بمفاهيم من صنع العقل البشرى. ومن ثَمَّ فقوانين الطبيعة تتضمن الربط بين الانطباعات الحسية المباشرة وبين المفاهيم، وبدون الربط بين هذين الطرفين فلا وجود لهذه القوانين[١]».

ونرى ذلك واضحًا فى كثير من تعريفات علماء الاجتماع، فمثلاً يذهب بلالوك Blalock فى كتابه بناء النظرية إلى أن «النظرية لاتتكون كلية من جداول من مفاهيم وتنميطات ولكن لابد أن تحتوى قانونًا مثل قضايا تربط بين مفاهيم أو متغيرات سواء

(1) pearson, Karl: "Grammar of Science" Chap. 4.

اثنين أو أكثر فى وقت واحد»[1]. كما يذهب جبس Cibbs فى كتابه بناء النظرية الاجتماعية إلى أن «النظرية هى مجموعة من الشروح أو البيانات المرتبطة منطقياً فى شكل تحقيقات أمبيريقية حول خواص فئات لانهائية من الوقائع أو الأشياء»[2]. كما يذهب رينولدز Reynolds إلى أن «استعمال مصطلح نظرية يشير إلى حالات تجريدية تعتبر جزءا من المعرفة العلمية سواء أكانت مجموعة من القوانين أو المسلمات أو أشكال العمليات السببية»[3]. وكذلك يذهب ويلر Willer إلى أن «النظرية هى مجموعة من العلاقات المتكاملة ذات مستوى معين من الصدق»[4].

يلاحظ أن هؤلاء المؤلفين يركزون على نواحى مختلفة من النظرية، إلا أنه يمكن ملاحظ عدد من الصفات العامة فى أقوالهم تلك مثل التجريد والمنطق، والقضايا، والشرح، والعلاقات، والمقبولة من المجتمع العلمى. وعند هذه النقطة يمكن وضع تعريفنا للنظرية وهو أنها «مجموعة من القضايا التجريدية والمنطقية التى تحاول شرح وتفسير العلاقات بين الظواهر موضع الدراسة».

ومما سبق يمكن ملاحظة أن أساس أى نظرية هو ذلك النموذج الذى تقدمه كتفسير للحقيقة الاجتماعية أو الطبيعية. وعادة مايتكون هذا النموذج من عنصرين:

١- مفهوم Concept عن الظاهرة المشروعة، مثلاً يمكن النظر إلى المجتمع كمجموعة من النظم المتساندة.

٢- افتراضات Assumptions توضح العلاقات السببية، مثل النظرة التى تعتبر أن البناء الاجتماعى يتطور فى استجابة لحاجات النسق أو الوظائف الأساسية للمجتمع.

***

(1) Blalock, H.M: "Theory Construction, From Verbal to mathematical Formulations" prentic-Hall, Englwood Cliffs, N.J. 1969. p.2.

(2) Gibbs,J.: "Sociological Theory Construction" Dryden press, New York,1972.p.5.

(3) Reynolds, p.D.: "A primer in Theory Construction" Bobbs-Merrill, Indianapolis, 1971. p.11.

(4) Willer, D.: "Scientific. Sociology, Theory and Method" prentic-Hall Englewood Cliffs, New Jersy, 1967.p.9.

بناء النظرية

أولاً: صفات البناء

١- نموذج النظرية:

الأساس لأى نظرية هو النموذج الذى تبرزه، والذى عرفنا أنه يتركب من صياغة مفاهيم معينة عن الظواهر المشروحة، والعلاقات التفسيرية الهامة التى توضح وتعلل حالة الظواهر عند عملها وتفاعلها، وهكذا تكون الظواهر موضع البحث قد تم تعريفها من خلال مفاهيم محددة، وفى نفس الوقت وضعت الافتراضات عن وجود علاقات سببية، وتستخدم محتويات هذه العلاقات فى شرح الظواهر موضع الدراسة. وإذا نمى نموذج بدرجة عالية وراء مستوى الفروض العامة البسيطة، قد يصبح نموذجًا من العلاقات التى تمثل الأساس لبناء نظرية، وفيما يلى أمثلة على النماذج النظرية «إطار العمل الوظيفى البنائى The Structure- Functional Framework اتجاه الصراع The Conflict Oriantation.

٢- المفاهيم:

يتضمن أى نموذج مفاهيم معينة، وهى عبارة عن اسم أو عنوان لفئة من الظواهر مثل «الشخصية personality، والطبقة الاجتماعية Social Class، وتغير اجتماعى Social Change»، وهذ ه المفاهيم تحتاج إلى عناية فائقة فى تحديدها، وأن توضح بدقة علاقاتها بالنموذج الموضوع.

٣- العلاقات المنطقية بين المفاهيم:

تحتاج العلاقات المنطقية بين تلك المفاهيم إلى التأكيد، بمعنى أن تكون مترابطة منطقياً ونظرياً، ومستوى وشكل تلك العلاقات يميل إلى التباين، فقد تكون بديهيات أى مسلمات Axioms، وهى تعتبر قضايا يفترض أنها صادقة بذاتها، وقضايا Propositions وهى عبارة عن تقارير عن العلاقات تكون مشتقة من مسلمات أو فروض Hypotheses أى تقارير Statements من العلاقات بين المفاهيم فى شكلها أثناء العمل، بمعنى محتوياتها التجريبية.

وقد تكون تلك العلاقات المنطقية بين المفاهيم، إيجابية أو سلبية أو مستقلة كل عن الأخرى.

وأخيراً يعتمد بناء النظرية على ماتحتويه من أنواع حالات العلاقات، وعلاقة كل منها بالأخرى، وهكذا يمكن أن تكون نظرية مسلمية Axiomatic فى بنائها «مجموعة من القضايا المحددة»، أو يأخذ بناء النظرية شكل قضايا «أى مجموعة من القضايا مشتقة من مسلمة».

ويلاحظ أنه لايمكن النظر إلى مجموعة من الفروض المترابطة كنظرية عند غياب مسلماتها وقضاياها الأساسية، إذ تكون غير كاملة.

٤- الإجراءات:

ومن ثَمَّ تحتاج المفاهيم وحالات العلاقات إلى أن تعرف تجريبياً أو إجرائياً فى شكل متغيرات Variables، مثل اختبارات الشخصية، ومقاييس الطبقات الاجتماعية، والمقاييس الديموجرافية لنسق اجتماعى، ومقاييس معدلات الحراك الاجتماعى. والمقاييس السوسيو اقتصادية للتغير الاجتماعى، والبناء التنظيمى للنظم. وعادة يتضمن كل متغير عدد من المحتويات التجريبية يحددها ويعرفها نوع أداة البحث مثل علامات على فقرات خاصة من استمارة البحث التى اختارها الباحث.

٥- المنهج:

وتتركب المرحلة التالية من منهج تجريبى لاختبار الفروض، بمعنى اختبار العلاقات التى افترض الباحث وجودها بين المتغيرات والمحتويات. وقد يتكون هذا المنهج من مسح للرأى العام، أو ملاحظة مشاركة، وبيانات مقابلة، أو المعدلات الرياضية للبيانات السكانية، أو تجارب الجماعات الصغيرة.

ويلاحظ أن ذلك المنهج يميله إلى حد بعيد نوع المتغيرات المشتقة من بناء النظرية ويحدده ذلك البناء، ولا يمليه أى فكرة مسبقة تم تكوينها عن المنهج.

وإيا كان المنهج المستخدم فإن فاعليته مقيدة بأنواع العينات المتاحة، وقدرة الباحث على قيادة البحث، وأيضا أخطاء القياس وخطأ تحليل البيانات.

٦- تحليل البيانات:

فإذا ماجمعت البيانات فإنها تحتاج إلى تحليل فى ضوء الفروض الأساسية فى النظرية. وعادة هذا التحليل يتركب من استخدام التكنيك الإحصائى ليبين مستويات الاتفاقات، والدلالات الإحصائية. أما إذا استخدمت بسذاجة أو أسيئ استخدامها، فهذه الاختبارات قد تؤدى إلى أخطاء بالغة.

ويلاحظ أن عملية تحليل البيانات تعتمد كلية على نوع العينات والبيانات المجموعة.

٧- تفسير البيانات:

عند إتمام تحليل البيانات، فإنه على الباحث التقدم إلى تفسير نتائج البيانات فى ضوء بناء نظريته، من ناحية نموذجها الأساسى ومسلماتها وقضاياها وفروضها.

وبما أن المناهج والاختبارات التجريبية وتحليل البيانات تقدم فقط اختبارات غير مباشرة لأسس بناء النظرية، فإن الباحث يحتاج إلى أن يكون شديد الحذر فى استخراج النتائج من بيانات محدودة، أنه من السذاجة الإفراط فى تقدير الأهمية النظرية لأى مجموعة من البيانات التجريبية. مهما كان اتساع مجالها.

٨- تقييم النظرية:

وأخيراً يبحث المنظر «الباحث» عن تقييم النظرية فى ضوء معيارين أساسيين:

(أ) كفاءة ومجال ومنطق بنائها النظرى.

(ب) مستوى قابليتها للاختبار والتنبؤ والدقة عندما تخضع للاختبار التجريبى. عند هذه النقطة يكون هناك عدد من البدائل الممكنة.

أما شطب النظرية كلية، أو تعديل نموذجها الأساسى أو تنمية مسلمات وقضايا وفروض أكثر، أو استخدام منهج جديد.

وليس معنى ذلك أن ييأس المنظر ولكن عليه أن يعرف أن عملية التنظير هى عملية مستمرة وديناميكية، وتتكون من تغيير وتعديل مستمر.

ثانيا: عملية إنشاء النظرية

١- الخطوة الأولى هى تحديد العلاقات العلية التى تتميزبها النظرية، فنموذج النظرية يجب أن يكون واضحًا بأكبر قدر ممكن، وخاصة العلاقات العلية التى يتضمنها النموذج والتى يفترض أنها أدوات التفسير. ومن ثَمَّ يعتبر تحديد هذا النموذج من العلاقات المفترضة «مسلمات- قضايا» هو الخطوة الأساسية والكبرى فى عملية التنظير.

٢- الخطوة الثانية تتضمن تعريف المفاهيم فى النموذج تعريفًا كاملاً بقدر الإمكان «التعريفات الإجرائية». ويلاحظ أنه كلما كانت معانى المفاهيم تميل إلى أن تكون مفترضة أكثر منها معرفة ومحددة بدقة، تقود مثل هذه الافتراضات إلى الغموض وربما الفوضى.

٣- العلاقات المنطقية بين تلك المفاهيم التى يستخدمها نموذج النظرية تحتاج إلى تحديد فى شكل مسلمات أو قضايا أى تقارير Statements.

٤- ثم تستخدم المفاهيم فى شكل متغيرات، والعلاقات المنطقية بين هذه المتغيرات تستنبط من المسلمات والقضايا فى شكل فروض.

٥- ثم يستخدم منهج ملائم لهذه المتغيرات لاختبار الفروض من خلال بيانات تجريبية ويستخدم هذا المنهج بدقة بأكبر قدر ممكن لاختبار الفروض تجريبياً.

٦- ثم تحلل البيانات طبقًا للأساليب الفنية والإحصائية.

٧- فإذا ماحللت، يحتاج المنظر إلى تفسير أهمية النتائج بالنسبة إلى النظرية التى أنشأها. فقد تفسر النظرية على أسس من هذه النتائج، أو بالنسبة إليها، وذلك يعتمد على أسلوب إنشاء النظرية.

٨- وأخيرًا بعد إتمام الخطوات السابقة، يحاول المنظر تقييم النظرية إما على أساس أرضية نظرية أو أرضية تجريبية.

***

صفات النظرية

يتباين علماء الاجتماع فى درجة نظرتهم إلى النظرية الاجتماعية باعتبار أنها لارسمية وبالضرورة وصفية، أو رسمية وبالضرورة تفسيرية. فمثلاً روبرت نسبت R, Nisbet يرى علم الاجتماع على أنه «شكل من الفن Art form والذى يصنع تقدمه العظيم خلال عمليات خلاقة والمواضيع التى تشارك بدرجة كبيرة مع الفن»(١).

ويتبنى س. رايت ميلز C.Wright Mills نظرة مشابهة فى وصفه الرجل الحرفى الكلاسيكى Classic craftsman، الذى يستخدم الخيال السيسولوجى Sociological Imagination، ومتأرجحا بين مفاهيم الوحدات الكبرى Macroscopic conceptions، والعروض التفصيلية، ومركزا على بناء المجتمع ككل، وتطوره التاريخى، وأنماط التفضيل عند الناس والسائدة فى المجتمع فى مرحلة معينة من تطوره (٢).

ويذهب دون مارتندال Don Martindale إلى أن علم الاجتماع هو «علم الحياة الداخلية للإنسان(٣)، بينما نقولا تيماشيف N. Timasheff فى كتابه المشهور عن النظريات يقرر أن «علم الاجتماع يعنى دراسة المجتمع على مستوى عال جداً من التعميم والتجريد»(٤).

أما روبرت ميرتون R.K Merton فهو يحاول أن يعبر تلك الفجوة بين العمومية المفرطة والمستويات المحددة للتحليل باستخدام نظريات متوسطة المجال

---

(1) Nisbet, R.A. : "Sociology as an Art Form" pacific Sociological Review, 5:67- 74, 1962.

(2) C.W.Mills: "The Sociological Imagination" Oxford Universtity press, Bew York, 1959.

(3) Martindale, D.: "The Nature and Types of Sociological Theory." Houghton Mifflin. Boston, 1960.p.3.

(4) Timasheff. N.S.: "Sociological Theory.its Nature and Crowth" 3d ed, Random House. Bew York. 1967.p.4.

Middle - Range theories ويعنى بذلك «مجموعات محددة من الافتراضات التى منها يشق منطقـياً فروضـا خاصة معـينة وبعد ذلك تثـبت وتؤيد البحث التجريبى». والعمل عند مستوى تحليل الجمـاعة «مثل الجماعة المرجعية ونظرية الدور». تحاول نظرية المـدى المتوسط ربط الفرد بالبنـاء الاجتمـاعى من خلال شبكة العلاقات الاجتماعية للفرد [١].

فالنظرية الاجتماعية طبقًا لهـذه النظرية تركز فى التحليل على الجماعة أكثر منه سواء على المستوى المجتمعى أو المستوى الفردى.

وهناك من علماء الاجتـماع من يتشدد فى الشكل العلمى لـلنظرية. ومن أكثر هؤلاء العلماء تشددًا جورج هامانزG.Homan، وزيتربرج H.L. Zetterberg.

فعند هـومانز[٢] تتـركب النظرية من جدول من المفـاهيم ومجـموعـة قضـايا استدلالية، بعضا منها متلائم مع التجارب ومن ثَمَّ يمكن اختبارها، ويختم هومانز حـديثـه بقـوله «هـناك نظريات قليـلة فى علم الاجـتـمـاع. . .التى تـنفق مع التعـريف. . .عمـا يجب أن تكون عليه النظرية، سـواء أكنا نتعـامل مع نظريات مـعيـارية أو لا معـيارية أو بنائيـة أو وظيفـية أو سـيكولوجـية. وتعـتبـر النظرية الاجتماعية عند هومانز فضفاضة جداً وتحتاج إلى صياغة حتى يمكن أن تكون أهلاً لتسمى نظرية علمية.

أما زيتربرج فـيعرض وجهة نظر يحـاول أن تكون ذات شكل رسمى Formal، ومركـزا على التحليل المنظم لأنماط العـلاقات بين المتغـيرات والقـضايا فى شكل استدلال من مسلمات، دراسته الاستـدلالية من المسلمات للنظرية الاجتماعية وفى معـيتـها قـواعد معـينة للاشتـقاق المنطقى مـن القضايا يـقدم لنا زيتـربرج إحدى الدراسـات الأكثـر رسمـية للنظرية، وقـد تتبـعه كـثيـرون من علماء الاجـتمـاع المعاصـرين، يحاولون الارتقاء بالنظرية الاجـتماعـية إلى أعلى درجات العلمـية، أمثال بلالوك وجبس.

---

(1) Nerton, R,K. : "On Theorerical Sociology" Free press, New York, 1967.

(2) Homans. G : "Contemporary. Theory in Sociology" in :Hand Book of Modern Sociology" edit by Faris, Robert. Rand McNally and Co. Chicago. 1964. p.951- 977.

من المناقشة السابقة يتضح لنا أن هناك مجال واسع من حيث الآراء المهتمة بصفات وخصائص النظرية الاجتماعية، ففى الطرف النهائى للنظرة اللارسمية نجد مليز ونسبت، اللذان يعتبران علم الاجتماع شكلاً من الفن الكلاسيكى أو الرجل الحرفى الكلاسيكى، بينما فى الطرف المقابل نجد هومنز وزيتربرج يكافحان من أجل نظرية رسمية منطقية، ولعبور الفجوة بين الطرفين نجد ميرتون يقدم نظرية متوسطة المدى، التى تحاول ربط الفرد والبناء الاجتماعى عند مستوى الجماعة.

ولذلك يبدو واضحًا أن النظريات الاجتماعية تتباين فيما تركز عليه كل منها سواء من ناحية مستوى الدراسة «وحدات صغرى أو كبرى» أو رسميتها أوخصائصها. ويمكن تلخيص هذا التباين كالآتى:

١- رسمية ولارسمية Formal- InformaL:

قد تكون النظرية من النوع العلمى الرسمى ذات البناء القائم على افتراضات علمية، أو قد تكون لا رسمية ونسبيّاً ليس لها بناء ذى افتراضات متعلقة بالحياة اليومية، النظرية الرياضية، والنظرية فى العلوم الطبيعية تميل إلى التطابق مع النمط الأول، بينما النظرية ذات الافتراض الوحيد والأيديولوجية تقع فى الفئة الثانية.

٢- وصفية- تفسيرية Descriptive- Explanatory:

هناك نظريات يسودها الوصف، وينقصها نموذج تفسيرى واضح، أو أنها تركز على وظيفة التفسير وتم بناؤها طبقًا لذلك، وإن كانت النظرية الوصفية قد تتضمن تفسيراً، إلا أنها تفشل فى تقديم أى تفسير إذا كان نموذجها الأساسى غير موجود أو غير واضح.

٣- أيديولوجية- عملية Ideological-Scientific:

محتوى النظرية قد يسوده أيديولوجية، أو أن يوجهه منهج علمى مع تركيزه على صياغة افتراضات تكون قابلة للاختبار التجريبى، وإن كان هذا التمييز هو مسألة درجة «ذلك لأن الطريقة العلمية قد تتضمن عناصر أيديولوجية».

إلا أنه من المهم تحديد الأهداف الرئيسية للمنظر من أجل تقدير القيم القابعة وراء العمل، ويلاحظ أنه لانظرية فى علم الاجتماع كاملة الموضوعية مهما بدا أنها موضوعية، إذ أنها دائما تتضمن عناصر أيديولوجية وإن كانت ضئيلة.

٤- ذاتية- موضوعية Intutitive- Objective:

تختلف أيضا النظريات فيما تدرسه من معارف ذات صفة ذاتية ويقابلها المعارف الموضوعية والخارجية، يدرس النوع الأول الأساطير والظواهر الشاذة بينما يتمسك العلماء بالنوع الثانى. فى علم الاجتماع يتضح هذا التمييز بين الوظيفيين البنائيين من ناحية، وعلماء السلالات البشرية من ناحية أخرى.

٥- استقرائية- استدلالية Intuctive- Deductive:

قد تحاول النظرية التحرك من الخاص إلى العام أو العكس. ويسمى النوع الذى يتحرك من الخاص إلى العام بالنظريات الاستقرائية، أما التى تتحرك من العام إلى الخاص فتسمى استدلالية. فى علم الاجتماع تميل معظم النظريات إلى أن تكون استدلالية إذ تستخدم العام «مثل النسق الاجتماعى» على أنه المتغير المستقل فى أسلوب شرحهم، بينما معظم نظريات علم النفس وعلم النفس الاجتماعى تميل إلى أن تكون استقرائية.

٦- الوحدات الصغرى- الوحدات الكبرى Microscopie- Macroscopie:

وتختلف أيضا النظريات من ناحية مستواها التحليلى، فقد تركز النظرية على المستوى الخاص والفردى فيصبح مجال دراستها ضيقًا Microscopic أو تركز على العام والمجتمعى فيصبح مجال دراستها واسعًا Macroscopic فى علم الاجتماع تميل النظريات إلى التركيز على الوحدات الكبرى. بينما التفسيرات السيكولوجية تركز أكثر على الوحدات الصغرى، ويلاحظ أن كل مستوى منهما له مميزاته ومشاكله. والملاحظات التى يمكن ذكرها فى هذه العجالة هى أن النظريات التى تركز على الوحدات الكبرى تصبح عامة جداً إلى درجة قد تصل إلى عدم قدرة الشرح للظواهر الفردية، بينما تعانى النظريات التى تركز على الوحدات الصغرى من المشكلة العكسية أى قد لا تستطيع شرح الظواهر المجتمعية.

٧- بنائية- وظيفية **Structure- Functional:**

وأيضا تختلف النظـريات من حيث ماتهتم به، فبـعضها يركز على تفـسير بناء الظاهرة، بينما نظريات أخرى تهتم بالحالة التى فيها تتطور الظاهرة. فمثلاً فى علم الاجتماع النظريات البنائية الوظيفية تهـتم ببناء مجتمع معين فى مفاهيم من وظائفه الرئيسية، بينما نظريات الصراع تركز أكثر على ديناميكيات المجتمع.

٨- اجتماعية- طبيعية **Social- Naturalistic:**

وتختلف النظريات أيضا من حيث الظواهر التى تستخدمها كعوامل تفسيرية. فبعض النظريات تسـتخدم متغيرات بيـولوجية أو طبيعيـة، بينما نظريات أخرى تركز على الظواهر الاجتماعية، فمثلاً قد يذهب عالم اجتماع إلى شرح وتفسير السلوك الاجتماعى فى مفاهيم ومصطلحات البيولوجيا البشرية كما فعل هربرت اسبنسر H. Spencer وتلك هى النظرية الطبيعيـة. بينما يذهب علماء آخرين إلى تفسيـر السلوك الاجتماعى فى مفـاهيم ومصطلحات جغرافـية وتلك أيضا نظرة طبيـعيـة. ولكن هناك أيضا علمـاء اجتـماع لايستـخدمـون فى تفسيـر السلوك الاجتماعى إلا مفاهـيم من خـصـائص النسق الاجـتـماعى مثل تقيسـم العمل أو مستوى التصنيع، وتلك هى النظرة الاجتماعية. وهكذا نرى أن هناك نظرتان مختلفتان تمامًا فى أسلوب كل منهما فى التفسير.

من ذلك يتضح أن النظريات الاجتماعية تختلف فى صفاتها.

***

أنماط النظرية

من المناقشة فى الفقرة السابقة نستطيع أن ننشئ تنميطًا نحاول فيه أن نبرز أهم الأنماط السائدة فى عصرنا.

١- فلقد رأينا النظريات تختلف من ناحية مستوى الدراسة بمعنى من ناحية اتساع مجال دراستها أى تركز على الوحدات الكبرى Macroscopic approach·

أو يضيق مجال دراستها فتهتم بالوحدات الصغرى Microscopic approach .

٢- ولقد رأينا أيضا أن النظريات تختلف فيما تتخذه من عوامل Factors كأدوات تفسيرية. فلقد رأينا أن منها ما يتخذ العوامل الطبيعية أو البيولوجية naturalistic- biological، ومنها من يتخذ العوامل الاجتماعية Social.

٣- وكذلك رأينا أن النظريات تختلف من حيث اهتمامها وتركيزها على البناء الاجتماعى Social strucure أو تركيزها على العمليات الاجتماعية Social process.

٤- ولقد لاحظنا أيضا أن النظريات التى يتسع مجال دراستها أى تركز على الوحدات الكبرى هى عادة استدلالية deductive فى شكلها بينما النظريات التى يضيق مجال دراستها أى تهتم بالوحدات الصغرى تميل إلى أن تكون استقرائية.

٥- وكذلك يلاحظ أن النظريات التى تركز على الوحدات الكبرى مثل البناء الاجتماعى تميل إلى أن تكون ذات نزعة محافظة فى أيديولوجيتها، بينما النظريات الأخرى من ذات المستوى فى التحليل ولكن تركز على العمليات الاجتماعية مثل الصراع تميل إلى أن تكون أكثر تطرفًا فى أيديولوجيتها. أما النظريات ذات المجال الضيق فى الدراسة أى التى تركز على الوحدات الصغرى هى بصفة عامة محافظة فى تركيزها على المنهج العلمى، ومن ناحية أخرى على الظواهر الوظيفية عند مستوى التفاعل بين الأشخاص.

الآن يمكننا أن نتجه إلى وضع تنميط يتكون من ثلاثة أنماط رئيسية، وكل منها ينقسم إلى نمطين فرعيين حسب العوامل التى يستخدمها النمط كأدوات تفسيرية،

أعنى. أن كل نمط من الأنماط الثلاثة يعتمد إما على عوامل طبيعية أو عوامل اجتماعية كأدواته التفسيرية.

ويمكن بيان الخصائص الأساسية لكل نمط من هذه الأنماط الرئيسية الثلاث كالآتى:

١- النمط العضوى- البنائى- الوظيفى:

Organic- Structure Funcional Type

ينظر هذا النمط إلى المجتمع على أنه نسق ذو أجزاء مترابطة وظيفياً. والشكل الأول من هذا النوع تلك الدراسة العضوية التى تعتبر أن هناك عددا من القوانين الطبيعية تتفاعل فى المجتمع بأسلوب ميكانيكى عضوى.

والشكل الثانى للدراسة العضوية هى النظرة إلى المجتمع على أنه كائن عضوى Organism، ويبدو ذلك واضحًا فى كتابات دوركيم Durkhiem وتونيز Tonnies ومن شايعهم هؤلاء العلماء يعتبرون المجتمع عضوى يعتمد على نسق تقسيم العمل والذى بدوره مرتبط بأنواع من المعايير أو الإرادة الاجتماعية التى تربط الفرد بوضعيته الاجتماعية، هذه الدراسة تركز على الناحية الاجتماعية أو النسقية أكثر من الظواهر الطبيعية.

ولكن كلا من الشكلين يعتبر عضوى فى نظرته إلى المجتمع على أنه نسق عضوى متكامل Integrated organinism.

ويعتبر النمط الوظيفى البنائى هو الاتجاه المعاصر للاتجاه العضوى السابق والذى كان الخطوة الأولى فى هذا النوع من الدراسة. ويركز هذا الاتجاه الحديث على أسلوب يعرض النسق الاجتماعى على أنه يتضمن عدداً من الوظائف الهامة

أو المشاكل المجتمعية التى أمكن حلها اجتماعياً عن طريق تطور عدد من الأنساق الاجتماعية الفرعية.

ويلاحظ أنه بصفة عامة تتجه النظريات العضوية- البنائية- الوظيفية إلى محاولة صياغة مفاهيم عن المجتمع على أنه نسق عضوى متكامل سواء عند مستوى تحليل الوحدات الصغرى أو الوحدات الكبرى. وتعتبر المجتمع نسق يتطور نحو مزيد من التكامل الاجتماعى، ومزيداً من الكفاءة الذاتية.

وهذه النظريات لها جذورها فى فلسفة عصر التنوير، ثم زادت دقتها شيئًا فشيئًا، أولاً بتلك المناظرات البيولوجية التى كانت أساس النظرية الاجتماعية فى أيامها الأولى، ثم انفصلت شيئًا فشيئًا أيضا ولكن احتفظت فى طياتها بفكرة النسق وبنائه من أنساق فرعية تتكامل وظيفيّاً وتترابط عضوياً وهى الفكرة التى نشأت أولاً فى العلوم البيولوجية.

٢- نمط الصراع والتطرف Conflict- Radical:

نظريات الصراع مثلها مثل العضوية والبنائية الوظيفية من ناحية أنها تركز على النسق الاجتماعى، ولكنها ترى أن الصراع يسود النسق الاجتماعى أكثر من التطابق والتكامل، إذ أنه أثناء صراع الأفراد مع الطبيعة لإشباع حاجاتهم الأولية تظهر أنواع مختلفة من أشكال الصراع التى يعتبرها أصحاب هذا الاتجاه أنها أساس النسق الاجتماعى وأساس تطوره. وهكذا يصبح النظام الاجتماعى فى حالة صراع وتطور دائم.

تظهر دراسة الصراع الكلاسيكية فى أعمال كارل ماركس، الذى استخدم المنهج الجدلى المادى Deialictical materialism لتحليل تاريخ الصراع البشرى مع بعضهم البعض من ناحية أخرى مع الطبيعة. وقد حاول روبرت بارك Robert park دراسة المشاكل الاجتماعية التى درستها نظريات الصراع واستخدم فى ذلك إطار عمل إيكولوجى Ecological framework حاول به دراسة التطور الطبيعى للمجتمع، أما فلفريدو بارتو Vilfredo pareto فقد كان أكثر ميلا نحو استخدام العوامل الطبيعية، ومثله ثورستين فبلن Thorestien Veblen، فكل منهما استخدم أفكارا مثل الرواسب Residues والسمات الإنسانية Hums Lraits لشرح التوازن والصراع الاجتماعى.

أما نظرية الصراع المعاصرة أى فى شكلها الحديث، فهى تحاول تحسين وإضفاء مزيدا من الدقة على النظرة الماركسية من أجل جعلها تتناسب مع فهم المجتمع الصناعى الحديث ومشاكلة، ومن هؤلاء العلماء الذين يحاولون ذلك رالف داهرندورف Ralph Dahrendorf الذى وضع نظرية حول صراع الجماعة group conflict، وكذلك لويس موزر Lewis Coser فى دراسته لوظيفة الصراع الاجتماعى.

وهناك تطور حديث آخر لنظرية الصراع فى علم الاجتماع المعاصر حيث أدمجت فكرة الصراع فى أفكار النظرة الراديكالية عند تشارلز ميلز C.Wright Mills، الذى اشتهر بمحاولته تنمية نظرية أكثر تطرفا، بينما دافيد رايسمان Dsvid Riesman وضع أساسًا ديموجورافيا للصراع الاجتماعى والتغير فى شكل ثلاثة أنماط من الإلزام الاجتماعى.

فنمط الصراع والتطرف يعتبر المجتمع نسقًا من القوى المتصارعة ينبثق من صراع الأفراد عند محاولتهم إشباع حاجاتهم الأولية وبالذات الحاجات الطبيعية. وهذه النظرة فى استخدامها سواء للعوامل الطبيعية أو الاجتماعية فى التفسير، تشبه النمط العضوى البنائى الوظيفى فى صياغتها مفاهيم عن المجتمع كنسق من وحدة كبرى إلا أن كلًّا منهما يختلف عن الآخر، بل وتناقض الأخرى، فنظريات الصراع تفترض المجتمع نسق يركبه الصراع، بينما النظريات البنائية الوظيفية تركز على التكامل الاجتماعى، وذلك يرجع إلى اختلاف ما تتضمنه كلا منهما من أيديولوجية.

٣- النمط السلوكى الاجتماعى:

يعتبر هذا النمط عكس النمطين السابقين، فهذا النمط يعمل عند مستوى الوحدات الصغرى والعلاقات الشخصية المتبادلة، ويعتمد فى تفسيرها على الاستقراء inductive أكثر من الاستدلال deductive، وهى بصفة عامة تنظر إلى المجتمع من خلال الفرد، أكثر من اعتبارها المجتمع كنسق من الأمور الوظيفية، فهى تركز على البيئة الاجتماعية وعلاقة الأفراد بها خلال النشأة الاجتماعية، والدور، والتبادل، وأداء الدور، وتعريف الشخص للحقيقة.

ويتضمن النمط السلوكى استخدام كل من العوامل الاجتماعية والعوامل الطبيعية كأدوات للتفسير، فمثلاً ماكس فبر Max Weber وجورج ميد Goerge Mead، درسا الفرد كنتاج للمجتمع، وركزا على معنى السلوك الاجتماعى وعلى عمليات التفاعل المتبادل الاجتماعى، وفى الطرف المقابل نجد جورج سمل Goerge Simmel، ووليم سمنر W. Sumnsr، استخدما غرائز ورغبات الإنسان لتفسير البناء الاجتماعى وتطوره.

ظروف التنظير

غنى عن البيان أن التنظير لا يوجد فى فراغ بل بالعكس هو يتم فى مجتمع له خصائصه، فإذا كانت عملية التنظير Theorizing هى العملية التى يفسر بها ويعلل ويشرح الأفراد بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية، فإنه من المهم جداً ملاحظة أن التنظير يحدث فى داخل متن وضعية اجتماعية معينة، أى أن التنظير محدد من قبل تاريخياً وأيديولوجيا، ويزداد هذا التحديد تأثيراً فى مجال النظريات الاجتماعية، وهذا ما يسميه بعض علماء الاجتماع بالقهر الأيديولوجى. وهكذا تشرح النظرية الحقيقة الاجتماعية لأصحاب هذه الوضعية الاجتماعية. وتتشكل هذه الوضعية الاجتماعية من الخصائص التاريخية والأيديولوجية وحالة المعرفة فى المجتمع وفضلاً عن ذلك فإن الخبرات الحياتية للمنظر تحدد اتجاهاته الأيديولوجية والمعرفية التى بدورها تؤثر فى صياغته للمفاهيم عن الحقيقة الاجتماعية. وهكذا فى ظل هذه الظروف تقدم النظرية تفسيرا للحقيقة والواقع، لذلك رأيت بيان وشرح تلك الظروف وهى:

١- الظروف الاجتماعية:

فى معظم الحالات تنمو النظريات كرد فعل للتغيرات فى المجتمع وتطور حاجاته. وهكذا يمكن القول أن علم الاجتماع قد تأسس فى أوربا أثناء فترة تتميز بالقلق والثورات. والنظام والاستقرار كمطلب اجتماعى كان هو رد فعل للتطور الاجتماعى مثل التصنيع، والبيروقراطية وحاجات الرفاهية والانفجار السكانى، بمعنى أن النظرية الاجتماعية تنشأ كرد فعل لظروف اجتماعية معينة، وخاصة الثورات الدينية والسياسية، والتغيرات الاقتصادية، وتأثيرات التصنيع، ونمو العلوم.

ذلك يعنى أنه يمكن النظر إلى النظرية على أنها رد فعل أو متغير وصياغة للمفاهيم عن المشاكل الاجتماعية الحادثة فى المجتمع كما يتلقفها عدد من الأكاديميين المتخصصين، ومن ثَمَّ تظهر أنواع معينة من النظريات عند مختلف المراحل من تطور المجتمع.

وهكذا يمكن القول أن النظرية البنائية الوظيفية قد حدثت كرد فعل للاضطراب الاجتماعى والاقتصادى، بمعنى أنها تمثل استجابة للحاجات الاقتصادية فى الولايات المتحدة فى سنة ١٩٣٠[١]. بينما النظريات المتطرفة Raducal يمكن اعتبارها رد فعل لأنواع التسلط التى بدت مصاحبة للمستويات العالية من التصنيع والبيروقراطية. وأيضًا أثرت ظروف الحرب فى نمو نظريات التكنولوجيا ونظريات الاختراع.

وعلى هذا يمكن النظر إلى النظرية كوظيفة لظروف اجتماعية معينة، ومن ناحية أخرى تمثل النظرية رد الفعل الرئيسى لعلم الاجتماع فى مواجهة حاجات وظروف اجتماعية معينة، وإذا كانت هذه الظروف الاجتماعية تتضمن الحاجات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فإن من أهمها درجة نمو العلم.

٢- حالة المعرفة وقيمها[٢]:

تعتبر حالة المعرفة وقيمها السائدة انعكاسًا لمختلف مراحل حركة المجتمع، وتؤثر بشدة كبيرة على درجة نمو العلم فيه. وعلى هذا تعتبر النظرية وظيفة لحالة المعرفة وقيمها ومعاييرها السائدة.

ذلك أن مدى انتشار المعرفة فى بيئة المنظر وفى عصره تسمح بطرق مختلفة ومتنوعة للبحث، إذ تتعلق مسألة إمكانيات منابع التنظير بالتصورات العقلية للمنظر. وهنا قد يكون أفق المنظر وفكره محددًا بالمعرفة الموجودة فقط فى مجتمعه، أو ربما تمتد إلى ما وراء ذلك لتشمل المعارف الموجودة فى مجتمعات أخرى. ومن ثَمَّ يمكن القول أن سهولة وامتداد الاتصالات تؤثر فى تراكم الأفكار، ولهذا فإن المجتمعات المفتوحة فكريا تساعد على تراكم الأفكار مما يؤدى إلى زيادة إمكان عمل نظريات جديدة، والعكس صحيح بمعنى أن المجتمعات التى تتضمن قيما لا تشجع الحرية الفكرية وتشجع التكتم والسرية أو تقطع سريان المعارف، أو تجعل من التساؤل عن المعارف حقًا خاصًا للقلة المختارة، كل ذلك

(١) لمزيد من الشرح فى هذه النقطة يمكن الرجوع إلى:
Gouldner, A.W.: The Coming Crisis in Western Sociology. Avon, New York, 1970. P.P. 141-157.

(٢) لمزيد من الاطلاع يمكن الرجوع إلى كتاب «التغير الاجتماعى» للمؤلف من ص ١٧٤- ١٨٣.

يحد من أفق المنظر مما يؤدى إلى عقم المجتمع وتخلفه. إن مجموعة من الظروف ربما تكون عظيمة التشجيع على التعلم من ظروف أخرى، فهذه الظروف المشجعة تكون أكثر ملاءمة لنمو الثقافة والاختراعات، ومن بين الظروف الهامة للاختراع، زيادة ما يعرفه الفرد حاليًا، وسهولة تعلم شيء أكثر. ولهذا ترجع نهضة أوربا فى العصر الحديث إلى تخلص المجتمعات الأوربية من حجر الكنيسة على عقول المفكرين حيث كانت الكنيسة لا تشجع على التجديد سواء فى العلوم الطبيعية والاجتماعية بل كانت تقاوم ذلك بشدة، حتى أنها أعدمت جاليليو لأنه قال إن الأرض كروية وهم لا يجدون ذلك فى كتبهم المقدسة، وتبع هذا التخلص من حجر الكنيسة اتجاه إلى ترجمة التراث الإسلامى واليونانى والرومانى، مما أدى إلى انفتاح المعرفة فى أوربا على معارف جديدة لم تكن متاحة من قبل.

ويلاحظ أن أسلوب التفكير السائد عند نقطة معينة من نمو المجتمع يعمل على تجديد نوع النظريات التى يمكن أن تنشأ فى ظله. ولهذا تأثرت معظم النظريات الاجتماعية المبكرة بفروع معينة من الفلسفة مثل الفلسفة الطبيعية مثل نظرية هربرت سبنسر، وفلسفات عصر النهضة وعصر الإصلاح كنظرية أوجست كونت، وعكست تلك النظريات نظرات خاصة عن الإنسانية والمجتمع.

ولهذا عندما نمى العلم فى تزاوجه مع المذهب العملى Pragmatism فى أوربا والولايات المتحدة، ابتدأت النظريات تأخذ أشكالاً مختلفة، كما هو مشاهد فى التركيز الحالى على النظريات الرياضية، وبناء النظريات العلمية، أكثر تجريبياً منها عما كانت عليه فى النصف الأول من القرن العشرين.

وبصفة عامة يعتبر علماء علم اجتماع المعرفة أنه كلما تقدم مستوى التصنيع فى المجتمع، تتحرك أساليب التفكير بعيداً عن التفكير الفلسفى إلى التفكير العلمى والتجريبى، وذلك ينطبق بصفة عامة على المجتمعات الغربية.

٣- الظروف الحياتية للمنظر:

هناك عدد من النواحى الخاصة بحياة المنظر التى تؤثر على نوع النظريات التى ينشئها. وتلك تتضمن الموقف الاقتصادى الاجتماعى للفرد أو ما يحب بعض

علماء الاجتماع أن يسميه الموقف الطبقى، وكذلك تدريبه الأكاديمى ونظرته الأيديولوجية، وحياته الشخصية ورفاقه من العلماء.

وهكذا يمكن القول أن عالم الاجتماع من الطبقة العليا، ولديه مستوى عال من التعليم والتدريب ويعتبر نفسه من الصفوة يركز اهتمامه على التطور الاجتماعى والضبط الاجتماعى، ومن ثَمَّ يميل إلى أن يكون ذو أيديولوجية محافظة ويتبنى نظريات عضوية وبنائية وظيفية. وبالعكس ذلك الذى من طبقة متوسطة أو منخفضة وتدريب أقل يميل إلى الأيديولوجية المتطرفة. فالخبرات الشخصية للمنظرين تجعلهم ينتبهون ويركزون اهتمامهم على نواحى معينة من الظواهر الاجتماعية وهى بدورها تؤثر على تنظيرهم.

ويلاحظ أننا ذكرنا التدريب العلمى ولبيان أهميته يمكن القول أن المجتمع قد يشجع على التدريب ويبذل بسخاء فى سبيله أو قد لا يشجع ويقتر. ويقول أوجبرن ونمكوف: (إنه فى السكان من نفس الجنس هناك عدد كبير من الأشخاص يرثون الكفاءة الكافية ليكونوا مخترعين. وبالرغم من ذلك فإن عدد المخترعين صغير، ويرجع الاختلاف إلى حقيقة أن كل فرد من ذوى الكفاءة الموروثة لا يدربوا على الاختراع، ولا المجتمع يشجع الاختراع عند كل من تدرب. وهكذا فى الأنثروبولوجيا، هناك عدد قليل جداً من البحاث الذين يصلون إلى اكتشافات علمية. وإن كان هناك عدد كبير من الأشخاص الوارثين لقدرات عقلية كافية، ولكن ما يخفض العدد هو الوقت والمال المطلوب لإنتاج دكتور فى الأنثروبولوجيا[1].

كما أن تأثير وتشجيع رفاقه من العلماء له أهمية كبرى أيضًا. فالجماعة الأكاديمية تمثل ثقافة فرعية ذات تأثير بالغ، وأهمها ما تتضمنه هذه الثقافة الفرعية من قيم تحض على العمل التعاونى والمشاركة فى المجهودات بين الزملاء الأكاديميين والمفكرين أو عكس ذلك. وفى الحقيقة أن (إمكانية نمو فكرة جديدة تكون عالية وعظيمة إذا أظهر عدة أشخاص تلقائياً وتعاونياً نفس الإمكانية، مشاركة المجهودات فى العمل لا توفق فقط بين تكاثف الأفكار لعديد من الأفراد،

(1) Ogburn and Nimkoff: "A hand Book of Sociology" Roulidge and Kegan Poul. London. 1953. P. 546- 547.

ولكنها أيضًا تزيد من فرص احتمال وصول أحدهم إلى حل لمشكلتهم العامة. وأكثر من ذلك فإن تأثيرهم المتبادل على بعض يحرك التبادل والمشاركة فرؤية عمل مشترك واحد يصبح قوة محركة ودافعة لأفكار جديدة عند الآخرين وأيضًا يساعد تكاملهم التفكيرى على إمكانية الحل، ذلك أنه فى كثير من اللحظات تتطلب المشاكل المعقدة الكثير جداً من التجارب، وتحتاج إلى مناهج كثيرة للبحث والتجريب، ولا يمكن لفرد واحد أن يواجه كل هذه المتطلبات. فالمشاركة فى العمل ليست ظاهرة طبيعية، إذ أنها لا توجد عشوائياً أو بيولوجيا، إنما هى تأثير وتنميط ثقافى[1]. وهكذا فبيئة الجامعة كبيئة معرفية قد تساعد وتشجع أو تحبط وتقيد نمو النظريات الاجتماعية من خلال نوع القيم التى تسود هذه الثقافة الفرعية.

ولهذا فقد تأسس مفهوم أن النظريات العلمية تصنع داخل الجامعات وتذاع عن طريق نشرها فى الصحف الأكاديمية، ومن هنا تبدو أهمية الجامعات فى التأييد المعنوى والمادى للمفكرين لاستمالتهم نحو بذل الجهود فى البحث وصنع النظريات التى تخدم المجتمع.

وبناء على ما سبق عرضه من أفكار حول الظروف الاجتماعية المحيطة بعملية التنظير، يمكن القول أن عملية التنظير تؤثر فيها عوامل اجتماعية كثيرة وكذلك عوامل معرفية متعددة، وعوامل حياتية، كما أنها تمثل مرحلة معينة من تطور المجتمع، ومن ثَمَّ يمكن القول أن عملية التنظير هى عملية اجتماعية أكثر منها عملية فردية.

●●●

(1) Barnett, H.G.: "Innovation" McGrow-Hill Book Comp Inc. N.Y. 1953. P. 14-43.

الفصل الثانى

النظريات العضوية والبنائية الوظيفية

أولاً: النظريات العضوية

• الظروف الاجتماعية.

• كومت.
• سبنسر.
} طبيعى

• دوركيم.
• تونيز.
} نسقى

ثانيًا: البنائية الوظيفية

• الظروف الاجتماعية.

• باسونز.
• بكلى.
} طبيعى

• ترياكيان. نسقى

النظريات العضوية

الظروف الاجتماعية

فى حديثنا السابق اعتبرنا النظرية الاجتماعية رد فعل جماعة معينة لما شعروا به من مشاكل اجتماعية فى عصرهم. وفى حالة النظرية العضوية جاء التنظير من جماعة من أذكياء الطبقة العليا الذين تثقفوا فى ظل تقاليد فلسفة عصر التنوير والذين كانوا يعبرون عن استجابتهم للمضمون الاجتماعى الذى كابد وطأة الثورة السياسية والنمو الصناعى.

وانطلاقًا مما بين أيدى هذه الجماعة من معارف سابقة هى عبارة عن ما قدمه أصحاب النظرية الطبيعية وأصحاب المذهب العقلى من افتراضات، عمل هؤلاء المفكرون على إنشاء نظرة للمجتمع تركز على أن حاجات النسق تعمل وظيفياً فى ظل القوانين الطبيعية، فتجعل من المجتمع نسقًا يتكون من أجزاء مترابطة وظيفيا من خلال تقسيم العمل أو بناء الأدوار Role structure وطبقًا لهذه النظرة يظهر المجتمع كنسق عضوى وظيفى، وجزء من ذلك الكل ألا وهو النظام الطبيعى، وأن هذا النسق العضوى يتطور فى استجابة لحاجاته الأساسية.

وكانت الكتابات تركز على إما: البناء المكيانيكى Mechanical structure لهذا النسق العضوى الاجتماعى -كما عند سبنسر وكونت- أو على نمط النسق المعيارى Normative system والذى يعتمد على تقسيم العمل فى داخله -كما عند دوركيم- وفى كل من الحالتين نظروا إلى المجتمع كنسق عضوى متكامل وظيفيا، وفى نفس الوقت هو جزء من النظام الطبيعى ويعمل من خلال نسق تقسيم العمل.

هذا النموذج نسقى فى نظرته إذ اعتبرت المجتمع نسق طبيعى ونظرت إلى حاجات المجتمع الطبيعية على أنها رئيسية وأعظم من غيرها، ومن ثَمّ فهى نظرة محافظة فى أيديولوجيتها إذ أنها تتطلب من الفرد أن يتكيف لهذه الحاجات أكثر من العكس أى تكييف الحاجات للفرد. واضح أن هذه النظرة محاولة من مجتمع

المثقفين فى ذلك الوقت للتعامل مع الاضطرابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى عصرهم.

وعادة تظهر هذه النتائج النسقية فى مثل هذه الظروف، وخاصة بين عدد من الصفوة وتصبح الوظيفة الأساسية لعلم الاجتماع فى مثل ذلك الموقف هى اكتشاف القوانين الهامة للنظام الاجتماعى، وذلك حتى يتمكن فهمها بشكل أحسن، ومن ثَمَّ يمكن ضبطها بأسلوب أكثر كفاءة.

وهكذا يمكن تلخيص الظروف الاجتماعية لظهور النظرية العضوية كالآتى:

١- الظروف الاجتماعية، الثورة السياسية، الانهيار الاجتماعى، النمو الصناعى.

٢- حالة المعرفة: المذهب الطبيعى- المذهب العقلى- فكرة التطور الاجتماعى- الوضعية.

٣- الظروف الحياتية: من الشريحة العليا الاقتصادية الاجتماعية - ثقافة عصر التنوير- جامعيون.

***

أوجست كونت AUGUSTE COMTE

(١٧٩٨ - ١٨٥٧)

ولد أوجست كونت فى فرنسا سنة ١٧٩٨ من أسرة كاثوليكية موسرة، وتعلم الطب والفسيولوجيا فى مدرسة البوليتكنيك وهى من مدارس الطبقة الأرستقراطية، ومؤخراً تعلم الفلسفة الوضعية، وتعلم فى ظل تقاليد فلسفة عصر التنوير، ولقد مارس السياسة عقب انهيار الثورة الفرنسية السابقة (١٧٩٣)، وعاصر الثورة الصناعية. وتزايد الصراع بين العلم والدين. وتتضمن أعماله الرئيسية الفلسفة الوضعية Cours de Philosophie Posotive (١٨٣٠) ونظرة عامة عن الوضعية (١٨٤٨)، واشتهر أوجست كونت بأنه هو الذى أعطى علم الاجتماع اسمه، ومن ثَمَّ يعتبر أوجست كونت مؤسس علم الاجتماع فى العصر الحديث(١).

أهدافه:

من الظروف الاجتماعية والظروف الحياتية التى عاشها أوجست كونت يمكن فهم أن الهدف الرئيسى لعلم الاجتماع عنده هو إقصاء البناء الثورى للمجتمع الحديث، بمعنى منع الاضطراب الأخلاقى الذى أحدثته الثورة الفرنسية. فقد كان أوجست كونت مهتماً بإعادة تنظيم المجتمع طبقًا لفلسفته الوضعية الإنسانية.

وطالما كان يعتقد كونت أن أساس المجتمع فى أفكاره الأساسية فقد كان كل همه أن يؤسس علم اجتماع يعمل على تأسيس هذه الأفكار التى سوف تقوى النظام الاجتماعى عن طريق تقوية النظام الأخلاقى. وتبعًا لذلك فقد حاول إنشاء نوع من علم الطبيعة الاجتماعية Social Physic والذى أسماه فيما بعد بعلم الاجتماع Sociologg. وهذا العلم سوف يعمل على تأسيس قوانين اجتماعية، وكذلك إعادة تنظيم المجتمع فى توافق مع نسق القيم الذى اعتقد كونت أنه أحسن القيم وأكثرها ملاءمة للطبيعة الإنسانية. ويفصح كونت عن هذه القيم فى كتابه

---

(١) دكتور مصطفى الخشاب: «أوجست كونت» -لجنة البيان العربى- القاهرة- ١٩٥٠.

(السياسة الوضعية)، فقد اعتقد أن القيم الهامة هى قيم المذهب الفيدرالى والتمثيل الوظيفى والنزعة الإقليمية والنزعة المحلية، واعتبر أن هذه القيم هى أسس نجاح المذهب الوضعى الجديد.

وهكذا حاول كونت استخدام مبادئ فلسفة عصر التنوير لحل مشاكل الثورة فى عصره مما نتج عنه نظرية عن التطور الاجتماعى التى أبرزت الأهمية الرئيسية للعقل الإنسانى والقيم الاجتماعية السائدة. ولقد كان يأمل أنه باستخدام العلم الجديد (علم الاجتماع) أنه يستطيع إعادة تأسيس نظام أخلاقى جديد فى مقابل الفوضى الاجتماعية الضاربة أطنابها حوله.

الافتراضات:

كان كونت يعتقد أن العالم تنظمه قوانين طبيعية غير مرئية، وهى التى تقبع وراء تطور ونمو العقل والقيم الاجتماعية السائدة. (ويفهم من ذلك أن كونت اتخذ من الإنسانية موضوعًا للدراسة والبحث واستعرض تاريخها واستنبط منه قانونًا فى الأدوار الثلاثة، ويفهم أيضًا أن كونت أسس هذا القانون على طبيعة العقل الإنسانى وخضوع هذه الطبيعة لمبدأ الحركة والتطور)(1). فالمبدأ الفلسفى لعلم الاجتماع هو أن الظواهر الاجتماعية تخضع للقوانين الطبيعية.

ولقد ظهر علم الاجتماع إلى الوجود يوم أن اكتشف كونت قانون الأطوار الثلاثة وهو أن البشرية قد مرت بثلاث مراحل أو أطوار من التفكير، المرحلة الأولى هى المرحلة التيولوجية أو اللاهوتية وفى هذه المرحلة كانت البشرية تفسر كل من الظواهر الطبيعية والاجتماعية تفسيرًا دينيًا، ثم انتقلت البشرية إلى المرحلة الثانية وهى المرحلة الميتافيزيقية حيث كانت البشرية تفسر الظواهر تفسيرًا ميتافيزيقيا، ثم تقدمت البشرية إلى المرحلة الثالثة وهى الوضعية أو العلمية حيث تفسر البشرية الظواهر تفسيرًا علميًا. فقد كشف هذا القانون عن حالات التفكير الثلاثة، بل اعتبر كونت أن اكتشاف هذا القانون هو الذى أوحى إليه بفكرة وضع علم جديد يدرس الظواهر الاجتماعية. فلم يعد علم الطبيعة الاجتماعية مجرد تصورات ومبادئ فلسفية بل أصبح علمًا وضعيًا كباقى العلوم.

---

(1) دكتور مصطفى الخشاب: «أوجست كونت» لجنة البيان العربى- القاهرة ١٩٥٣م.

واعتبر كونت أن التمييز بين الظروف الاستاتيكية والديناميكية للموضوع يجب أن تمتد إلى علم الاجتماع، فيقول (ولسوف أتعامل مع شروط الوجود الاجتماعى كما فى البيولوجى سأعامل التنظيم ordanization تحت عنوان التشريح anatomy، وكذلك بالنسبة لقوانين الحركة الاجتماعية كما فى البيولوجى تحت عنوان علم وظائف الأعضاء Physiology.

هذا التقسيم هو ضرورى من أجل أغراض الشرح فقط، ولا يجب أن يمتد استخدام هذا التقسيم وراء هذا الغرض. وكما رأينا فى البيولوجى أصبح ذلك التمييز والتقسيم أكثر ضعفًا ووهنا بتقدم العلم، فهل سوف نرى ذلك عندما يتم تكوين علم الطبيعة الاجتماعية، ذلك التقسيم سوف يبقى من أجل أغراض التحليل، ولكن ليس كانفصال أو تقسيم حقيقى وفعلى للعلم إلى جزئين. فهذا التمييز هو ليس بين فئتين من الحقائق أو الوقائع، ولكن بين وجهين أو ناحيتين من نواحى النظرية.

وهكذا قسم كونت علم الطبيعة الاجتماعية إلى قسمين: قسم الاستاتيك سوسيال، وقسم الديناميك سوسيال[1]. والأول موضوع دراسته العناصر الاجتماعية ووظائفها وذلك للكشف عن القوانين التى تحكم الترابط بين النظم الاجتماعية. والديناميك سوسيال موضوعه دراسة قوانين الحركة الاجتماعية والسير الآلى للمجتمعات الإنسانية والكشف عن مدى التقدم الذى تخطوه الإنسانية فى تطورها، أى أن الدراسة الديناميكية تقوم على أساس فكرة التقدم، وتقوم الدراسة الاستاتيكية على أساس فكرة النظام.

ومن ثَمَّ يتضح أن هذا التقسيم هو من أجل إبراز مفهومى النظام Order والتقدم Progress. واعتبر كونت أن النظام يتوقف على الانسجام الدائم بين ظروف الوجود الاجتماعى، أما التقدم فيتوقف على التطور الاجتماعى، فالظروف الاجتماعية، من ناحية، وقوانين الحركة من ناحية أخرى يشكلان استاتيك ديناميك علم الطبيعة الاجتماعية، ومن ثَمَّ يصبح غرض وهدف علم الطبيعة الاجتماعية (علم الاجتماع) هو دراسة وضعية لقوانين النظام والتقدم. وكلما تقدمنا فى دراسة ظروف المجتمع الإنسانى (قوانين النظام)، كلما زادت قدرتنا على التنظيم والتقدم، وأيضًا كلما زادت روح الفلسفة الوضعية ظهورًا.

---

(١) دكتور مصطفى الخشاب: «أوجست كونت» لجنة البيان العربى- القاهرة ١٩٥٣م ص ٦٨.

باختصار تدرس الديناميكية الاجتماعية قوانين التتابع، بينما الاستاتيكية الاجتماعية تدرس الوجود، ومن ثَمَّ فإن فائدة الأول هى أن يجهز النظرية الحقيقية للتقدم إلى الممارسات السياسية، بينما الثانى ينجز نفس الخدمة بالنسبة للنظام، وهذا التلاؤم والتوافق لحاجات المجتمع الحديث هو التأكيد القوى للصفات الفلسفية لمثل هذه التوليفة.

الدراسة الاستاتيكية:

الدراسة الإحصائية تعتمد على استقصاء قوانين الفعل ورد الفعل لمختلف أجزاء النسق الاجتماعى- بعيدًا عن الحركة الأساسية التى تعمل دائمًا على تعديل تلك القوانين.

المبدأ العلمى عن العلاقة بين النظام السياسى والظروف الاجتماعية هو ببساطة أنه لابد أن يكون هناك دائمًا انسجام تلقائى بين الكل وأجزاء النسق الاجتماعى، هذه العناصر التى بالضرورة سوف تأتلف عاجلاً أو آجلاً فى أسلوب متلائم مع طبيعتها.

من الواضح أنه لابد للنظم السياسية والأحوال الاجتماعية من ناحية، والأشكال والأفكار الاجتماعية أن تكون دائمًا مترابطة، ولكن أكثر من ذلك لابد لهذا الكل المتماسك أن يكون دائمًا ملتحمًا مع حالة من التطور متناسبة مع درجة تطوره نحو اكتمال التطور الإنسانى، منسحبًا ذلك فى كل الوجوه- المعرفة والأخلاق، والنشاط الطبيعى. ومن ثَمَّ يصبح الموضوع الرئيسى لأى نسق سياسى، أيا كان زمنى أو روحى هو أن ينظم ويرتب التمدد التلقائى الذى يحدث للمجتمع فى كل الوجوه، بأحسن أسلوب يؤدى إلى قيادة النسق نحو أهدافه المحددة.

فكرة الترابطات المتبادلة أصبحت من وجهة النظر العلمية فكرة أساسية. ولكن تصبح أكثر وضوحًا كلما كان العضو organism أكثر تركيبًا، وكلما كانت الظاهرة موضع البحث أكثر تعقيدًا، فمثلاً عند الحيوانات، الترابطات المتبادلة بين أعضاء العضو أكثر تكاملاً منها فى النبات، بينما فى الإنسان أكثر من الحيوانات، ومن ثَمَّ

فهذه الفكرة لابد أن تزداد رسوخًا علميًا فى علم الطبيعة الاجتماعية (علم الاجتماع)، وحتى أكثر مما هى عليه فى البيولوجى.

وينبع من ذلك أنه لا يمكن أن توجد دراسة علمية عن المجتمع سواء عن ظروف التجمع (استاتيك) أو حركته (ديناميك)، إذا قسم المجتمع -أى النسق- إلى أجزاء، وتدرس تلك الأقسام كل قسم بعيدًا عن الآخر.

ويلاحظ أن التقسيم المنهجى للدراسات التى توجد فى العلوم غير العضوية (الجمادات) inorganic، هى غير صالحة إطلاقًا فى علم المجتمع الحديث والمركب ولا تؤدى إلى أى نتيجة. . . ولقد يأتى اليوم الذى فيه يكون مرغوبًا فى تقسيم فرعى من أجل الدراسة العلمية، ولكنه من المستحيل لنا الآن أن نتنبأ أى مبدأ سوف يتم على أساسه هذا التقسيم، لأن هذا المبدأ نفسه لابد أن ينشأ وينبعث من نمو العلم نفسه.

فى العلوم غير العضوية تكون العناصر معروفة لنا أحسن من الكل الذى تكونه تلك العناصر، ولهذا فى مثل تلك الحالة أحسن لنا أن نتقدم من البسيط إلى المركب، ولكن الطريقة العكسية ضرورية فى دراسة الإنسان والمجتمع، فالإنسان والمجتمع ككائنات كلية معروفة أكثر لنا، وكذلك أسهل فى الدراسة من الأجزاء التى يتكون منها المجتمع أو الإنسان.

الدراسة الديناميكية:

ولو أن النظرة الاستاتيكية للمجتمع هى أساس علم الاجتماع إلا أن النظرة الديناميكية ليست فقط الأكثر أهمية من الاثنين، ولكن أيضًا الأكثر أثرًا فى خواصها الفلسفية، وخاصة تلك الفكرة السائدة عن التقدم المستمر للإنسان، أو بالأحرى النمو التدريجى للإنسانية.

إذا كنا نكتب بحثًا منهجيًا عن الفلسفة السياسية، لسوف يكون من الضرورى إعطاء تحليل أولى عن دوافع الفرد التى تشكل قوى التقدم للنوع الإنسانى، بإرجاعها إلى تلك الغريزة التى تنتج عن اتفاق واتحاد كل ميولنا الطبيعية، والتى تحث الإنسان على تنمية كل حياته الفيزيقية والأخلاقية والعقلية بأكبر قدر وإلى أبعد ما يمكن أن تسمح له ظروفه.

ولكن هذه الفكرة عرفهـا كل فلاسفة عصر التنوير، ولهذا عـلينا أن نتقدم فوراً إلى اعتـبار أن التتـابع المستمـر للنمو الإنسانى، الملاحـظ فى كل هذا النوع وكأن الإنسـانيـة كـانت واحـدة، ومن أجل مـزيد من الإيضـاح يمكن أن نأخـذ رأى كوندرسيه Condorcet عن اقتراحة أن أمة واحـدة التى يمكن أن نرجع إليها تتابع التحسـينات الاجتماعـية. هذا التصور العـقلى قريب من الحقـيقة أكثر ممـا اعتدنا افتراضـه، لأن من وجهة نظر سـياسية، الخلفـاء الحقيقـيون لمثل هؤلاء الناس هم بالتأكـيد أولئك الذين أخذوا على عـاتقهم ونفذوا مشـاريعهم البدائيـة، أيا كانت التربة التى يسكنونها، وأيا كان الجنس الذى انبعثوا منه.

وباختصار إنه الاستمرار السياسى الذى رتب التتابع الاجتماعى.

الروح العامة الحـقيقية للديناميكية الاجتماعـية تتوقف على إدراك كل من هذه الحالات الاجتـماعية المتتـابعة على أنها النتائج الضروريـة للحادث قبل والذى هو المحرك الضـرورى للتالى بعده وطبقًـا لبديهية ليـبنتز Lebintz (الحاضر يكبر مع المسـتقبـل). ولهذا يصـبح موضـوع العلم هو اكتـشاف القـوانين التى تحكم هذا الاستمرار، وأيضًا تجميعها لأنه هو الذى يحدد مجرى النمو الإنسانى.

الآن إنه ذلك التراكم البطىء المسـتمر لتلك التـغييرات المـتتابعة والتى تدريجـياً كونت الحركة الاجتـماعية، والتى خطواتها قد خطتها الأجيـال، وتغيراتها الأولية عملها التجديد المسـتمر للبالغين. وفى وقت ما عندما مستوى السـرعة لهذا التقدم تبدو لكل الأعين مـلحوظة السرعة، فحـقيقة الحركـة لا يمكن أن تنكر حتى عند أولئك الذين أكثرهم بغضًا لها.

وفى حركـة الإنسانية من الفـترات المبكرة حـتى الآن، سوف نرى أن الخطوات المختلفة والمتلاصقة والمتلاحقة بنظام محدد، وأريد أن أشير إلى النمو العقلى والذى يشكل تمايزاً واضحًا جـداً ولا يحتاج إلى تساؤل ولهـذا يؤخذ عادة على أنه دليل ومرشد. الجزء الرئيسى لهذا النمو والأكـثر تأثيراً فى التقدم العام، إنه بلا شك نمو الروح العلمـيـة من العـمل البـدائى لأولئك الفـلاسفـة أمـثـال طاليس Thales وفيثـاغورس Pythagoras إلـى أولـئك الرجال أمـثـال بخت Bichat ولاجرانج

Lagrange. الآن لا يمكن لرجل متنور أن ينكر ذلك. وفى هذا التتابع الطويل من المجهودات والاكتشافات، قد تبع العقل الإنسانى مجرى محدد، كمية معارف معينة، والمطلوبة تمامًا بحيث تسمح بتنمية مجرى التقدم الملائم لكل فترة.

الترابطات المتبادلة التى بيناها عند الحديث فى الحالة الاستاتيكية قد تساعدنا فى تنمية مفهوم عن وجود القوانين الوضعية فى الديناميكية الاجتماعية، فإن لم تكن الحركة محددة بواسطة تلك القوانين لحدث التدمير الكلى للنسق الاجتماعى.

التقدم:

أما رأيه الخاص فى معنى التقدم فيتلخص فى أن الإنسان لا يمكنه أن يدرك هذا المعنى إلا إذا أدرك على الأقل ثلاثة حدود. وكل حد من هذه الحدود الثلاثة يمثل عهدًا من العهود التاريخية. فالحد الأول يمثل نظام المجتمعات القديمة، والحد الثانى يمثل النظام الاجتماعى فى عهد المسيحية، وعهد الثورة الفرنسية هو الحد الثالث لإدراك معنى التقدم. لأن هذه الثورة أوحت للإنسان بضرورة قيام نظام جديد، وأن الثورة أوحت إلى الإنسان بفكرة التنظيم الاجتماعى الجديد. إلا أن الثورة الفرنسية لم تأت لنا إلا بفكرة ناقصة عن التقدم الاجتماعى، لأنها تجعلنا نتصور فكرة نظام اجتماعى يختلف اختلافًا جوهريًا عن النظم السابقة، ولكنها لم تنجح فى إقامة هذا النظام، والآن فإن وظيفة الفلسفة الجديدة (الوضعية) هى أن تحقق إقامة هذا النظام وأن تحقق الفكرة الوضعية للتقدم الاجتماعى[1].

ويقيم كونت فكرة التقدم على أساس علمى سليم إذ يعتبر أن المسألة لم تكن مسألة أحكام تقويمية أو مسألة تقديرية للأدوار المتتابعة للتقدم بالنسبة لحالة مثالية خاصة أو ليست المسألة مسألة معيارية، ولكن بكل بساطة تتلخص فى كشف القوانين التى يسير طبقًا لها التقدم الاجتماعى ومعرفة مدى هذا التقدم فى أدواره السابقة.

ورغم أن كونت يقرر فى هذه العبارة أنه ليس هناك حالة مثالية خاصة حتى يقاس إليها التقدم. ويقرر أن المسألة ليست مسألة معيارية، إلا أنه أيضًا يعتقد بفكرة التقدم، ولو كان ذهب إلى أن المسألة تتلخص فى كشف القوانين التى يسير طبقًا

---

(١) دكتور مصطفى الخشاب- «أوجست كونت» لجنة البيان العربى- القاهرة ١٩٥٣ ص ٩٩.

لها التطور الإنسانى لكان أقرب إلى الصواب ولكن يبدو أن كونت كان يقصد بالتقدم هو مدى قدرة العقل البشرى فى التسلط على القوى الطبيعية وتسخيرها لمنافعه، وذلك يفصح عنه قانونه فى الأطوار الثلاثة الذى يجعل من الطور الوضعى -أى الذى يسود فيه التفكير العقلى شتى مناحى الحياة- هو التطور المتقدم.

وهو نفسه يضع سؤالاً يكشف به عن أن التقدم بمعنى التحسن ليس من علم الاجتماع فى شىء إذ يقول: هل انتقال الإنسانية من طور إلى طور يستدعى بالضرورة تحسنًا أو تقدمًا بالمعنى العلمى الصحيح لهذه الكلمة؟ ثم يجيب على ذلك بأن علم الاجتماع ليس من شأنه أن يتعرض لمثل هذا الموضوع.

ورغم ذلك فقد تعرض له وناقشه، إلا أنه فى مناقشته استطاع أن يتخلص من النزعة التقدمية التى كانت تسود فكر فلاسفة التاريخ، وجعل التقدم نسبيا، إذ يقرر أنه ولو أن الظواهر الاجتماعية خاضعة لقوانين حتمية، فإن هذا لا يمنع من إدراك أن هذه القوانين قابلة للتغير بتدخل الإنسان فى تكييف ظروفها. وإذا كانت الظواهر الاجتماعية من أكثر أنواع الظواهر تعقيدًا وتغيرًا، فليس ثمة تناقض فى التسليم بحقيقة خضوعها لقوانين ثابتة، وفى التسليم فى الوقت نفسه بتدخل النشاط الإنسانى فى مجرى هذه الظواهر. ولهذا التدخل تأثير فعال فى تكييف نتائج هذه القوانين.

وهذا يوضح تمامًا أن كونت يفرق بين التقدم بمعنى التحسن المطلق والاتجاه اللانهائى نحو الكمال وهو الفكر الذى كان سائدًا عند فلاسفة التاريخ، وبين ما يقصده كونت بالتقدم من أنه يخضع لقوانين ثابتة هى وفق قانون التطور العام الذى صاغه، ومن ناحية أخرى جعل هذه القوانين قابلة للتدخل الإنسانى الذى يستطيع أن يغير من سرعتها وليس من القانون ذاته.

وهكذا فقد أبرز كونت أهمية التدخل الإنسانى واقترب بمعنى التقدم من مفهومه العلمى الحديث، كما أن له الفضل فى التأكيد على أهمية التدخل الإنسانى وهو ما يسمى الآن بالتخطيط الاجتماعى الذى أصبح الآن ملاذ المصلحين الاجتماعيين.

وأخيرًا حاول كونت ربط مراحل التقدم التى مر بها الفكر الإنسانى بحياة الإنسان المادية وبنوعية الوحدات الاجتماعية وبالنظام السائد فى كل مرحلة من المراحل الثلاث. أى عندما كان الفكر البشرى فى المرحلة الدينية أو اللاهوتية، كان الإنسان فى المرحلة العسكرية أو الحربية والوحدة الاجتماعية الأساسية كانت العائلة والنظام الاجتماعى السائد كان على أساس عائلى وهكذا بالنسبة لبقية المراحل كما هو مبين بالجدول التالى[1].

الناحية الفكرية	الناحية المادية	نوعية الوحدة	نوعية النظام
١- الدينية.	العسكرية	العائلة	عائلى
٢- الميتافيزيقية.	التشريعية	الدولة الإنسانية	جمعى
٣- الوضعية.	الصناعية	السلالة	عالمى

البناء:

يذهب كونت إلى أنه يفترض فى كل تحليل اجتماعى ثلاث فئات كل منها أكثر تعقيدًا من السابق له، والوجود الاجتماعى يتكون من الفرد والأسرة والمجتمع.

الأسرة: ولكن بما أن كل نسق لابد أن يتركب من عناصر من نفس طبيعته فالروح العلمية تمنعنا أن نعتبر المجتمع على أنه يتركب من أفراد. ومن ثَمَّ فالوحدة الاجتماعية الحقيقية هى بالتأكيد الأسرة، والتى تخفض، إذا كان ذلك ضروريًا، إلى عنصريها الأوليين اللذين يكونان أساسها. هذا الاعتبار يتضمن أكثر من مجرد الحقيقة الفيزيولوجية. ثم أصبحت الأسر قبائل، والقبائل أصبحت أممًا، حتى أن النوع الإنسانى بأكمله يمكن أن يدرك على أنه النمو التدريجى لأسرة واحدة.

هذه الفكرة الأولية البسيطة تشير إلى أن الأسرة تمثل النطفة الحقيقية للصفات المختلفة للعضو الاجتماعى. مثل هذا المفهوم يتوسط بين فكرة الفرد والنوع- أى الفرد والمجتمع.

---

(١) الدكتور أحمد الخشاب: التفكير الاجتماعى -دار المعارف- القاهرة سنة ١٩٧٠ ص ٥٨٥.

المجتمع: الموضوع الثالث لتحليلنا الاستاتيكى يذهب بنا إلى اعتبار أن المجتمع يتكون من أسر وليس من أفراد.

السبب الرئيسى لسمو العضو الاجتماعى على العضو الفردى، هو طبقًا لقانون مؤسس وهو يزداد سمواً كلما زاد تخصص الوظائف المختلفة التى يشغلها العضو أكثر وأكثر تمايزًا، ولكن فى ترابطات متبادلة، حتى أن وحدة الهدف تصبح أكثر فأكثر ائتلافًا مع اختلاف الوسائل.

ويلاحظ أن هناك ميل أولى عند كل المجتمعات الإنسانية لوجود حكومة تلقائيا، هذا الميل يتوافق مع نسق مناظر منغرس فينا كأفراد. من نزعات خاصة نحو الأمر عند بعضنا، والطاعة عند البعض الآخر[١].

***

(١) اعتمد فى عرض أفكار أوجست كونت على المرجع الآتى:

Comte, August: "The Positive Philosophy" translated and condensed by Harriet Martineau, London, George Bell and Sons 1895 Vol. II. Book VI, chap. III PP. 218-32 and chap. V. PP. 275, 280-81, 289-98.

هربرت سبنسر Herbert Spencer

(١٨٢٠ - ١٩٠٣)

سبنسر هو ابن رجل إنجليزى كان يعتبر من المعارضين للسياسة والفكر السائدين فى عصره، وقد تلقى سبنسر دراسة كلاسيكية فى المنزل، وقد عمل كرسام، ثم رئيس تحرير مجلة الاقتصادى The Economist. وكان من المتشيعين للمذهب الفردى. ويعيش تقاليد العصر الفكتورى. وكان سبنسر تحت تأثير الثورة الصناعية والتوسع الاقتصادى ينظر إلى المجتمع من خلال نظرة تطورية دارونية Darwinia-evolutionary. فلقد أخرج فلسفة للتطور كلها من عنده، وكان يعتقد أن مبادئها تطابق العالم الطبيعى ولشئون الحياة، كانت صياغته للتطور أو نظريته للتطور مؤسسة على فكرة التكامل والتفرق، فالأمور تتكامل أولاً، ثم بعد ذلك هناك تفرق للأجزاء المتخصصة للعضو التى تصبح أكثر ملاءمة لواجباتها.

ومن ثَمَّ تعتبر نظريته عضوية تطورية، وتشبه ما ذهب إليه كونت فى تقسيمه المجتمع إلى استاتيك سوسيال وديناميك سوسيال، على ماسنرى.

ومن أعمال سبنسر هى استاتيك سوسيال (١٨٥٠) Social Statics، والمبادئ الأولية (١٨٦٢) First Principles، ودراسة علم الاجتماع (١٨٧٣) The Study of Sociology.

أهدافه: كان اهتمام سبنسر هو تتبع عملية التطور من أول المجتمع إلى آخره تاريخياً واجتماعياً ، ونظراً لمعرفته العميقة بالمذهب الدارونى Darwinism كانت تطبيقاته لمبادئ التطور البيولوجى فى دراسة المجتمع شيئًا يدعو إلى الدهشة والعجب. فلقد استخدم المناظرة البيولوجية فى دراسته للمجتمع وتطوره بدقة وبراعة ملفتة للنظر، وأدت نظرته لمثل هذا التطور العضوى للمجتمع إلى مزيد من القدرة على رؤية الترابط بين الفرد والحاجات الاجتماعية.

***

الافتـرضـات (١)

«فصل ٢١٢» يقـول سبنسر إنه حـتى نستطيع أن نقرر مـا إذا كنا سوف نعتـبر المجتمع ذاتية أم لا، وأيضـا حتى نستطيع أن نقرر أنه إذا اعتبـرنا المجتمع كذات، فإن علينا أن نجعل من المجتمع وحدة لا تشبه أى ذات أخرى، أى أنه غير الذوات الأخرى كلها، ومع ذلك إن مفهومنا عن الموضوع مازال فجا.

أنه يمكن القول أن المجـتمع ما هو إلا اسم جـمعى لعدد من الأفـراد، حاملين الجدل بين المـذهب الأسمى nominalism، والمذهب الواقعى realism إلى مـجال جديد، فلقد يؤيد الأسمى أنه طالما لايوجد إلا أعضاء النوع، والأنـواع تعتبر متفرقة عن بعضـها، فـمن ثَمَّ ليس لها وجـود، ومن ثَمَّ فإن مـا يوجد فـقط هو وحدات المجتمع، بينمـا وجود المجتمع أمر فـعلى. فإذا أخذنا مستـمعى محاضرة كـتجمع والذى باختفـائه بمجرد انتهاء المحاضـرة يثبت لذاته أنه ليس شيئًا ولكن فـقط مجرد تجمع لأشخـاص، ولقد يجادل الأسمى أن ذلك يشبـه المواطنين الذين يكونون أمة، واضح أن هذا يمكن إنكاره بسـهولة، ذلـك أن ترتيب وقتى فى حـالة «مسـتمـعى محاضرة» ولكنه دائم فى الأخرى «المجتمع»، وأن ذلك الاستمرار والدوام للعلاقات بين العناصر هى التى تشكل تفرد ذلك الكل كشىء متمايز عن فرديات أجزائه. فإن تحطم كتـلة إلى شظايا تتوقف الكتلة عن أن تكون شـىء، بينما بالعكس الأحـجار والأخشاب المتفرقة أولاً تصبح الشىء المسمى «منزل» إذا ترابطت بأسلوب معين.

«فصل ٢١٣» فإذا اعتبرنا المجتمع كذات لأنه ولو أنه يتكون من وحدات متفرقة فإنه يوجد تماسك معين فى هذا المجتمع، ولكن الآن إذا اعتبرنا المجتمع كشىء أى نوع من الأشياء نسميه؟ إذ أنه يبدو أنه لايشبهه شىء مما اعتدناه.

إذا كانت العلاقات المستمرة بين أجـزائه تجعل منه ذاتًا، ينشأ السؤال ماإذا كانت هذه العـلاقـات الدائمـة بين أجزائه تمـاثل العلاقـات الدائمـة بين أجـزاء الذوات الأخرى. بين المجـتمع وأى شىء آخر، إن التـشابه الوحـيد الذى يمكن أن يدرك لابد أن يكون من الذى يعزى إلى التوازى فى مبدأ التجمع للعناصر.

---

(١) اعتمد فى هذه الافتراضات على:

Spencer, Herbert: "The Principles of Sociology". D. APPleton and Co. New York 1898, Vol.II Book II, secs 212-17, 270-71, PP. 447-453, 456, 593-597.

فى العالم المحيط بنا يوجد فئتان كبيرتان من التجمعات التى يمكن أن تقارن بينها وبين التجمع الاجتماعى، وهما اللاعضوى inorganic(*).

والعضوى organic. هل الصفات لمجتمع بأى أسلوب ما تشبه تلك الأجسام غير الحية؟ أو أن تلك الصفات تشبه بأسلوب ما تلك الأجسام الحية؟ أو أن تلك الصفات لا تشبه كليهما؟ السؤال الأول لا يحتاج إلا إلى إجابة سلبية.

ذلك أن المجتمع كل أجزائه حية ولهذا لا يمكن أن يشبه فى صفاته العامة تلك الكائنات غير الحية، السؤال الثانى لايمكن الإجابة عليه بنفس السرعة.

ذلك أن الإجابة عليه هى بالإيجاب. السبب فى أن العلاقات الدائمة بين أجزاء المجتمع تناظر وتتوازى مع العلاقات الدائمة بين أجزاء جسم حى، ومن ثَمَّ فعلينا الآن أن نعتبر أن المجتمع كائن عضوى organism.

«فصل ٢١٤» عندما نقول إن النمو شىء شائع عن التجمعات الاجتماعية والتجمعات العضوية، إننا ننفى التجمع عن التجمعات اللاعضوية، ذلك لأن بعضها مثل البللورات تنمو بشكل مرئى ولكنها تتوقف عند حد، ومع ذلك إذا قارنا بين الأشياء التى نسميها عديمة الحياة، و بين الأجسام الحية والمجتمعات تلك التى تعرض بوضح تكاثراً وتزايداً فى الحجم، حتى أننا نرى بحق أن ذلك أحد خصائص كل منهما، كثير من الكائنات الحية تنمو خلال حياتها، والباقى ينمو خلال فترات معينة من حياتها. ولكن المجتمعات تنمو عادة باستمرار سواء عبر الزمن، وعندما تنقسم المجتمعات أو حتى وقت تمزقها، هنا النمو إذن سمة تماثل بها المجتمعات نفسها مع العالم العضوى. وتمايز نفسها بقوة بعيداً عن العالم اللاعضوى.

«فصل ٢١٥» هناك أيضا صفة للأجسام الاجتماعية مثل الأجسام الحية، ذلك أنها عندما تتزايد فى الحجم فإنها تتزايد فى البناء Structure. مثل الحيوان المنخفض «الخلية» لها أجزاء قليلة متمايزة ولكن عندما تكتسب حجمًا أكبر تتعدد أجزائها وتتفرق، إنه كذلك مع المجتمع، إذ أولاً «المعشر» التباين بين جماعات وحداته يكون غير واضح فى العدد والدرجة. ولكن بتزايد السكان، التقسيم وتقسيمات فرعية يصبح أكثر تعدداً وأكثر تحدداً، وأبعد من ذلك، فى المجتمع

(*) اللاعضوى= الجمادات، العضوى= الإنسان والحيوان والنبات.

ككائن عضوى مثل ما فى الفرد العضوى يتوقف التفرق فقط عند اكتمال النمط والذى يبدو ناضجًا، ثم يتقدم نحو الفناء.

ولن أن فى المجتمعات اللاعضوية أيضا كما فى النسق الشمسى Solar System فى كل عضو من أعضائها هناك فروق بنائية تصاحب التكاملات، إلا أنها بطيئة وبسيطة جداً حتى أنه يمكن إهمالها. بينما تضاعف الأجزاء المتباينة فى الأجسام السياسية المجتمع والأجسام الحسية، عظيم جداً حتى أنه يشكل بوضوح صفة عامة التى تمايزهما من الأجسام اللاعضوية بشدة.

«فصل٢١٦» سوف يعرف هذا المجتمع أكثر عند ملاحظة أن تزايد التفرق فى البناء structure يصاحبه تزايد التفرق فى الوظائف Functions. التقسيمات الأولى والثانية والثالثة التى تنشأ فى حيوان نامى لا تتخذ لنفسها التباين سواء الصغير

أو الكبير بدون هدف، إذ أنه فى توازٍ مع الاختلاف والتنوع فى أشكالها وتراكيبها يسير التنوع فى الأفعال التى تنجزها، فهى تنمو فى أعضاء متباينة لها واجبات متباينة، وهكذا تحدد تدريجياً الجهاز الهضمى، ثم يليه تدريجياً الأجهزة الأخرى. أى أن النسق ينقسم إلى أجزاء لكل منها وظيفة خاصة تشكل جزءا من الوظيفة العامة وهى حياة العضو.

وهذا ما حدث بالنسبة للمجتمع فالمجتمع مزود بجهاز للتغذية يتمثل فى هيئاته وطبقاته المنتجة، ومزود بدورة دموية تتمثل فى نظم التوزيع وطرق المواصلات ومزود بجهاز هضمى وإخراجى يتمثل فى نظم الاستهلاك، ومزود بجهاز عصبى يتمثل فى الجهار التنظيمى والأداة الحكومية التى تتولى قيادة المجتمع، وكل هذه الأجهزة نمت تدريجياً بنمو المجتمعات بمعنى أن هذا التباين فى البناء كان يتضاعف فى استجابة لتطور حاجات المجتمع أى ليستطيع القيام بالوظائف الجديدة التى أصبح المجتمع فى حاجة إليها ليستمر فى الوجود والنمو.

«فصل ٢١٧» لماذا فى الجسم السياسى «المجتمع» وفى الجسم الحى تلك الأفعال المتباينة للأجزاء المتباينة ننظر إليها على أنها وظائف! بينما لايمكننا النظر إلى الأفعال المتباينة للأجزاء المتباينة فى الجسم اللاعضوى على أنها وظائف. سوف ندرك الآن أهم صفة عامة فارقة.

التطور يحدث فى كل منهما «العضوى واللاعضوى»، ولا يختلفا ببساطة ولكن الاختلافات حاسمة، اختلافات حتى أن كل يجعل الآخر مستحيل التشابه معه. فأجزاء تجمع لاعضوى متعلقة ببعضها بدرجة أن أحدهما يمكن أن يتغير جداً بدون أن يؤثر فى الباقي. إنه خلافًا لذلك مع أجزاء تجمع عضوى أو تجمع اجتماعى، ففى كل منهما التغيرات فى الأجزاء متبادلة التأثير، والأفعال المتغيرة للأجزاء متبادلة الاعتماد mutually dependent أى متساندة. وأيضا فى كل منهما «العضوى والاجتماعى» هذه التبادلية تتزايد بتقدم التطور.

«فصل ٢٢٣» دعنا الآن نتجه إلى استخلاص الأسباب التى دعتنا للنظر إلى المجتمع على أنه عضوى.

إن المجتمع يباشر نمواً مستمراً، وأثناء نموه تصبح أعضاؤه متباينة، وأنه يعرض تزايداً فى البناء، وتأخذ الأجزاء المتباينة تلقائيّاً على عاتقها مناشط من أنواع متباينة. هذه المناشط ليست بسيطة الاختلاف، ولكن اختلافها ذات تخصص حتى أنه يستحيل أن يعمل أحدهما عمل الآخر.

المساعدات المتبادلة والمتشاركة التى يعطيها كل جزء للآخر تعمل على التساند بين الأجزاء، وتجعل من الأجزاء المتبادلة الاعتماد تعيش كل منها بواسطة الآخر ومن أجله، وهكذا تشكل تجمعًا يتركب من نفس المبدأ كما فى الفرد العضوى individual organism.

«فصل ٢٧٠» لندع الآن المناظرة بين المنظمات الفردية «أى الفرد ككائن عضوى» وبين المنظمات الاجتماعية «المجتمع». لقد استخدمت المناظرة بدقة، ولكن كمعبر «سقالة» لتساعدنى على بناء جسم متماسك من علم اجتماع استقرائى. لنرفع الآن المعابر «السقالات»، فإن الاستقراءات سوف تقف بذاتها.

لقد رأينا أن المجتمعات هى التجمعات التى تنمو: فى مختلف أنماط المجتمعات هناك تباينات كثيرة فى أسلوب الوصول إلى النمو؛ تلك الأنماط ذات الحجم الأكبر نتجت من التجمع ثم إعادة التجمع لتلك الأنواع ذات الحجم الأصغر، وتحدث هذه الزيادة بالالتئام المؤيد بتزايد الترابطات، تلك هى العملية التى من خلالها تشكلت أوسع الأمم مدنية.

مع الزيادة فى حجم المجتمعات تسير الزيادة فى بناء المجتمع. المعاشر البدائية Primitive hords كان لايوجد فيها تأسيسًا لتمايز بين الأجزاء «أى أن المعشر كان غير مقسم إلى أجزاء لكل جزء وظيفة». وينمو المعشر إلى قبائل أتت بعض التباينات فى كل من القوى أو الأعمال لأعضائها. وباتحاد القبائل تتابعت التباينات، الحكومية والصناعية، وجدت المراتب الاجتماعية خلال كل المجتمع، وجرت أيضا التناقضات بين الأجزاء المختلفة المهن فى مختلف المواقع. وتتضاعف مثل هذه الفروق والتناقضات كلما يتقدم التركيب ويتزايد. فهذه الفروق تتقدم من العام إلى الخاص. أولاً التقسيم الواسع بين الحاكمين والمحكومين، ثم فى داخل الجزء الحاكم تقسيم إلى سياسى ودينى وحربى، وفى داخل المحكومين تقسيم إلى فئات إنتاج الغذاء، والحرفيين اليدويين.

وعندما نعبر من الناحية البنائية إلى الناحية الوظيفية، نلاحظ أنه طالما أن كل أجزاء المجتمع لها طبائع ومناشط متشابهة، فإنه بصعوبة يكون هناك اعتماد متبادل، فإذا ماأخذت الأجزاء على عاتقها وظائف مختلفة فإنها تصبح متساندة «أى يعتمد كل جزء على الآخر» حتى أن الضرر لإحداهما يؤذى الآخرين، حتى نصل إلى المجتمعات الراقية، نرى أن ارتباك فى أى جزء يسبب قلق عام «لكل الأجزاء». هذا التناقض بين المجتمعات النامية والمجتمعات غير النامية، ينشأ من حقيقة أنه مع تزايد التخصص فى الوظائف يأتى تزايد فى عدم القدرة عند كل جزء لإنجاز الوظائف التى للأجزاء الأخرى.

«فصل ٢٧١» وهكذا التغير من التجانس homogenity إلى اللاتجانس heterogenity يمكن تمثيله كالآتى: من القبيلة البسيطة المتماثلة فى كل أجزائها إلى الأمة المتمدينة المملوءة بالبناءات والوظائف غير المتشابهة. ومع تقدم التكامل واللاتجانس يسير تزايد التماسك.

ذلك يعنى أن سبنسر فيما يختص بالديناميك سوسيال أبرز عددًا من العمليات المتمايزة وهى: ١- استمرارالحركة، ٢- التحرك من التجانس إلى اللاتجانس، ٣- تحرك المجتمع الدائم نحو التوازن.

ويذهب سبنسر إلى أن المجتمعات تتقدم بالضرورة من الحالة الحربية إلى الحالة الصناعية، وبذلك فهو يقدم نمطين من المجتمعات الحربى والصناعى، يقوم المجتمع الحربى على أساس إخضاع الفرد، فالتماسك فى مثل هذا المجتمع يقوم على إخضاع أعضاء المجتمع لرئيس ونواب رئيس ويكون أيضا التصلب بدرجة عالية، وكذلك يكون التنظيم والترتيب وتوزيع المكافأة بأسلوب إزعانى وينبع كل ذلك من التركيز الشديد للحكومة، أما المجتمع الصناعى فهو يمنح الأفراد مكانات اجتماعية عالية، ويتميز بدرجة أعلى من التنظيم والترتيب واللاتركيز، وتوزيع المكافأة عن طريق العقود، هذه الأنماط الاجتماعية جوهريا تمثل مراحل التطور من البدائى إلى الحديث.

وإن كان سبنسر يذهب إلى أن المجتمعات تتقدم بالضرورة من الحالة الحربية إلى الحالة الصناعية، إلا أن هناك حدوداً يقف عندها هذا التقدم والتطور حيث يحل التفكك والانحلال والموت بعد ذلك وهذا الانحلال يحدث تدريجياً أيضا. فهو بمثابة تطور معكوس أى تطور إلى الوراء[1]، وذلك لتتمشى هذه الفكرة مع نظرية التطور العضوى التى تنتهى بفناء العضو. ويحدث هذا بمجرد أن يصبح التوازن متصلب جداً حتى أنه يتحول إلى معوق للتقدم، ومن ثَمَّ يتحطم النسق وتفنى النظم القديمة المتصلبة، وتنبعث نظم جديدة، وهكذا يحدث التغير عنده.

وهكذا يمكن القول أن سبنسر كان يرى العالم فى حالة دائمة من التطور والتفكك والانحلال، واعتقد أن عمل علم الاجتماع هو تتبع هذه العمليات كما تحدث فى المجتمع. فقد اعتبر أن التطور عملية عالمية، وأن هذا قانون طبيعى عالمى. وكما فعل كونت قسم سبنسر المجتمع إلى ناحيتين استاتيك، وديناميك، ويوضح الجانب الاستاتيكى بناء النظم والأنساق الاجتماعية، بينما الديناميكى يتضمن عملية تطور البناء الدائمة، وأيضا قسم سبنسر المجتمع إلى نسقين رئيسيين، نسق داخلى وهو المتعلق بمساندة وتأييد وتوزيع الوظائف، والخارجى ويركز على الضبط الاجتماعى والترتيب الاجتماعى. هذه الأنساق الفرعية تعمل على المحافظة على بقاء المجتمع ككل عضوى أثناء عملية تطوره الدائمة.

(1) Koeing, S. : "Sociology, An Introduction to the Sceince of Society" Barnes and Nobele, New york, 1960,P.25.

اميل دوركيم EMILE DURKHEIM

(١٨٥٨ - ١٩١٧)

ولد دوركيم فى فرنسا من أسرة يهودية، ودرس فى مدرسة المعلمين العليا فى باريس، واهتم بالقانون والفلسفة الوضعية لأوجست كونت، وترعرع وتربى دوركيم فى ظل تقاليد عصر التنوير، وتأثر بالاضطرابات السياسية والاجتماعية التى عاصرها فى شبابه.

وفى عام ١٨٨٧ عين أستاذًا بجامعة بوردو حيث ألقى محاضرات قيمة فى التربية الأخلاقية، وظهر فى ذلك الوقت اهتمامه بدراسة المجتمع، حيث قدم فصلاً دراسيًا فى علم الاجتماع يعتبر الأول من نوعه فى فرنسا، فأثار جدلاً كبيرًا بين العلماء المهتمين بدراسة المجتمع. ووضح فى دراسته تأثره بآراء أوجست كونت، وتطويره للمذهب الوضعى والنظرة العضوية إلى المجتمع التى ابتدأها أوجست كونت.

أهدافه:

كان عصر دوركيم يموج بتفسيرات متباينة للحياة الاجتماعية والمجتمع، منها التفسير النفسى والحيوى والفلسفى. ومن ثَمَّ كان هدف دوركيم الأول هو إثبات أنه إذا كانت هناك ظواهر طبيعية خاصة بالعالم الطبيعى، ظواهر حيوية خاصة بالكائنات الحية، فأيضا هناك نوع من الظواهرخاصة بالحياة الاجتماعية ألا وهى الظواهر الاجتماعية Social phenomena وركز على المعايير الاجتماعية Social norms كمثل واضح لتلك الظواهر الاجتماعية من خلال إبراز تأثيراتها على المشاكل الاجتماعية فى معارضة صريحة لتلك التفسيرات السيكولوجية. بل قدم هذا الموضوع كتابًا كاملاً يعتبر حتى اليوم .من عيون كتب علم الاجتماع وهو كتاب قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ويدور هذا الكتاب حول إثبات أن الظواهر الاجتماعية هى خارج الإنسان وليست بداخله فمن ثَمَّ لا يمكن تفسيرها سيكولوجيا. وانطلق دوركيم من هذه إلى إثبات أن المجتمع نفسه له

وجود مستقل عن أفراده المكونين لـه، وأنه أكبر وأعلى من رغبات أفراده، ومن ثَمَّ اهتم بما يسمى بالرغبة العامة ووضع مفـاهيم جديدة لظواهر اجتماعية كشف عنها مـثل العقل الجمـعى والإلزام الأخلاقى moral obligations، وخاصة فى حالة توجيه هذه الظواهر وضبطها لسـلوك الأفراد أثناء تفاعلهم داخل الجماعة، وذلك على خلاف مـا ذهبت إليه التفسـيرات السيكولوجيـة لسلوك الأفراد التى كانت سائدة فى أيام دوركيم.

ومن أجل هذا وضع دوركيم إطاراً اجـتماعياً خـارجياً كمنهج لدراسـة الوقائع الاجتمـاعية، وبهـذا استطاع دوركيم أن يساهم فى وجـود وتنمية علم الاجـتماع كعلم جديد له وحدته وموضوعه ومنهجـه ويتركز حول دراسة المجتمع كظاهرة لها وجودها الواقعى الخارجى المستقل.

نظرية التضامن الاجتماعى:

من أجل الهدف السابق ذكـره صاغ دوركيم مفـهومًا جديدًا وهو مفـهوم العقل الجمعى وهو بالفـرنسية La concience collective، وبالإنجليزية the goup mind واعتبـر دوركيم أن العقل الجمعى ظاهرة اجـتماعية واقعـية محسوسـة وملموسة. ويقصـد بهذا القول أن العـقل الجمعى شـأنه شأن الظواهر الاجـتماعيـة يقوم فى المجتمع من فطـرة المجتمع تلقائياً نتـيجة التفـاعل بين أفراد المجتمع، ويسـتمر فى البقاء بشكل معين وتتشربه الأجيال خلال التنشـئة الاجتماعية أو أثناء التربية سواء فى المدرسة أو المجتمع.

ويعتبر دوركـيم أن العقل الجمعى يتمثل فى العادات والعـرف والتقاليد والذوق العام والرأى العام وما اصطلح عليه أعـضاء المجتمع من نظم، أى أنه يمكن القول أنه يتركب فى مجمله من المعايير التى تحدد وتوجه سلوك أعضاء المجتمع، ومن ثَمَّ فهو ملزمًا لهم، بمعنى أنه أمر وله هيبتـه وجزاءاته إذا فكر أحد من أعضاء المجتمع فى الخروج على سنه، فهو يمثل قوة ضـاغطة موجهة، ويقاوم من يحاول الخروج عمـا رسمه من حدود للسلوك الإنسـانى فى مختلف المواقف الاجـتماعيـة. وقد أثارت هذه النقطة جـدلاً حول حرية الفـرد فى المجتمع وهذا الـقهر الذى يبـاشره

العقل الجمعى. ولكنه استطاع دوركيم أن يعالج هذه النقطة فبين أنه إلزام مفيد. إذ يقدم العقل الجمعى صيغًا ثقافية كأجوبه على أسئلة تثيرها مواقف اجتماعية، مثل ماذا أفعل فى هذا الموقف؟ فالعقل الجمعى يقدم هنا إجابات جاهزة قد تشربها وعرفها أعضاء المجتمع فهو إذن إلزام مفيد.

ليس هذا فقط بل إنه يعمل على إيجاد التناغم والانسجام بين أعضاء المجتمع، ذلك أن العقل الجمعى ينشأ أصلاً من التماثل بين أعضاء المجتمع

وما اتفقوا عليه من أساليب للسلوك فهى عاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم. فهو إلزام لا يقع على أفراد معينين دون غيرهم إذ له صفة العمومية فهو يشملهم جميعًا فهو عام بالنسبة لهم. ومن ثَمَّ يحدث التفاعل الاجتماعى وتقوم العلاقات الاجتماعية فى يسر وسهولة. ومن ناحية أخرى يكون الصراع عند حده الأدنى، ذلك أن التوقعات للفعل ورد الفعل معروفة مسبقًا لأعضاء المجتمع، إذ قد حددها العقل الجمعى لهم من قبل. فهناك تساند وتكامل بين عقل الفرد والعقل الجمعى لما يقدمه الأخير من مساعدات للأول.

ويلاحظ أن هذا لا يعنى إلغاء العقل الفردى بمعنى أنه ليس له أن يغير أو يبدل فى أحكام العقل الجمعى، ذلك أن العقل الجمعى نفسه ماهو إلا نتاج تفاعل أعضاء المجتمع، ومن ثَمَّ فكل فرد من أفراد المجتمع قد شارك فى صنعه، وبالتالى لديه القدرة فى المشاركة فى تغير ما يحتويه العقل الجمعى من معايير. ولهذا يمكن القول أن العقل الجمعى يتغير فى استجابة للتغيرات الحادثة فى المجتمع.

ومن ناحية أخرى يعنى هذا تشابه العقل الجمعى فى المجتمعات المتشابهة فى أشكالها الاجتماعية مثل المجتمعات التوتمية، ففى مثل هذه المجتمعات يتشابه العقل الجمعى فى داخلية الأشكال، ذلك أن هذه المجتمعات تتشابه ظروفها الاجتماعية وخاصة فى مظاهر تركيبها العام، أى فى بنائها الاجتماعى. فهناك إذن ترابط وثيق بين هذا العقل والشكل الاجتماعى العام، أى بنية المجتمع. وتقودنا هذه الفكرة إلى فكرة أخرى وهى أن العقل الجمعى يتغير بتغير الأشكال الاجتماعية للمجتمعات، فهو إذن عقل متغير بتغير الزمان والمكان تبعًا لتغير بناء

المجتمع. ومن هنا أمكن لدوركيم أن يقول بتعدد العقول الجمعية بتعدد الأشكال الاجتماعية حتى فى داخل المجتمع الواحد.

ففى المجتمعات الكبيرة أى المركبة حيث يتركب المجتمع من أشكال اجتماعية متعددة أى من جماعات اجتماعية كثيرة. فيصبح لكل جماعة اجتماعية عقل جمعى، فمثلاً فى الولايات المتحدة يمكن القول أن هناك عقل جمعى للفلاحين وعقل جمعى للعمال وعقل جمعى للبيض، وعقل جمعى للسود.

وتقودنا هذه الفكرة إلى الفرق بين المجتمعات ذات العقل الجمعى الواحد حيث تكون المجتمعات بسيطة متجانسة التركيب، أى أن بنائها الاجتماعى يتكون من جماعة واحدة. وتلك المجتمعات المعقدة التركيب أى التى يتكون بنائها الاجتماعى من جماعات متعددة، أى عقول جمعية متعددة.

ويعتبر دوركيم أنه حيث يكون هناك عقلاً جمعياً واحداً يوجه سلوك الأفراد تشتد وطأته إذ ليس هناك منازع لسلطانه، فيسيطر هذا العقل الجمعى على عقول الأفراد وأخلاقياتهم وسلوكهم. ويبدو ذلك واضحًا فى المجتمعات البدائية، أو المجتمعات الصغيرة فى البادية مثل القبائل أو المجتمعات البسيطة فى الريف مثل الكفور والنجوع، حيث تكون عملية الضبط الاجتماعى قائمة على أساس ما يتضمنه العقل الجمعى من معايير توجه.

وكانت المجتمعات القديمة التى يقصدها دوركيم هى تلك المجتمعات البسيطة التركيب مثل المجتمعات التوتمية التى تتكون من جماعة اجتماعية واحدة، وحيث التماثل بين الأفراد يبلغ أقصاه، وبالتالى تبلغ أيضا قوة العقل الجمعى أقصاها، ومن ثَمَّ يصبح التضامن والتماسك والتكامل الاجتماعى أقصاه أيضًا. وهو ما أطلق عليه مفهوم التضامن الآلى فهم يتحركون وكأنهم كائن واحد له كيانه الذاتى، والفرد منصهر فى المجتمع، ويخضع العقل الفردى خضوعًا تامًا للعقل الجمعى، وتتخذ أوجه النشاط الاجتماعى الصفة الكلية الجمعية، فالملكية الجمعية، والمسئولية جمعية، والإنتاج جمعى. والحرب جمعية، والعبادة جمعية، فهى مجتمعات صغيرة تتعدد وظائفها ولا تتجزأ فى هيئات أو منظمات لأن صغر حجم

المجتمع لا يسمح بذلك. فالحياة الاجتماعية مقسمة ومجزأة فى مجتمعات صغيرة ومتعددة ومتشابهة فى شكلها الاجتماعى رغم أنها متمايزة، وهذا ما سماه دوركيم بالبناء الانقسامى Segmenjtal Structure، واعتبره عقبة كؤود فى وجه تقسيم العمل، وأنه لا بد من اختفاء هذا البناء الانقسامى ليظهر تقسيم العمل.

فتقسيم العمل يتغير فى معدل مباشر مع الحجم والكثافة للمجتمعات وإذا تقدم تقسيم العمل بصفة مستمرة فى مجرى النمو الاجتماعى، فذلك يرجع إلى أن المجتمعات أصبحت أكثر كثافة وحجمًا، ولا يعنى القانون السابق أن النمو والكثافة للمجتمعات يستلزمان بالضرورة تقسيمًا أكثر للعمل، كما أنهما ليس الأداة التى يتحقق بها تقدم تقسيم العمل، بل أنهما علته الحتمية...

وطبقًا لأكثر النظريات شيوعًا وانتشارًا أن أصل تقسيم العمل فى عدم توقف رغبة الإنسان فى زيادة سعادته، فمن المعروف، أنه كلما زاد تخصص العمل يكون الناتج أعلى... والإنسان محتاج لكل هذه الأشياء، ومن ثَمَّ سوف يبدوأنه أكثر سعادة كلما امتلك أكثر، ونتيجة لهذا، قد يكون مدفوعًا طبيعياً للبحث عن تلك الأشياء، ذلك مسلم به... لقد قيل إن هناك نسيج من الظروف من السهل تصوره نبه الإنسان عن بعض المميزات، فجعلته يبحث عن امتدادها الأبعد وأعظم منفعة ممكنة، وإذن سيكون تقدم تقسيم العمل تحت تأثير أسباب فردية وسيكولوجية..

إذا كان تقسيم العمل تقدم لزيادة سعادتنا لكان وصل إلى حدوده النهائية منذ زمن طويل، تمامًا مثل المدينة الناتجة عنه، ولكان كلاهما توقف، إذ لكى يوجه الإنسان هذا الوجود ليكون أكثر ملاءمة للسعادة، ليس من الضرورى جمع المنبهات من كل الأنواع. ولكان يكفى نمو متوسط لإعطاء الأفراد الكمية الكلية من السعادة التى كانت فى قدرتهم، ولكانت الإنسانية وصلت سريعًا إلى الحالة التى سوف لا تتقدم عنها أو تنبعث منها. ذلك ما حدث للحيوانات فمعظمها لا يتغير منذ قرون لأنها وصلت إلى هذه الحالة من التوازن[1].

---

(1) Durkheim, Emile : "The Division of Labour in Society" Trans George Simpson. Glenoce Illnios: The Free press, 1949.p.204-237. مع التركيز.

ولكن ينمو تقسيم العمل باختفاء البناء الانقسامى ذلك لأن هذا الاختفاء هو السبب فى النمو، أو أن النمو هو سبب الاختفاء. الفرض الأخير غير مقبول. لأننا نعلم أن التنظيمات الانقسامية عقبة كؤود لتقسيم العمل ولا بد أن تختفى جزئياً على الأقل ليظهر تقسيم العمل. فتقسيم العمل يظهر فقط على قدر اختفاء البناء الانقسامى، للتأكد من ذلك، فإن مجرد ظهور تقسيم العمل يساهم فى الإسراع فى تناقصه الآخر، ولكنه يحدث ويقع فقط بعد ابتداء التقهقر، اختفاء هذا النمط «الانقسامى» يمكن أن يكون له هذه النتيجة لسبب واحد فقط. ذلك لأنه يعطى النشأة لعلاقات بين الأفراد الذين كانوا منفصلين، أو على الأقل علاقات أكثر قرباً عما كانت عليه.

هذه العلاقات وذلك النشاط المتشابك الناتج من كبر حجم المجتمع، إذا وافقنا على تسميته بالكثافة الديناميكية أو المعنوية، يمكننا القول أن تقدم تقسيم العمل هو فى معدل مباشر للكثافة الديناميكية أو المعنوية للمجتمع، ويلاحظ أن هذه الكثافة الديناميكية لا يمكن أن تحدث إلا إذا حدثت الكثافة المادية[1].

وهكذا يتقدم تقسيم العمل كتخصص كل جماعة فى عمل، ومن ثَمَّ تتكون فى داخل هذا المجتمع جماعات اجتماعية متعددة، وكلما كبر حجم المجتمع كلما تعددت الجماعات الاجتماعية، ومعنى ذلك أنه بدلا من عقل جمعى واحد، تصبح سمة المجتمعات الكبيرة عقول جمعية متعددة، أى أن التضامن الآلى الذى كان يصنعه العقل الجمعى الواحد فى المجتمع الصغير يختفى، ويظهر نوع آخر من التضامن بين هذه العقول الجمعية وسمى دوركيم هذا التضامن بالتضامن العضوى. وبينما يعتمد التضامن الآلى على التماثل والتشابه بين أعضاء المجتمع، فإن التضامن العضوى يستمد أسسه من التباين بين الجماعات الاجتماعية داخل المجتمع.

وهكذا سوف نتعرف على نوعين من التضامن الإيجابى الذى يمكن التمييز بينهما بالنوعيات الآتية:

(1) Ibid. p.p. 256- 257.

١- يربط الأول الأفراد مباشرة بالمجتمع بدون أى وسائط. فى الثانى يعتمد على المجتمع لأنه يعتمد على الأجزاء التى يتركب منها.

٢- لا يرى الإنسان المجتمع بنفس الشكل فى كل من الحالتين، فى الأول مانسميه مجتمعًا منظم كلية من معتقدات ومشاعر عامة عند كل أعضاء الجماعة، ذلك هو النمط الجمعى Collective type. ومن ناحية أخرى المجتمع الذى نتماسك فيه بالأسلوب الثانى هو نسق من وظائف متخصصة مختلفة التى تحدد وحدة العلاقات. يصنع كل من هذين المجتمعين حقيقة واحدة. فهما وجهان لشىء واحد ولنفس الحقيقة، ومع ذلك لا بد من التمييز بينهما.

٣- من الاختلاف السابق ينشأ اختلاف آخر يساعدنا فى وصف وتسمية النوعين من التضامن.

التضامن الأول يمكن أن يكون قويًا فقط إذا كانت الأفكار والميول العامة بالنسبة لكل أعضاء المجتمع كبيرة فى عددها وعظيمة فى كثافتها عن تلك الميول والأفكار التى تربط بين كل عضو والآخر بصفة شخصية، هذا النوع من التضامن يمكن أن ينمو فقط فى معدل مضاد للشخصية. هناك فى كل واحد منا عقلين اثنين، واحد وهو العام بالنسبة لجماعتنا «العقل الجمعى»، وجماعتنا ليست أنفسنا، ولكنها المجتمع يعيش ويعمل من خلالنا، العقل الآخر، بالعكس، يمثل ذلك الذى بداخلنا والذى هو شخصى وواضح ومتميز، والذى يجعل من كل منا فردًا. التضامن الذى يأتى من التماثل يكون عند نهايته العظمى عندما العقل الجمعى يغلق تمامًا كل عقلنا «الفردى» ويتحد ويتطابق فى كل النقاط معه، ولكن عند هذه النقطة تتلاشى فرديتنا.

هنا يوجد قوتان متعارضتان تعمل على الدفع نحو المركز «مجمعة centripeted». والأخرى تدفع بعيدًا عن المركز «مشتقة centrifugal» ولايمكن أن يزدهر كلاهما فى نفس الوقت. إننا لا يمكن أن ننمى أنفسنا فى اتجاهين متعارضين فى نفس الوقت، فإذا كانت لدينا رغبه عارمة لنفكر ونعمل من أجل أنفسنا، لا يمكن أن نتجه بقوة للتفكير والعمل كما يفعل الآخرون.

إذا كان مثالنا أن نقدم منظراً فريداً وشخصياً، فنحن لا نرغب فى التشبه بالآخرين. وأكثر من ذلك عند اللحظة التى يباشر فيها هذا التضامن قوته، فإن شخصيتنا تتلاشى، لأننا لم نعد أنفسنا بعد، ولكن الحياة الجمعية collective life.

الجزئيات الاجتماعية Social molecules التى يمكن أن تتماسك بهذا الأسلوب يمكن أن تعمل فقط بأسلوب يظهر أنه ليس لديها أفعال، أى أن ليس لدى أى جزء قدرة على الفعل وحده أو لديه فعل خاص به، تماماً مثل جزئيات الأجسام غير العضوية، ذلك يوضح لماذا نقترح تسمية هذا النمط من التضامن بالآلى mechanical، هذا المصطلح لايشير إلى أن هذا التضامن ينتج بوسائل آلية وصناعية. نحن سميناه كذلك فقط بالمناظرة مع التضامن الذى يربط عناصر الأجسام عديمة الحياة. مايبرر هذا المصطلح هو أن الرابطة التى توحد الفرد بالمجتمع تناظر تماماً تلك التى تربط شيئاً بشخص. يعتمد العقل الفردى على النمط الجمعى ويتبع كل حركاته كما يتبع الشىء المملوك مالكه. فى المجتمعات التى ينمو فيها هذا النمط من التماسك بدرجة عالية، لا يظهر الفرد. التفرد شىء يملكه المجتمع.

أما التضامن الناجم عن تقسيم العمل فهو يختلف تماماً عن ذلك التضامن السابق. إذ بينما يتضمن النمط السابق أن الأفراد يتماثل كل منهم مع الآخر، فإن هذا النمط يفترض اختلافهم. الأول «التضامن الآلى» ممكن فقط طالما أن شخصية الفرد امتصت فى الشخصية الجمعية، النمط الثانى ممكن فقط إذا كان كل واحد له مجال للفعل خاص به، بمعنى شخصيته. ومن ثَمَّ يصبح من الضرورى أن يسمح العقل الجمعى بترك جزء من العقل الفردى مفتوحاً من أجل أن تؤسس الوظائف المتخصصة فى هذا الجزء. وكلما امتد ذلك المجال «مجال الفعل الخاص»، كلما زادت قوة التماسك الناجم من التضامن. وفى الحقيقة يعتمد كل واحد على المجتمع بشكل أكثر شدة كلما زاد تقسيم العمل، ومن ناحية أخرى تصبح المناشط أكثر شخصية كلما زادت تخصصاً.

وفى خبراتنا المهنية نحن نتطابق مع العادات والخبرات التى هى عامة لكل إخواننا فى المهنة. ولكن حتى فى هذه الرابطة التى نخضع لها نجد أنها أقل كثيراً

فى ثقلها عن الضبط الكامل للمجتمع، كما أنها تترك لإمكانياتنا مكانًا أوسع مفتوحًا للأداء الحر. وهنا تنمو فردية الكل فى نفس الوقت الذى ينمو فيه كل جزء من أجزائه. وهكذا يصبح المجتمع أكثر قدرة على الحركة الجمعية. وفى نفس الوقت يكون لدى كل عنصر من عناصره حرية أكثر للحركة. هذا التضامن يماثل ذلك الذى نلاحظه بين الحيوانات العليا. فى الحقيقة كل عضو له وظيفته العضوية الخاصة وما هو أكثر من ذلك فإن وحدة الكائن العضوى عظيمة جداً عظم الفردية الملحوظة لكل جزء منه، ومن أجل هذا التناظر نحن نقترح أن نسمى ذلك التماسك الذى يرجع إلى تقسيم العمل، تماسكًا عضوياً [1].

وهكذا يعنى دوركيم بمفهوم التضامن العضوى، أن كل جماعة من الجماعات لها وظيفتها فى المجتمع، كجماعة المدرسين وجماعة الأطباء وجماعة الفلاحين، هذه الوظائف تتكامل لتوفر الحياة للمجتمع ككل، تمامًا مثل الكائن البشرى الذى يتكون من أعضاء وكل عضو له وظيفته المستقلة، ولكن كل هذه الوظائف العضوية تتكامل فى أداء الوظيفة الكبرى وهى حياة الكائن البشرى، ومن هنال سمى دوركيم هذا التضامن بالتضامن العضوى.

وهكذا خلص دوركيم إلى أن التضامن الاجتماعى هو مؤسس على تقسيم العمل فى المجتمع، بمعنى أنه كلما كان تقسيم العمل بسيطًا كلما كان التماسك أقوى وحيث تكون المعايير لها السيادة ومن ثَمَّ يكون الضبط الاجتماعى فى أعلى حالاته وبالتالى مستوى عال من التكامل. وأيضا ربط بين حجم السكان وكثافتهم المعنوية ومستوى تقسيم العمل والتضامن الاجتماعى، بمعنى أنه كلما كبر حجم المجتمع وزادت كثافته الديناميكية، ينتج عن ذلك زيادة فى تقسيم العمل، وزيادة العلاقات التعاقدية، ومستوى منخفض من التضامن والتكامل، وفى مثل هذه الوضعية الاجتماعية يكون عامل الضبط هو القانون، ويؤدى مثل هذا المجتمع إلى مستوى عال من الاغتراب وفقدان المعايير، وعند هذا المستوى يرتفع معدل الانحراف مثل الانتحار، طالما الرابطة بين الفرد والبناء الاجتماعى أصبحت ضعيفة.

***

(1) Ibid: p.p.127-131.

فرديناند تونيز FERDINAND TONNiES

(١٨٥٦-١٩٣٦)

ولد فرديناند تونيز فى بلدة ازنيشتات Eisenstadt وهى مجتمع قروى وقد تتلمذ على تراث هوبز Hobbes، وهيجل Hegel، وأوجست كونت Comte وسبنسر Spencer، وعين فى جماعة كيل بألمانيا، وصار فيها أستاذًا حتى فصله النازيون بالرغم من أنه كان من المتشيعين للاشتراكية الدولية فى بدء ظهورها.

ويعتبر تونيز المؤسس الحقيقى لعلم الاجتماع فى ألمانيا المعاصرة فقد ألف كتبًا فى علم الاجتماع أحدثت دويّاً فى ألمانيا وخارجها، منها كتاب الجماعة المحلية والمجتمع العام، وكذلك كتابه مدخل إلى علم الاجتماع وكتاب روح العصر، بل أيضا أجرى بحوثًا تطبيقية، ذلك أنه عندما ألف فى النظرية الاجتماعية لم يعتبرها جزءا منفصلاً عن البحث الاجتماعى، بل اعتبر أن كل منهما مكمل وضرورى للآخر. ذلك دعاه إلى تقسيم علم الاجتماع إلى ثلاث فروع، الأول علم الاجتماع النظرى، والثانى علم الاجتماع التطبيقى والثالث علم الاجتماع التجريبى. وهذه الفروع الثلاثة تمثل وحدة العلم التى اصطلحت عليها كافة الاتجاهات الاجتماعية كموضوع للدراسة والبحث سواء فى ألمانيا أو خارجها[١].

ويقصد تونيز بعلم الاجتماع النظرى دراسة الحقائق الاجتماعية المجردة، ويعنى بذلك العلاقات الاجتماعية Social Relations، والتجمعات الاجتماعية Social Collectives والأجسام الاجتماعية Social Bodies أى المؤسسات والهيئات الاجتماعية. أما علم الاجتماع التطبيقى فهو عنده دراسة العمليات والأحداث التاريخية المؤدية إلى التطور الاجتماعى، وقد كتب بحوثًا فى هذا الموضوع وخاصة عن تطور المجتمع الحديث كما نشر عدة مقالات عن التقدم والتطور. ويعنى علم الاجتماع التجريبى استخدام حقائق ونظريات الاجتماع النظرى فى الدراسات البيئية والمحلية عن القيام بالمسوح والتحقيقات الاجتماعية، فهو علم يهدف إلى الانتفاع

(1) Barnes: Op. Cit., P. 231.

بالنظريات الاجتماعية فى الإصلاح الاجتماعى، ومن أهم بحوثه فى هذا الشأن ذلك المسح الذى قام به على أثر إضراب الملاحين فى ميناء هامبورج وعدة موانى أخرى لدراسة الموقف الاقتصادى والاجتماعى للملاحين.

نظرية الإرادة الإنسانية

أهدافه:

كان هدف تونيز من دراسته المستفيضة فى الفلسفة والقانون الطبيعى والعلوم الاجتماعية سواء عند الألمان أو الإنجليز أو الفرنسيين، هو محاولة فهم المعنى الحقيقى لكل من المدرسة العقلية فى القانون الطبيعى من ناحية، والنظريات التاريخية والرومانتيكية «العاطفية» المعارضة من ناحية أخرى. أدت به هذه الدراسة العميقة إلى الانتهاء إلى أن كل صور التفكير التى يظن أنها غير العقيلة أو الأقل تعقلاً ليست رشيدة، ولكن كل منها لها معناها الخاص، وهى فى النهاية مشتقة من الإرادة الإنسانية Human Will. فمن ثَمَّ أصبحت النظريات الاجتماعية عند تونيز معلومات اجتماعية وانعكاسات للظروف الاجتماعية وهى فى النهاية تعبيرات عن الإرادة الإنسانية.

وهكذا اتجه تونيز إلى دراسة المجتمع على أنه نتاج الإرادة الإنسانية، وأن هذه الإرادة هى أساس الوجود الاجتماعى. ويعتبر كتابه الجماعة المحلية Gemeinschaft والمجتمع العام Gesellschaft نظرية فى الإرادة الإنسانية قائمة على أساس محاولة فهم الطبيعة الإنسانية Human Nature ومن ثَمَّ فهى محاولة المجتمع كوظيفة Function للإرادة الإنسانية.

نظرية الإرادة الإنسانية

كانت الثنائية أى تصنيف المواضيع إلى نوعين متقابلين هى الفكرة السائدة فى الدراسات سواء القانونية أو السياسية أو الاجتماعية فى القرن التاسع عشر وحتى مطلع القرن العشرين.

وكان تونيز مهتما بالنظريات العقلية وما يقابلها من النظريات الرومانتيكية «العاطفية» فى القانون والسياسة، ومن ثَمَّ اتجه تونيز إلى صياغة مفهومين تحليليين

متقابلين هما الجـماعة المحلية والمجتمع العام وذلك على أساس مفهـومين متقابلين عن الإرادة الإنسانية فهى إما أن تكون عاطفية وهى صفة الجماعة المحلية، أوتكون عقلية وهى صفة المجتمع العام.

ويعنى تونيز بالإرادة العـاطفية أنها الإرادة الإنسانيـة النابعة تلقائياً من الطبـيعة البشرية، من عواطف المشـاركة الوجدانية ووحدة المشاعـر الإنسانية، ومن ثَمَّ فهى صفة الجماعة المحلية.

أما الإرادة العـقلية، فـهى الإرادة الإنسانية الـتى تظهر فى استـجابة لحـاجات المجتمع، إذ عندما يكبر حجم الجماعة المحلية ويتسع نطاقها إلى مجتمع كبير يضم عدة جـماعات، ومن ثَمَّ تنشأ حـاجات اجتـماعية جـديدة، ووظائف اجتماعـية جديدة، ومن ثَمَّ تطور الإرادة العاطفـية إلى إرادة عقلية تحكميـة تعمل على إنشاء الوحدات الاجتمـاعية من مؤسسات ومنظمـات لتشبع تلك الحاجات الاجتـماعية الجديدة، وهكذا تتحول الجماعة المحلية إلى مجتمع عام على أساس تنظيم إرادى.

اتجه تونيز بـهذين المفهومين «الجـماعة المحلية والمجـتمع العام» ليشـرح ويفسر العلاقـات الاجتماعيـة، وبالتالى تفسـير وشرح البناء الاجتـماعى لكل من هذين النمطين من التجمعات البشرية.

وقسم تونيز العلاقـات الاجتماعية إلى علاقـات إيجابية وهى تؤدى إلى تكامل المجتمع واستـقراره ووحدة أهدافه، أما العلاقات السلبـية. فهى تؤدى إلى الصراع والاختلاف وتفكك المجتمع وانهياره.

إذ يعتبر تونيز «أن الإرادات الإنسانية توجد فى شكل علاقات متنوعة ومتقابلة، وكل من هذه العلاقـات هى فعل مـتبادل، كـما لو أن جزءا نشط أو يعـطى بينما الجزء الآخر سلبى أو يستقبل. هذه الأفعـال من طبيعة تميل إما إلى الإبقاء والحفظ preservation أوتميل إلـى الإفناء destruction بمعنـى أنهـا إمـا إيجـابيـة أوسلبـية. . . كل علاقـة من هذا النوع تعتـبر كـتعـبيرات عـن الإرادات وقواها. والجـماعـة التى تتـشكل خلال هذا النـمط الإيجابى من العـلاقـات تسمى اتحـاد association "verbindung"، وينظر إلى هذه الجماعة كـشىء كائن يعمل كوحدة سواء فى داخله أو فى اتجاه خارجه.

وأيضا العلاقة نفسها والاتحاد الناجم عنها يعتبـر إما حياة حقيقية وعضوية وهذه هى الخاصيــة الأساسية للمــجتمع المحلى "Gemeinschaft" communinty ، وإما يعتبر بناء آلى وخيالى وهذا هو مفهوم المجتمع العام "Gesellchaft" Society .

من خلال اسـتخدام هذين المصطلحـين سوف نرى أن التعـبيرات منغـرسة فى مترادفاتها فى اللغة الألمانية ولكن قد اعتاد الناس استعمالها بأسلوب عشوائى بدون تمييز. لهـذا السبب سـأقدم بعض الملاحظات لشـرح التضـاد العمـيق بين هذين المفهـومين. كل أنماط الحيـاة الحميـمة والخاصـة المقتصـرة على أصحابهـا. أينما اكتشفناها تفهم على أنهـا حياة فى مجتمع محلى. أما المجتمع فـهو الحياة العامة، إنه العالم نفسه.

فى المجتمع المحلى مثلاً مع الأسرة، يعيش الإنسان فيها فى ارتباط دائم بها منذ الولادة فى السراء والضراء عـلى السواء. بينما عندما يذهب الإنســان فى المجتمع يذهب كما لو أنه فى مجتمع غريب. وعادة نحذر الشباب من سوء المجتمع، بينما تعبـير «سوء» المجتــمع المحلى- إضافة كلمـة سوء إلى مصطلح المجـتمع المحلى- ينقص معنى المصطلح وينفيه.

المجتــمع المحلى قديم، بـينما المجـتمع Society جديد كـاسم وأيضا كظاهرة اجتماعية، أينما تزدهر ثقافة حضرية urban culture وتحمل ثمارها يظهر المجتمع كالعضو الملازم لها. والذى يعرف الناس القرويون القليل عنه، ومن ناحية أخرى، كل فضائل الحـياة القروية تشير إلى أن المجتــمع المحلى يوحد بين الناس بقوة وأنه أكثر حـيوية، إنه الشكل الحقيـقى والأبقى للحياة معًا، وبعـكس المجتمع المحلى، يكون المجتمع العـام وقتى وسطحى. وتبعًا لذلك يجب أن نفـهم المجتمع المحلى ككائن عضوى حى، بينما المجتمع العام تجمع ميكانيكى صناعى»[(1)].

وهكذا اعتـبر تونيـز أن الجماعـة المحلية القائمـة على الإرادة العاطفـية تتمـيز بالعلاقات الاجتماعية الإيجابية. ومن ثَمَّ فنوع التـضامن الاجتماعى فيها طبيعى، حيث يرتبط الفرد بالروابط الاجتماعـية المستقرة، مثل روابط الدم، وهى فى نظره

(1) Toennies, F. : "Community and Society "Gemeinschaft und Gesellschaft" trans by Charles. p. Looms. Michigan state university press, 1957 Book I. p. 33-44.

أساس كل جماعة لأن الأسرة هى نواة الجماعة المحلية. وفى الأسرة حيث تبتدئ العلاقات فيها باتحاد بين عضوين «زوج وزوجة» ثم ينتجان أعضاء جدد «الأبناء». وهكذا سرعان ما تتحول هذه العلاقات العضوية إلى علاقات عاطفية وروحية تتزايد حدتها نتيجة المشاركات الوجدانية.

ولكن الوحدات الأسرية لا تستطيع أن تعيش كل بمعزل عن الأخرى ومن ثَمَّ تتصل بأسر أخرى يجمعهم رباط جديد هو رباط الجوار، وفى كثير من الجماعات المحلية تبتدئ رابطة الجوار بين مجموعات من الأسر ذات الصلات القرابية سواء كانت قرابة دموية أو قرابة اجتماعية. ومن ثَمَّ نتيجة لهذا التجاور والتعاون المشترك والمشاركات الوجدانية تنشأ عادات وأعراف وتقاليد وقيم التى تصبح هى أداة الضبط الاجتماعى حيث يخضع لها أعضاء المجتمع خضوعًا تامًا فهى معايير الجماعة المحلية، ذلك نتيجة لانصهار أعضاء الجماعة فى بوتقة الحياة الاجتماعية المشتركة.

وهكذا تكون الإرادة العاطفية صفة الجماعة المحلية التى يسود أعضائها التضامن الطبيعى، وتتميز بحدة التفاعلات والمشاركات الوجدانية والاتصالات المباشرة، فينشأ عن كل ذلك رابطة التجاذب العاطفى ووحدة المشاعر ووحدة المعايير القائمة على الدين والعرف والعادات، التى تؤدى بدورها إلى قوة الوحدة الجمعية، فتصبح الالتزامات جمعية والمسئولية جمعية، بل والملكية الجمعية فى كثير من الجماعات المحلية.

أما المجتمع العام القائم على الإرادة العقلية التحكمية التى أنشأت جماعات اجتماعية أو أجسام اجتماعية «مؤسسات ومنظمات» لتحقيق أهداف معينة وهو يعنى بمثل هذه المجتمعات المدينة والدولة حيث توجد الهيئات السياسية والأحزاب والنقابات والجمعيات العلمية والشركات الصناعية والتجارية والمؤسسات المالية والهيئات الترفيهية، فشكل المجتمع العام عبارة عن تركيب صناعى من أجزاء كثيرة ووحدات متعددة كلها قائمة على أساس إرادى. ويعتبر تونيز أن هذا الشكل الاجتماعى ينشأ تلقائيًا وهو الذى يدفع البناء الاجتماعى إلى التغير من الجماعة المحلية إلى المجتمع العام.

ويرى تونيز أنه عند التحول من الجماعة المحلية إلى المجتمع العام يحدث تحول فى العلاقات الاجتماعية، من علاقات اجتماعية عاطفية روحية مفعمة بالمشاركة

الوجدانية، إلى علاقات اجتماعية تقوم على أساس من القانون- أى علاقات تعاقدية- لأن كل فرد لا يعرف الآخر، ومن ثَمَّ يسود العلاقات الاجتماعية الشك والحذر والمنفعة الخاصة. فالعلاقات الاجتماعية كلها تنبع من إرادة عقلية تحكمية ذات تفكير تقديرى، تقدر مدى ما تجلبه هذه العلاقة أو تلك من منفعة. وهكذا يسود هذا المجتمع التنافس والصراع وتنتشر النزعات الانتهازية، فهى إذن علاقات اجتماعية سلبية.

وفى مثل ذلك المناخ الاجتماعى الذى يسوده علاقات اجتماعية سلبية، يجد الفرد أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، فهو ينضم إلى جماعة أو طائفة أو طبقة يستمد منها وجوده الاجتماعى. يخضع لها ولمعاييرها، ودعمها بكل قوته فى كل مواقفها وفى كل منافساتها وكل صراعاتها مع الجماعات أو الطبقات الأخرى، وكلما كبر المجتمع وتعددت أنشطته، تزايدت هذه الجماعات وتمايزت كل عن الأخرى وتضاربت مصالحها واشتد الصراع بينها.

وقد أفصح تونيز فى كتابه «روح العصر الحاضر» عن استيائه من التطور الحديث الذى أدى إلى نشأة المجتمع العام حيث تسود العلاقات الاجتماعية التقديرية والمادية والانتهازية التى حلت محل العلاقات العاطفية والروحية والمشاركات الوجدانية.

وهكذا خلص تونيز إلى أنه بما أن المجتمع وظيفة Function للإرادة الإنسانية وبما أن الإرادة الإنسانية نوعان، الأولى إرادة عاطفية روحية، والثانية إرادة عقلية تحكمية فمن ثَمَّ ينقسم التجمع البشرى إلى نوعين:

١- الجماعة المحلية كوظيفة للإرادة العاطفية وتعبيراً عنها. ويمثل تلك الإرادة المجتمعات التقليدية والمحلية القائمة على أساس العلاقات الأسرية، ومعايير الحب والتفاهم واللغة المشتركة.

٢- المجتمع العام كوظيفة الإرادة العقلية التحكمية ويمثلها بصفة خاصة المجتمعات الصناعية القائمة على أساس علاقات لا شخصية ونفعية، ومعايير القيم الاقتصادية، والراوبط هى روابط الطبقات الاجتماعية والتعاقدات الاقتصادية.

مثل هذا التقسيم يشابه تقسيم دوركيم للمجتمعات على أساس نمطى التضامن الاجتماعى.

الوظيفية البنائية

STRUCTURE FUNCTIONALISM

الظروف الاجتماعية

تعتبر النظريات الوظيفية البنائية رد فعل المنظرين لحاجات السياسة والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع المعاصر، ولقد نشأت هذه الحاجات عن الحرب العالمية الأولى والثانية، وكذلك الأزمة العالمية التى وقعت سنة ١٩٣٠، وكان لها آثار اجتماعية واقتصادية واضحة على الحياة الاجتماعية، وأيضًا المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الناشئة عن النمو السريع فى التكنولوجيا، والتى عادة تسمى بالمشاكل التكنولوجية.

أما المنظرون أنفسهم فأغلبهم من فئة المثقفين من الصفوة الذين كان معظمهم يحاول استخدام فلسفة القرن التاسع عشر التى تركز على أهمية القوانين الطبيعية والتغير الاجتماعى الذى يتصف بالتقدم، وكذلك نزعة الإصلاح الاجتماعى، والمناظرة العضوية للمجتمع فى داخل محتوى نسق قيم نفى وعملى وغير مثالى.

هذه النظرة تعتبر المجتمع كنسق ذى علاقات متبادلة ومتساندة بين أجزائه، ويتطور، ولديه ككل موجهات نحو التوازن، ويمثل حاجات النسق المهمة أو وظائفه.

وهكذا تعتبر الوظيفية البنائية محاولة عملت من أجل إنشاء نظرية عامة عن المجتمع تقوم على أساس افتراض أن المجتمع يوجد ويمتلك حقيقة مستقلة، أو بمعنى آخر، وجوداً كنسق اجتماعى له خواص تشبه خواص الإنسان الأخرى الموجودة فى الكون، أى مثل الأنساق الطبيعية والأنساق الحيوية.

ومن ثَمَّ يصبح بؤرة علم الاجتماع طبقًا للوظيفية البنائية هو اكتشاف الخواص الأساسية للنسق الاجتماعى وأسلوب تطورها وذلك من أجل الوصول بالتغير الاجتماعى إلى أقصى درجة من النظام.

ويلاحظ أن أصحاب النظرة الوظيفية البنائية لا يتفقون جميعًا حول الوظائف الأساسية التى يتضمنها المجتمع. فمنهم من يذهب إلى أن المجتمع له نفس الخواص والصفات التى للأنساق العضوية، وخاصة مبدأ التجانس والتوازن، بينما آخرون اعتبروا المجتمع نسق معيارى يوجد فى داخل الأفراد أكثر من خارجهم.

وهكذا نجد أن النظرية الوظيفية البنائية نمطين كبيرين النمط الطبيعى من ناحية، والنسق المعيارى من ناحية أخرى، وعلى أى حال فكل منهما يعتبر المجتمع نسق أو وحدات كبرى macroscopic يتطور، وقائم على وظائف مهمة معينة. والفرق الرئيسى بين نظرية وأخرى هو الاختلاف حول تلك الوظائف أكثر من الاختلاف بين أشكال النظريات.

●●●

تالكوت بارسونز
TALCOTT PARSONS
(١٩٠٢- ١٩٧٩)

ولد تالكوت بارسونز فى كلورادو بالولايات المتحدة فى سنة ١٩٠٢. ولقد اهتم فى بدء حياته بعلم البيولوجى Biology؛ حيث كان يدرس فى كلية امهرست Amherst. وقد اتصل بعلماء الأنثروبولوجيا الوظيفية Anthropologieal Fantionalism فى مدرسة لندن الاقتصادية أمثال مالينوفسكى Malinowisk الذى أثار فيه الاهتمام بالمدرسة الوظيفية، كما درس على أيدى علماء الاجتماع الإنجليزى أمثال هوبهوس Hobhouse وجنزبرج Ginsberg. وعندما اتجه إلى ألمانيا ليدرس فى جامعة هايدلبرج التى حصل منها على درجة الدكتوراه. تأثر بأفكار علماء الاجتماع الألمان أمثال: فيبر Weber وزمبارت Sombart. ثم عاد إلى الولايات المتحدة وعمل مدرسًا فى كلية امهرست، ثم انتقل إلى جامعة هارفرد، وانضم إلى قسم الاجتماع، وابتدأ من هنا تاريخه فى علم الاجتماع. وقد عاصر بارسونز سنين الانطلاق فى المعدلات العالمية للصناعة الأمريكية، كما عاصر سنين الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٣٠-١٩٣٤م).

ولقد كان بارسونز غزير الإنتاج العلمى فقدم للمكتبة الاجتماعية مؤلفات كثيرة، أهمها:

١- بناء الفعل الاجتماعى وصدر سنة ١٩٣٧.

«The Stucture of Social Action»

٢- النسق الاجتماعى وصدر سنة ١٩٥١ «The Social System».

٣- المجتمعات: تطورها ومقارناتها صدر سنة ١٩٦٦.

Societies: Evolulionary and Comparative Perspectives.

٤- نسق المجتمعات الحديثة صدر سنة ١٩٧١.

The System of Modern Societies.

أهدافه:

كان هدف بـارسونز الرئيـسى هو بناء نظرية عامـة عن المجتـمع، نظرية يمكن أن تستـخدم للمجـتمعـات بصفة عـامة، على أساس أن المجـتمعـات هى جزء من كل الأنساق الحية. مـثل هذه النظرية الوظيفية عن التنظيم الاجتمـاعى مؤسسة على رؤية بارسونز للكائن الحى أنه صانع القرار، مدفوعًا فى ذلك بعوامل معيارية وموقفية، أى أن للفعل الاجتماعى ثلاثة حدود (فاعل actor عوامل موقفية Situalional Factors، عوامل معيارية Normative Factors) ويلاحظ أن هذين العاملين الأخيرين (المعايير-الموقف) هى التى تبرز حاجات النسق، كما تعمل وظيفياً على فهم السلوك الإنسانى، وأكثر من ذلك أنه طبقًـا لهذه النظرة، طالما أن المجتمعات تمتلك صفـات عالمية، فإنه من الممكن عمل نظريات يمكن أن تستخدم لكل المجتمعات فى تطورها ونموها[١].

وهكذا حاول بارســونز عمل نظرية خاصــة عن المجتمع والتطور الاجتــماعى. ويلاحظ أنه كان يـعيش فى ظل النظريات البـيولوجيـة وخاصة التى تـأخذ بفكرة النسق، وكذلك كـان متأثرًا بالوظيفـية الأنثروبولوجيـة، وكذلك علم اجتمـاع فبر Weber. وهكذا جاءت نظرية بارسونز ذات أساس بيولوجى وظيفى بنائى، والتى فى مضــمونهـا تعتـبر نسقـية وتوازنيـة وتطورية. وقد اسـتخدم المنهج الـتاريخى والاستدلال والقياس المنطقى.

وافـترض بـارسونز أن نظريـته (عند مـسـتـوى معـين هى نسق من القـضـايا الاستدلالية) مؤسســة على (نظرية الأنساق الحية عامة)[٢]. كما افترض أن نظريته هذه ملائمة (لمعالجـة الأنساق الأكثر تعقدًا عن طريق التولـيف بين العناصر الأكثر بساطة وأوليـة عند مستويات متـباينة)[٣]. (وهكذا تأخذ دراسة إضـافية للحقـيقة الاجتماعية).

---

(1) Parsons. T.: "The System of Modern Societies" Prentic-Hall, Englewood Cliffs. N. J. 1971. P. 1.

(2) Parsons. T.: "Some Problems of General Theory in Sociology P. 42.

(3) Ibid.: P. 35.

الأسلوب الذى استخدمه بارسونز ليوثق تطور المجتمع يتكون من المزاوجة بين الخطة النظرية وتقارير الحقائق التجريبية التى اختارها ليثبت ويؤكد التفسير النظرى[1].

وبجمع هذه النقاط السابقة معًا يمكن بسهولة النظر إلى منهج بارسونز على أنه استدلال تاريخى عن نماذج العلاقات المجتمعية مؤسسة وقائمة على المناظرة البيولوجية التى درست بدقة وإتقان كبير، وعمل على تأييدها وإثباتها بواسطة المزاوجة والمطابقة بين الخطة النظرية والحقائق التجريبية.

بهذا الأسلوب وصل بارسونز إلى نظرية بنائية وظيفية متقنة ومحكمة للمجتمع، وذلك من خلال التعريف البيولوجى للحقيقة الاجتماعية.

نظرية النسق الاجتماعى

كان بارسونز غزير المفاهيم، فقد صاغ فيضًا من المفاهيم، حتى أن أشد الصعوبات التى يعانيها القارئ لمؤلفات بارسونز هى كثرة المفاهيم التى ابتدعها. وعلى أى حال سنحاول فى هذا المقام أن نركز على أهم المفاهيم التى تساعد على فهم نظرية بارسونز، أما لو حاولنا أن نذكر كل ما صاغه بارسونز من مفاهيم فهى تحتاج إلى كتاب مستقل قائم بذاته. وسنحاول أن نقدم فكر بارسونز من خلال نظريته عن النسق الاجتماعى إذ أنها تتضمن فى طياتها تقريبًا معظم أفكاره عن الفعل الاجتماعى والأنساق الفرعية (المنظمات الاجتماعية).

أولاً: اعتبر بارسونز أن النسق الاجتماعى العام يوجد بذاته sui generis، بمعنى أن المجتمع يملك واقعًا وحقيقة اجتماعية مستقلة كنسق اجتماعى، عن وجود الأفراد.

ثانيًا: يبرز البناء الاجتماعى أو الأنساق الفرعية التى يتكون منها البناء (المنظمات organizations، عددًا من الوظائف الأولية المهمة وتتكون هذه الوظائف من:

أ- التكامل integration بمعنى أن النسق يعتمد على مجموعة من المعايير التى تربط الفرد بالمجتمع فينتج التكامل المعيارى normative integration فى نسق المجتمع العام ككل.

---

(1) Parsons. T.: "The System of Modern and Societies" Ibid.: P. 138.

كما ينصب التكامل داخل الأنساق الفرعية على العلاقات التى تتم داخل النسق الفرعى. ويصبح النسق متكاملاً إذا تحقق التوازن بين ثلاثة عناصر وهى: الوسائل الثابتة (المكانة والدور)، والأهداف الشخصية للفاعل التى يريد تحقيقها من اشتراكه فى هذا النسق (مثل المركز الاجتماعى، الأمن... إلخ)، وأخيراً الأهداف التى وجد من أجلها النسق- أى الإنتاج.

وحتى يكون الفاعل متكاملاً فى البناء الاجتماعى يعمل النسق على أن تتضمن عملية التنشئة الاجتماعية لأعضائه غرسًا للأدوار فى شخصية الفاعلين حتى تقترب من خصائص المكانات الموروثة، فيحدث استدماج الفاعلين للأدوار، ومن ثَمَّ ينجز الدور على أكمل وجه بل وبرضى وسعادة[١].

ب- **نمط المحافظة** Pattern maintenance ويعنى به أن النسق بما يتضمنه من معايير وقيم لها عموميتها، يؤدى إلى المحافظة على نمط التفاعل فلا يخرج أو ينحرف عن حدود النسق.

ولكن النسق الاجتماعى العام يتضمن إلى جانب هذه المعايير ذات العمومية، معايير خاصة بجماعات اجتماعية أو أنساق فرعية مما قد يؤدى إلى وقوع الصراع بين هذه الجماعات أو الأنساق الفرعية أثناء تفاعلها داخل النسق العام، ونفس الشىء قد يحدث داخل بناء النسق الفرعى أى بين الوحدات المكونة له. ومن ثَمَّ فإن وظيفة نمط المحافظة سواء فى المجتمع العام أو الأنساق الفرعية، العمل على المحافظة على عملية التفاعل فلا تخرج أو تنحرف عن حدود النسق، وذلك بواسطة ما يتضمنه المجتمع العام من معايير وتتم لها صفة العمومية ويمتثل لها كافة أعضاء المجتمع. ونفس الشىء بالنسبة للنسق الفرعى فإنه وإن كان يتضمن وحدات متباينة ذات معايير متباينة فإنه أيضًا يتضمن معايير يمتثل لها كافة أعضاء النسق الفرعى (قوانين ولوائح المنظمة مثلاً) وهذا ما يضمن إدارة وحفظ التوتر والصراع فى داخل حدود النسق ومن ثَمَّ يتوفر الاستقرار للنسق.

---

(١) لمزيد من الاطلاع يرجع إلى كتاب البناء الاجتماعى (المكانة والدور) للمؤلف والناشر.

وتتضح العلاقة بين الوظيفة الأولى (التكامل) والوظيفة الثانية (نمط المحافظة) من أن كل منهما يعتمد على فكرة المعايير ومدى تشرب وتمثل أعضاء النسق لمعاييره، فكلما تشرب وتمثل الأعضاء معايير النسق كلما قل التوتر والصراع وزاد التكامل سواء فى داخل النسق الفرعى أو بين الأنساق الفرعية فى المجتمع العام.

جـ- **التكيف** adaptaion ويعنى أن كل نسق اجتماعى عليه أن يتكيف مع البيئة الاجتماعية والمادية التى يوجد فيها. فالنسق الاجتماعى العام القومى عليه أن يتكيف مع المجتمع الدولى، كما يعنى التكيف أيضًا أن يتكيف كل نسق اجتماعى فرعى داخل البناء الكلى، أى المجتمع، أى أن أهم عمليات التكيف هذه هى التكامل مع الأنساق الفرعية الأخرى، بمعنى أن تصبح الوظيفة الأولية للبناء الفرعى هى التكيف مع البيئة المحيطة به، ولكى يستطيع بل ويصبح من السهل عليه تحقيق هذا الهدف هو محاولة سيطرته على البيئة الخارجية (بواسطة التكنولوجيا مثلاً).

وأيضًا تتعلق وظيفة التكيف بالعضو الفاعل للسلوك والدور الذى يشغله، وتفاعله مع النسق الاقتصادى بمعنى محاولة العضو التكيف مع البيئة الخارجية.

د- **تحقيق الهدف** Goal attainment، ويقصد به أساليب الأفراد الفاعلين من أجل تحقيق الهدف، بمعنى أن الأفراد أثناء إشباعهم لحاجاتهم يختلفون من حيث مكونات شخصية كل منهم، فنمط الشخصية يختار، بين البدائل المتاحة فى النسق الثقافى، الأسلوب المتفق مع نمط الشخصية للحصول على الهدف.

وهذه البدائل عبارة عن خمسة بدائل سماها المتغيرات النمطية:

١- العاطفية فى مقابل الحياد العاطفى: أى أن الفاعل إما أن يسعى إلى إشباع حاجته مباشرة وذلك هو النمط العاطفى، أو أن الفاعل يجبره الموقف على التخلى عن إشباعاته وهذا النمط يسمى نمط الحياد العاطفى.

٢- المصلحة الذاتية فى مقابل المصلحة الجمعية. قد تسمح المعايير الاجتماعية فى موقف ما بسعى الفاعل وراء مصالحه الذاتية، وقد تحرم فى مواقف أخرى ذلك وتدفعه نحو تحقيق المصلحة الجمعية.

٣- العمومية فى مقابل الخصوصية، ويعنى بالعمومية القيم التى على درجة كبيرة من العمومية، أى لا تقتصر على جماعة من الجماعات بل يشترك فيها معظم أعضاء المجتمع، بينما يعنى بالخصوصية تلك المواقف التى يكون الفاعل فيها مشتركًا معه أحد أعضاء جماعته أو جيرانه. فيبدو واضحًا فى مثل هذا الموقف أن أنواعًا من القيم الخاصة بجماعة الجيران ستلعب دورًا رئيسيًا فى اختيارات الفاعل.

٤- النوعية فى مقابل الأداء، وكان بارسونز يسميها أولاً الوراثة فى مقابل الاكتساب ويعنى بها تلك المعالجة الأولية لشىء على أساس ماهيته فى حد ذاته أى حقيقة مواصفات الشىء، أو أن يكون الفعل على أساس تحقيق أهداف معينة موضوعة وهذا هو الأداء.

٥- التخصص فى مقابل الانتشار. بمعنى أن العلاقة إما أن تكون محددة نوعيًا فى مجالها بحيث لا يكون هناك إلزامًا على الفاعل أكثر من تلك الحدود، أو تكون العلاقة غير محددة ذات مجال واسع، بحيث تتجاوز الالتزامات الحدود المرسومة والمتوقع من الفاعل إتيانها.

ثالثًا: ويتركب النسق الاجتماعى بدوره من أربعة أنساق فرعية:

أ- المشاركة المجتمعية Sociatal communty، ويعنى بها تكامل المعايير integrative noms.

ب- نمط المحافظة ويعنى به تكامل القيم.

جـ- السياسة polity وتستخدم للحصول على الهدف أو تحقيقه.

د- الاقتصاد economy وتستخدم للتكيف.

وبصفة عامة تكون البؤرة الرئيسية للنسق الاجتماعى (طبقًا لرأى بارسونز) التكامل الداخلى والتكامل المعيارى، بينما تصبح أسس المجتمع هى مستوى الإشباع والاكتفاء الذاتى بالنسبة لبيئاتها[1].

(1) Ibid.: P. 11.

هذه النظرة للمجتمع أقامها بارسونز على أساس الطبيعة الجوهرية للأنساق الحية على كل مستويات التنظيم والتطور والنمو، مع الادعاء بأن هناك استمرارية قوية أكثر من فئة الأنساق الحية[1]. وهكذا يبدو الاتجاه البيولوجى فى نظرة بارسونز للمجتمع.

وأكثر من ذلك، فى خط متوازى مع هذه المناظرة بين النسق البيولوجى والنسق الاجتماعى، يعتبر بارسونز أن أساس المجتمع هو الميل نحو التوازن أو الانسجام. العمليات الرئيسية فى داخل هذا الميل هى تلك التى تربط وتعمل على تداخل الأربعة أنساق الفرعية للفعل. وتعمل على تخللها المتبادل وتشابكها وتعمل على غرس الظواهر الثقافية والاجتماعية فى الشخصية، وأخيرًا تأسيس Institutionalization أن العناصر المعيارية كبناءات. بمعنى أن العناصر المعيارية من كثرة ممارسة مظاهرها الوظيفية لمدة طويلة، تتأسس -أى تتحول إلى نظام، وتصبح على درجة عالية من التنظيم ومن ثَمّ تتطلب تطابقًا دقيقًا مع توقعات الوظيفة، ذلك لأنها تتضمن درجة عالية من التقنين، حتى لا تترك لأداء الوظيفة مجالاً للصدفة أو الاجتهادات الفردية.

إذن يكون بين أيدينا أشخاصًا قد غرست فيهم الظواهر الثقافية والاجتماعية أى استدمجوا الأدوار الاجتماعية، أى مؤهلون لأدائها على أكمل وجه، ومن ناحية أخرى أدوارًا اجتماعية على درجة عالية من التنظيم والتقنين. عند ذلك يمكن اعتبار النسق الاجتماعى على درجة عالية من التكامل وموجه نحو التوازن Equilibrium-orianted.

وهذا النسق لا يمكن النظر إليه على أنه ساكن static، إذ أنه يمتلك قدرة فائقة على التكيف للتطور والنمو بطريقة تؤدى إلى مزيد من تحقيق الهدف (حاجات جديد) للمجتمع ككل، وفى نفس الوقت وبالتوازى زيادة فى التكامل الداخلى للمجتمع.

---

(1) Parsons. T.: "Some Problems of General Theory in Sociology in Tiryakian (eds) Theoretical Sociology" Appleton Centure Crofts. N. Y. 1970. P. 35.

وتصبح العمليات الرئـيسية للتغيرات تتكون من الفـروق والاختلافات أى المزيد من التقسيم أو التخصص فى البناءات الوظيفية Functional Structure، ومزيد من الحرية للوحدات الاجتماعيـة من منابع القيود، وإدخال وتضمين بناءات جديدة فى النسق المعيارى، ومـزيد من عمومية القـيم، أى نمو أنساق القيم إلى عموميـة أكثر من أجل المحافظة على التكامل أثناء عملية التطور[1].

●●●

(1) Parsons. : "The System of Modern Societies"P. 26, 27.

ولتر بكلى

WALTER BUCKLEY

(١٩٢٢ - ٢٠٠٦)

ولد بكلى سنة ١٩٢٢ وتعلم فى جامعة براون Brown ثم جامعة وسكنسن Wisconsin. وعمل فى جامعات مختلفة منها جامعة كاليفورنيا California وكان اهتمامه الأولى ينصب على علم الاجتماع، والتدرج الاجتماعى Social stratification، والحراك الاجتماعى Social mobility. وكتب فى هذه المواضيع مقالات عديدة فى معظم الصحف العلمية، ولكن يعتبر أهم ما قدمه فى مجال النظرية كتابه «علم الاجتماع ونظرية الأنساق الحديثة «Sociology and Modern System Theory» .

أهدافه:

كان أهم أهداف بكلى استخدام منظور نظرية الأنساق الحديثة لعلم الاجتماع فى محاولة تنمية إطار عمل من المفاهيم عن الحقيقة السسيوثقافية Socioculture يتميز بمزيد من الديناميكية. ذلك أن بكلى رأى أن النظريات الموجودة تركز على النماذج الميكانيكية والعضوية، فمن ثمَّ حاول بكلى الانتفاع بديناميكيات تحول المعلومات وهى أسس الدراسة السيبرناتيكية Cybernetic approach لتنمية نظرة جديدة عن العمليات الموجهة للتنظيم الاجتماعى، وهذه الدراسة لها ملامح معينة تشترك مع الملامح العامة للبنائية الوظيفية.

نظريته عن الأنساق

افترض بكلى Buckkley أن دراسة الأنساق تنصب على مجموع العمليات الضرورية كوظيفة لعمليات التغذية Feedback المحتملة سواء الإيجابية أو السلبية التى صهرتها القرارات المنتخبة وجعلتها وسطًا، أو اختيارات الأفراد أو الجماعات المتضمنة مباشرة أو غير مباشرة عند اتخاذ القرار(١). وطبقًا لهذه

---

(1) Buckley, W.: "Sociology and Modern Systems Thoery". Prentice-Hall. Englewood Cliffs. N. J., 1967, P. 80.

النظرة يصبح التنظيم حالة وقتية، تعتمد علـى خواص التغذية بالمعلومات Information Feedback وصنع القرار عند لحظة معينة من الزمن.

وباستخدام هذه النظرة فى علم الاجتماع، قسم بكلى Buckley المجتمع إلى قسمين رئيسيين، البناء Structure والعمليات Process.

الأول يتكون من البناء على مستويين، البناء السيكولوجى Psychological structure والبناء السسيوثقافى Sociocultural structure.

وطبقًا لرأى بكلى، يتكون النسق السيكولوجى Psycological system من أربعة عناصر رئيسية:

أ- الفرد البيولوجى Biological individual.

ب- الأشياء البيئية موضع اهتمام الفرد.

جـ- فرد آخر.

د- الاتصالات والمعلومات المتبادلة.

هذه العناصر الأربعة تمثل نسق مركب متكيف، وهذه العناصر الأربعة كنسق من العناصر المترابطة والمتشابكة تمثل نسق اتصالات ضرورى وديناميكى، والذى يعتبر أساس التنظيم الاجتماعى عند المستوى السيكولوجى.

وعند المستوى السسيوثقافى، عمل بكلى محاولة للوصول إلى المستوى الأمثل من الاستقرار والمرونة من أجل التكيف مع أنساق البيئة. وهناك خمسة عناصر رئيسية فى عملية التكيف هذه.

أ- منبع لتقديم التنوع فى النسق.

ب- المحافظة على مستوى أمثل لكل من توترات النسق وإشباع العضو.

جـ- أسلوبان -أى خطان- من شبكتين للاتصالات مع البيئة، أحدهما لتحقيق الهدف والحصول عليه، والثانى لتوفيق وملاءمة أنساق النظم الاجتماعية الرئيسية مثل: (العلم، التكنولوجيا، الدين).

د- نسق لصنع القرار.

هـ- ميكانيزم لنشر المعانى ورموز الأنساق ومجموعة الأخبار.

في داخل هذا البناء كلما زاد ارتفاع المستوى كلما كان الاعتماد أكبر على الاتصالات من الاعتماد على صلة الطاقة. وهكذا يقوم التنظيم على مجموعة من القرارات تعتمد على تغذية بمعلومات معينة وفى لحظة معينة من الزمن.

العملية فى داخل نموذج الأنساق تتكون من انفتاح، ومدد معلومات، ومصادر للتغذية، وهدف، وعمليتان رئيسيتان:

أ- Morphostasis، شكل من العمليات الحافظة على التكيف بين المستوى السسيوثقافى والبيئة.

ب- Morphogenesis، ويعنى عمليات تتجه نحو تنقية النسق أو تغييره.

هذه العمليات تعتمد على عناصر فى عملية التكيف عند المستوى السسيوثقافى مثل (التنوع، والتوتر، والنظم... إلخ).

ولتوضيح ديناميكيات النسق، استخدم بكلى أمثلة مثل عمليات نظام المفاوضة Negotiated order، وحل توترات الدور، وصنع الدور.

وهكذا يمكن القول أن بكلى قدم نمطًا سيبرناطيقى للوظيفة البنائية. وبتطبيق نظرية الأنساق فى السسيولوجيا، اعتبر بكلى أن المجتمع مجموعة من الأنساق السيكولوجية والسسيوثقافية تقوم على أساس عملية التغذية بالمعلومات. هذه الأنساق الفرعية تتركب من بناء عملية، توازن وتطور، محافظة وتغير، وهى متكيفة وتحاول الوصول إلى المستوى الأمثل من الاستقرار والمرونة.

مثل هذا النموذج واضح أنه متوازى مع عمل بارسونز، فهذا النموذج يركز على الفرد البيولوجى، والحصول على الهدف، والاتصالات، والتكيف، والاستقرار، والنظم، وميكانيزمات النشأة الاجتماعية، وحفظ النسق تمامًا مثل

التطور، والفرق هنا يكمن فـى الوظائف الأساسية كـونها سبرناطيـقية آكثـر منها بيولوجـية، بينمـا اعتبـر التنظيم الاجتـماعى وقتى وديناميـكى أكثـر منه مستـقراً وساكنًا.

كما يلاحظ أن عمليات الوحدات الكبيرة Macroscopic مثل Morphostasis وMorphogeness ليست واضحة تمامًا من حيث تعريفها وأسسها. وكذلك معظم الأمثلة التى ضربها بكلى عن الديناميكية كلها من نوع الوحدات الصغيرة Microscopic.

***

إدوارد ترياكيان
EDWARD TIRYAKIAN

[- ١٩٢٩]

تعلم ترياكيان فى جامعة برنستن Princeton ثم جامعة هارفرد Harvard. وعمل فى أقسام الاجتماع فى جامعات برنستن وهارفارد وديوك Duke. وكان محور اهتمامه هى العلاقة بين الوجود وعلم الاجتماع، والتطور والتغير فى الأنساق الاجتماعية. وكذلك النظرية الاجتماعية.

وفى هذا المقام نحن نهتم بما قدمه من محاولة جادة فى إقامة نظرية ظاهراتية (فينومينولوجية Phenomenological theory) للوظيفة البنائية(١).

أهدافه:

حاول صياغة نظرية ظاهراتية عن النظام الاجتماعى من أجل الكشف عن الأبعاد المؤثرة فى الوسط الثقافى للحقيقة الاجتماعية. وبذلك يجعل من الممكن إيجاد الضبط المناسب حتى يمكن أن يؤمن تغيراً سسيوثقافياً تقدمياً (٢).

نظريته الظاهراتية

فى تضاد مع الوظيفيين السابقين، افترض ترياكيان وجهة نظر تختلف تمامًا عن سابقيه فهى نظرة فينومينولوجية عن البناءات الاجتماعية، فهو يعاملها (كظواهر معيارية لضمائر ذوات متداخلة، والتى تصنع إطارا للأفعال الاجتماعية فى مجال اجتماعى)(٣). ويلاحظ أن هذه الفكرة تشبه فكرة الضمير الجمعى عند دوركيم مع تحوير فيها، مما يكشف عن تأثر ترياكيان بدوركيم.

---

(1) Tiryakian. E. A.: "Structural Sociology" in Mckinney and Tiryakian (eds), Theoretical Sociology, Perrpectives and Developments" Appleton Century Crofts, New York, 1970. P. P. 111- 135.

(2) Ibid.: P. 135.

(3) Ibid.: P. 115.

وهكذا يصبح البناء الاجتماعى عند ترياكيان عبارة عن بناء داخلى، بمعنى أنه داخل عقول الأفراد أى جزء من تركيب شخصيتهم، وكائن أى موجود، ومعيارى Normative بمعنى أنه يتكون من مجموعة من المعايير التى ارتضتها ضمائر الذوات المتفاعلة. ومن ثَمَّ يقدم هذا البناء الاجتماعى أسس تعريفات الحقيقة عند الأفراد والجماعات، بمعنى أن الأفراد والجماعات يرون الحقيقة الاجتماعية من خلال هذا البناء المعيارى.

اعتبر ترياكيان (أى الظواهر الاجتماعية لها مظهر الإتيان . . . . .) وهو يعنى أن الظواهر الاجتماعية ليست لها صفة الدوام السرمدى، ولكنها فى حالة تغير دائم، فما هو كائن منها آخذ فى الزوال ويحل مكانه بالتدريج ظواهر جديدة، (وهذه الظواهر تستمد واقعيتها وظهورها من أرضية موجودة من الإمكانيات، وتلك الأرضية هى التى نشير إليها كبناء اجتماعى)[١].

الانتظام institutionalization أو التشكل Formalization تمثل العملية التى بها تطفو الظواهر الاجتماعية على السطح من أرضية الإمكانيات، وتصبح مرئية وتنتظم فى البناء الاجتماعى.

واعتبر ترياكيان أن هذه الأرضية من الإمكانيات مقسمة إلى منطقتين الأولى المقدس Sacred والثانية العلمانى Secular وقد نظمت المنطقتان فى توازن متناقض Antithetical equilibrium بمعنى كلما زاد العلمانى تناقص المقدس بنفس القدر، والعكس صحيح.

والمقدس عند ترياكيان يمثله المعتقدات والممارسات الدينية بينما العلمانى يتركب من المناشط الاقتصادية والسياسية أو مناشط تحقيق الأهداف.

وتبعا لذلك افترض ترياكيان أن النظام الاجتماعى ينبعث كترتيب وتعقيد للجانب اللاعقلى Irrational من المقدس. وهى العملية البنائية الاجتماعية Social Structuration[٢].

(1) Ibid.: P. 118.

(2) Ibid.: P. 123.

واعتبر أنه عند مستوى الوحدات الكبرى macroscopic تمثل الثقافة مجموعة من الرموز المتكاملة والتى تؤثر فيها ديناميكيا عمليات البناء والانحلال وذلك عند ظهور عناصر جديدة على السطح من أرضية الإمكانيات. وهذا أثناء حركة المجتمع من المقدس نحو مزيد من الترشيد للجانب اللاعقلى.

وهكذا يمكن القول أن ترياكيان حاول عمل علم اجتماع بنائى Steuctural sociology، دراسة نظرية تعتبر تحليلا ديناميكيا واسعًا للأنساق الاجتماعية، والتى اعتبرها نقطة البداية إذ هى تحليل الجواهر الأساسية للمجتمع كله كما هى موجودة فى إطار عملها الثقافى، والتى تعبر عن ماهية وواقعية تلك الإمكانيات المنبعثة منها)[1].

وبذلك اعتبر ترياكيان أن المجتمع نسق ثقافى ديناميكى رمزى موجود فى داخل الفرد، وهذا المجتمع فى تحول دائم من المقدس فى جانبه اللاعقلى إلى العلمانى فى توازن متناقض. هذا النسق من القوى يخضع لتأثير البناء الاجتماعى والأخلاقيات والترشيد. وكلها محتواه فى حدود نسق ثقافى متكامل.

وهكذا يمكن رؤية أن مثل تلك الدراسة من نوع دراسات الوحدات الكبرى ونسقية وتطورية. وإن كانت هذه الدراسة افترضت أن الوظائف الأساسية للمجتمع ظاهرتية وليست بيولوجية كما عند بارسونز وبكلى. وفى الحقيقة قرر ترياكيان بوضوح (أنا أرى دراستى تجديد للتحليل البنائى الوظيفى)[2].

***

(1) Ibid.: P. 131.

(2) Ibid.: P. 131.

تحليل

وهكذا يمكن اعتبار هذا النمط من الوظيفية البنائية يتكون من النقاط الآتية:

١- يهدف إلى عمل نظرية عامة عن التطور الاجتماعى من أجل الوصول إلى أعلى ضبط وترتيب للتغير الاجتماعى.

٢- يعمد إلى اعتبار المجتمع نسق وإلى تقسيمه إلى أنساق فرعية.

٣- يعتبر نمط ظاهراتى معيارى للوظيفية البنائية.

٤- يحاول عمل تنميط للتطور الاجتماعى.

إلا أنه يؤخذ على هذه النظرية بعض الملاحظات الآتية:

١- المفاهيم الظاهراتية مثل: أرضية الإمكانيات، والمقدس، والعلمانى والبنائية والانحلالية تعريفاتها غير واضحة.

٢- الأمور الاجتماعية التى تعمل وراء هذه الظواهر غير واضحة التحديد والتعريف.

٣- خواص التوازن المتناقض أيضًا غير واضحة.

٤- عمليات البنائية والترشيد بالمثل غير واضحة ومبهمة.

وباختصار يمكن القول أنه بينما نظرية ترياكيان تسترعى الانتباه إلا أنها تتطلب مزيدا من التوضيح، ومع ذلك فإنها تقدم أفكارا جديدة عن أنماط الخارجية والرسمية التقليدية، وإن كانت فضفاضة كما بينا.

***

الفصل الثالث

نظريات الصراع

أولا: نظريات الصراع الكلاسيكية

- الظروف الاجتماعية

نسقي:
- ماركس
- بارك

طبيعي:
- بارتو
- فيلن

ثانيًا: نظريات الصراع المعاصرة

- الظروف الاجتماعية

نسقي:
- ميلز
- داهرندورف

طبيعي:
- ريسمان
- كوزر

نظريات الصراع الكلاسيكية

تنظر نظرية الصراع إلى المجتمع كنسق من جماعات متصارعة تمثل الكفاح من أجل الحصول على منابع الحاجات المادية الأساسية. والعوامل القابعة وراء هذا الصراع تتضمن مشاكل التنظيم الاجتماعى نفسه، مثل تغير السكان وأنساق تقسيم العمل، أو مشاكل الطبيعة البشرية ذاتها مثل سمات الشخصية والغرائز البشرية.

هذا النموذج، على ما سنرى، يتخذ نمطين فى التفسير إما طبيعى أو نسقى وكل منهما تطورى في نفس الوقت مثل النظرية العضوية، وأيضًا نشأ ونمى إلى حد كبير فى ظل فلسفة تقاليد عصر التنوير.

على أى حال نظرية الصراع نماها جماعة من المفكرين الذين كانت خلفيتهم وأيضًا خبراتهم الاجتماعية - تختلف كلية عن جماعة النظريات العضوية الذين كان اهتمامهم ينصب على الحاجات الإنسانية والتغير الاجتماعى أكثر من اهتمامهم بمشاكل النسق أو مشاكل التنظيم الاجتماعى، بل كانوا يحاولون إعادة النظام الاجتماعى. بينما بالنسبة لمنظرى نموذج الصراع كان يتميز ذلك النموذج بأساسه الأيديولوجى، وهكذا أصبحت النظرية الاجتماعية عندهم عبارة عن رد فعل للمشاكل الاجتماعية كما يراها هؤلاء المفكرين.

الظروف الاجتماعية

عند دراستنا لنظرية الصراع سنجد أنها تشمل مفكرين أبعد ما يكونوا عن التجانس فهم مختلفون كل الاختلاف، ومع ذلك فإن هؤلاء المنظرين يجمعهم متشابهات عامة معينة، فأصولهم الاجتماعية تميل إلى الانتماء إلى الطبقة المنخفضة أو الشريحة السفلى من الطبقة الوسطى، أكثر منها إلى الشراع العليا من الوسطى أو الطبقة العليا، ولقد تلقى معظمهم نوعًا من تعليم عصر التنوير فى مواضع معينة مثل الكلاسيكيات، والفلسفة والتاريخ والقانون والاقتصاد، وكان ينصب اهتمامهم على السياسة والنشاط العمالى، ولقد عانوا من وطأة الضغط السياسى،

والصراع فى مجتمعاتهم، ولقد نشأوا فى ظل فلسفات ومثل عصر التنوير من الطبيعية والمثالية والتطور والمذاهب العقلية والنفعية والاشتراكية.

وهنا يجدر الإشارة إلى ملاحظة هامة وهى أن نظريات الصراع ليست وحيدة النمط فى التطرف الأيديولوجى، إذ نرى بينها أشكال متعددة من النماذج، فنظريات الصراع تميل إلى الاختلاف فى الأيديولوجية طبقًا للأنماط الهامة التى تستخدمها فى التفسير، ففكرة المشاكل الاجتماعية عند ماركس وبارك هى أكثر تطرفًا فى التطبيق، بينما النظرية الطبيعية وبصفة خاصة التى أنشأها بارتو Pareto أكثر محافظة فى نغمتها وهدفها، ومع ذلك فكل من النمطين يؤكد على الصراع والتغير فى صياغاتها لمفاهيم المجتمع.

يمكن شرح الاختلافات السابقة بين نظريات الصراع سواء من ناحية التطرف الأيديولوجى أو من ناحية العوامل المستخدمة فى التفسير وذلك فى النقاط الآتية:

١- طبقًا للنظر إلى المشاكل الاجتماعية. يصبح الصراع من أجل إشباع الحاجات يؤدى إلى الصراع والتغير، بينما الدراسة التى تتخذ العوامل الطبيعية كأداة لتفسير نفس العمليات تفترض أنه هناك خصائص معينة منغرسة فى الطبيعة البشرية (رواسب Residues) أو (سمات Traits).

٢- فمثلا يعتبر ماركس Marx وبارك Park أن الظروف الاقتصادية والبيئية تفسر اتجاه سلوك الصراع، بينما بارتو Pareto وفبلن Veblen يعتبران الأفكار والقيم أكثر فاعلية فى تفسير نفس العمليات أى التغير والصراع، مما يفصح بوضوح عن أن نظرة بارتو وفبلن نظرة معيارية.

على أى حال كل من النمطين لنظريات الصراع نسقى وتطورى وطبيعى، مؤسسة على نظرية للمجتمع تراه وكأنه قائم على نوع من التوازن سواء كان مؤقتًا أو غير مستقر.

وهكذا تقدم نظرية الصراع نموذجًا نسقياً للمجتمع وتشبه النظرية العضوية فى بناء شروحها وتفسيراتها إلا أنها تختلف فى نظرتها إلى المجتمع على أنه مؤسس على المنافسة والسيادة والصراع بدلا من الاتفاق والتكامل عند النظريات العضوية

والبنائية الوظيفية. كما أن نظريات الصراع تختلف فيما بينها فيما تركز عليه من عوامل اجتماعية ذات وحدات كبرى Macroscopic أو عوامل طبيعية ذات وحدات صغرى Microscopic، وتفترض أنها الأسس الهامة لعمليات التغير والصراع، وأخيراً يمكن القول أن نظريات الصراع تختلف بشدة عن النظريات العضوية فى تركيزها بصفة عامة على الحاجات الإنسانية أكثر منها على الأولويات الاجتماعية أو النسقية، أى أن نظريات الصراع تركز على الحاجات الإنسانية بينما النظريات العضوية والوظيفية تركز على حاجات النسق. وهكذا بينما قد يتشابه بناء هذه النظريات فإن المضمون الأيديولوجى لكل منهما يختلف تماماً.

***

كارل ماركس
KARL MARX
(١٨١٨ - ١٨٨٣)

ولد ماركس فى ألمانيا، وهو ابن محامى يهودى، ودرس التاريخ والفلسفة والقانون وشارك فى الصحافة والسياسة المتطرفة، وشارك فى الاتحاد الدولى للعمال وكذلك مجلس المنظمة الشيوعية، وكان سلوكه عبارة عن رد فعل للضغط السياسى والاقتصادى الحادث فى ألمانيا.

أهدافه:

كان هدف ماركس تحليل العلاقة بين ظروف الحياة ويقصد بها الأبنية الفرعية الاقتصادية للمجتمع، وبين الأفكار ويقصد بها الأبنية العليا المعيارية فى المجتمع، وذلك على أسس من الاستمرارية والتغير خلال التطور التاريخى للمجتمع، مثل هذه العلاقة المتبادلة كانت الأساس لأفكار ماركس، وهو يفترض أن الإنسان تحت تأثير التصنيع والاستغلال الرأسمالى تحول من رجل طبيعى إلى رجل مغترب Alianated man.

ومن ثَمَّ فالهدف الأيديولوجى لماركس هو إعادة تحويل المجتمع إلى حالة يوجد فيها الرجل الطبيعى بدلا من الرجل المغترب، وذلك بإعادة تركيب البيئة الطبيعية والاجتماعية، وكرد فعل للضغط السياسى والاقتصادى فى عصره نمى نظرية جدلية لتوجيه التغير فى المجتمع مع التركيز بصفة خاصة على البناءات الفرعية الاقتصادية، ولذلك سميت بالمادية الجدلية التاريخية.

النظرية المادية التاريخية

لقد كان ماركس متأثرًا بشدة بفلسفة هيجل(١). وافترض ماركس أن دياليكتيك هيجل هو أوسع مذهب من مذاهب التطور وأقرها مضمونًا وأشدها عمقًا.

---

(١) هيجل فيلسوف ألمانى كانت فلسفة الجدلية المثالية واسعة الانتشار فى عصر ماركس.

وفى الحقيقة لا يمكن فهم نظرية ماركس إلا إذا عرضنا بإيجاز لنظرية هيجل فى هذا الصدد، أراد هيجل أن يفسر التطور أو الصيرورة من الناحية الصورية المجردة. وأراد أن يستخدم فى هذا التفسير المنهج الجدلى أو التحليل الديالكتيكى، وفى هذا الصدد يقول إن كل فكرة تحمل فى طياتها عناصر نقيضها، ويطبق هذه الفكرة على الوجود، فإذا جردنا الوجـود من كل صفة موضوعية بحـيث يصبح وجوداً مطلقًا من الناحـية الصورية، فـإنه يصبح وجـوداً خاليًـا من الصفـات والخواص وبذلك يستحيل الوجود إلى لا وجود أى أن الوجود المطلق واللاوجود شيء واحد، فكأن كل فكرة تحمل فى طياتها عناصر نقيضـها، واجتماع النقيضين على هذا النحو هو الذى يفسر ظاهرة التـغير، فلو لم تكن عناصر النقيـضين موجودة فى الشيء على حالته الأصلية لما تصورنا تغيره من حالة لأخرى[1].

هذا المنهج اسـتخـدمه هـيجل ليكشف خـلال أى عـقل أو روح تتم العمليـة التاريخية نفسها فى المجتـمع، عند هيجل الروح هى المحدد للتغير، فأحل ماركس محلها الظروف المادية بمعنى العامل الاقتصادى، نزعة المادية هى الجزء المقابل لنزعة المثالية عند هيـجل. لقد كانت فلسفة هيجل تعـالج تطور العقل والأفكار، كانت مثاليـة تجعل تطور الطبيـعة والإنسان وعلاقات النـاس الاجتماعيـة ناتجة عن تطور العقل، وقد احـتفظ ماركس بفكرة هيجل عن حركـة التطور الدائم، أعنى منهجه الديالكتيكى، أى نظرية التطور.

ولكن ماركس طرح وجهة النظر المثالية جـانبًا، واعتبر أنه ليس تطور العقل هو الذى يفسر الطبـيعة بل أن الأمر على العكس.. لقـد كان هيجل يعتبـر أن حركة الفكر، هذه الحركة التى يطلق عليها اسم الفكرة هى الصانع للواقع، بينما ماركس يرى حركة الفكر ليست إلا انعكاسًا لحركـة المادة منقولة إلى فكر الإنسان ومتحولة فيه، فالحركة عند ماركس شكل وجود المادة.. فمثلا ذوبان الثلج وتحوله إلى ماء، هذه الحركـة من الجامد إلى الـسائل أعطت العقل فكرة أن الـثلج يذوب بالحرارة، فكأن كل المعانى والأفكـار التى يحتويهـا العقل الإنسانى هى من حـركة المادة فى الطبيعة، واعتبـر ماركس أنه لم يوجد ولا يمكن أن يوجد فى أى مكان مادة بدون

(١) دكتور مصطفى الخشاب: علم الاجتماع ومدارسه - الجزء الثالث ص ٤٦.

حركة ولا حركة بدون مادة. ومن ثَمَّ اعتبر ماركس أنه بما أن إنتاج العقل الإنسانى هو آخر التحليل نتاج الطبيعة، وهكذا لا يوجد فى رأى ماركس إلا المادة أما الأفكار والوعى فهى مظاهر لاحقة وناتجة عن تحول حركة المادة فى العقل إلى أفكار ووعى.

وهكذا اقتنع ماركس بأنه يجب جعل علم الاجتماع منسجمًا مع الأساس المادى وإعادة بناءه استنادًا إلى هذا الأساس، فالمادية هى لب النظرية الماركسية، ولكن ماركس -لم يتوقف على حد تعبيره- عند مادية القرن التاسع عشر، إذ اعتبر أن المادية القديمة كانت تتوقف عن معرفة الطبيعة وهو انتقل بها إلى معرفة المجتمع البشرى. وبذلك اعتبر ماركس أنه بتوسيع المادية لتشمل الظواهر الاجتماعية قضى على عيوب النظريات التاريخية السابقة له، إذ لم تكن تلك النظريات فى رأيه تأخذ فى اعتبارها غير الدوافع الفكرية لنشاط الناس التاريخى، دون أن تبحث عما يولد هذه الدوافع، ودون أن تدرك القوانين الموضوعية التى تحكم وتطور نظام العلاقات الاجتماعية، ودون أن نرى جذور هذه العلاقات فى درجة تطور الإنتاج المادى.

فالمادية هى لب النظرية الماركسية، فهى تنتمى إلى نزعة الحتمية الاقتصادية التى تذهب إلى أن العامل الاقتصادي هو المحدد الأساسى لبناء المجتمع وتطوره، وأنها أوضحت عملية ظهور جماعات المجتمع الاقتصادية وتطورها وانهيارها، وذلك عن طريق تحليلها لمجموعة الاتجاهات المتناقضة وردها إلى ظروف المعيشة والإنتاج لمختلف طبقات المجتمع.

ويعبر ماركس عن ذلك في عبارته المشهورة فى مقدمة كتابه مساهمة فى نقص الاقتصاد السياسى (أن الناس أثناء الإنتاج لحياتهم، يقيمون فيما بينهم علاقات معينة ضرورية مستقلة عن إرادتهم، وتطابق علاقات الإنتاج هذه درجة معينة من تطور قواهم المنتجة المادية، وتؤلف مجموعة علاقات الإنتاج البناء الاقتصادى للمجتمع، أى الأساس الواقعى الذى يقوم عليه بناء أعلى تشريعى وسياسى وتطابقه أشكال معينة من الوعى الاجتماعى. إن أسلوب إنتاج الحياة المادية يشترط

تفاعل الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية بصورة عامة. فليس إدراك الناس هو الذى يعين معيشتهم بل على العكس من ذلك معيشتهم الاجتماعية هى التى تعين إدراكهم. وعندما تبلغ قوى المجتمع المنتجة المادية درجة معينة من تطورها، تدخل فى تناقض مع علاقات الإنتاج الموجودة أو مع علاقات الملكية -وليست هذه سوى التعبير القانونى لتلك- التى كانت إلى ذلك الحين تتطور ضمنها. فبعد أن كانت هذه العلاقات أشكالاً لتطور القوى المنتجة، تصبح قيوداً لهذه القوى. وعندئذ ينفتح عهد الثورة الاجتماعية، ومع تغير الأساس الاقتصادى يحدث انقلاب فى كل البناء الأعلى الهائل بهذا الحد أو ذلك من السرعة[1].

هذه الفكرة هى محور النظرية الماركسية فى التغير، فهى تعتبر أن الأسلوب الاقتصادى السائد فى الإنتاج والتبادل يشكل فى كل حقبة تاريخية معينة مع التنظيم الاجتماعى المنبثق بالضرورة عنه، الأساس الذى يقوم عليه تاريخ هذه الحقبة السياسى والفكرى، والذى يمكن بالاعتماد عليه فقط تفسير التاريخ. فالماركسية تعتبر أن مرحلة النمو التكنولوجى تحدد أسلوب الإنتاج والعلاقات والنظم التى تكون النسق الاقتصادى. هذه المجموعة من العلاقات بدورها هى المحدد الرئيسى لكل النظام الاجتماعى.

ولكن فى رأى ماركس أن النظامين الاجتماعى والاقتصادى لا يتطابقا لأن النظام الاقتصادى يتغير نتيجة النمو التكنولوجى، والنظام الاجتماعى باق على ما هو عليه فقد أنشأ أيديولوجيته وأصبحت له مصالح مختلفة، ومن ثَمَّ يقاوم التغير. وهكذا يقع التناقض بين النظام القديم، وبين التصورات الفكرية التى انبعثت من تغير قوى المجتمع المنتجة وعدلت مفاهيم الناس عن أدوارهم فتقع الثورة.

وهكذا طبقًا لهذه النظرية التى يسميها أيضًا الماركسيون نظرية الصراع الطبقى افترض ماركس أن كل تاريخ البشرية هو تاريخ للصراع بين الطبقات بين الطبقة

---

(1) Marx, Karl: "A Contribution to Critique of Polititical Economey" trans. by N. I. Stone. New York. International Libarary Pubkeshing Co. 1914. P. 11.

المستغِلة والطبقة المستغَلة[1]. ذلك أن ماركس يفترض أنه فى مرحلة الإنتاج الرأسمالى حيث صاحب رأس المال يملك وسائل الإنتاج ويحقق أرباحًا طائلة من فائض قيمة عمل العمال. فصاحب رأس المال هذا يأخذ النصيب الأكبر من الربح ولا يعطى العامل إلا ما يقيم حياته.

إذن المشكلة كلها عند ماركس تتلخص فى عدم عدالة توزيع عائد الإنتاج بين صاحب رأس المال والعمال.

ويلاحظ أن عدم عدالة التوزيع مفهوم يتضمن عنصراً أخلاقياً. إذ أن التوزيع هو مفهوم اقتصادى، ولكن عدالته أو عدمها فعل أخلاقى، ومفهوم التوزيع بذاته مجردًا من كل صفة، أمر غير موجود فى الواقع الاجتماعى، ولكن ما يعطيه الوجود الاجتماعى هو إضافة صفة العدالة أو عدمها، ومن ثَمَّ فعدالة التوزيع أو عدمها فعل اقتصادى قائم على قاعدة أخلاقية توجهه. إذ أن الإنتاج بذاته لا يقوم بعملية التوزيع، ولكن القائم بعملية التوزيع هو صاحب رأس المال، ومن ثَمَّ فعدالة التوزيع أو عدمها فكرة أخلاقية فى تصورات الرجل الرأسمالى الذى يملك ويؤدى دور الموزع فى النظام الرأسمالى الذى أعطاه هذا الحق. ومن ثَمَّ يتضح بجلاء أن مفهوم عدالة التوزيع أو عدمها، هى علاقة اجتماعية ذات طابع اقتصادى أساسها لا مادى. وذلك عكس ما ذهب إليه ماركس، ومن ثَمَّ فإن التغير فى العلاقات الإنتاجية لم يؤد إلى تغير فى البناء الأعلى، ولكن البناء الأعلى بما يحتويه من تصورات فكرية وعناصر أخلاقية هو الذى يشكل العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الاقتصادى، أى هو الذى وجه عملية توزيع الربح، أى أن هناك عنصراً أخلاقياً سلبياً عند أصحاب رؤوس الأموال هو الذى أدى إلى سوء عدالة التوزيع. فلو أنه وجد العكس أى عنصراً أخلاقياً إيجابياً فى تصورات البرجوازيين يؤدى إلى توجيه عملية التوزيع نحو العدالة، لما وجد ماركس مادة يستخرج منها نظريته.

والدليل على ذلك أن هذه العملية تغيرت فى اتجاه عكس ما ذهب إليه ماركس، فقد افترض أن (نتيجة لاتساع استعمال الآلات ولتقسيم العمل، ضاع

---

(١) المستغلة: الأولى بكسر الغين، والثانية بفتحها.

من عمل البروليتاريا كل صبغة شخصية، وضاع بذلك عنصر الإبداع فتلاشى من العمل جاذبيته وأصبح العامل عبارة عن ملحق بسيط للآلة لا يطلب منه إلا القيام بعملية بسيطة رتيبة سهلة التلقين. وبذلك أصبح اليوم، تكلفة العامل هي تقريبًا تكلفة وسائل المعيشة اللازمة للاحتفاظ بحياته والإبقاء على نوعه. إلا أن ثمن العمل كثمن أي بضاعة يساوي تكاليف إنتاجه، إذن كلما أصبح العمل باعثًا على الاشمئزاز هبطت الأجور)[1]. فالمشاهد أن أجور العمال لم تنخفض بل ارتفعت، أي أن أسلوب التوزيع في القرن العشرين اتجه في اتجاه مخالف لما تنبأ به ماركس، ومن ناحية أخرى لم يكن ذلك نتيجة لعوامل مادية، بل كان نتيجة لعوامل لا مادية أهمها انتشار التعليم والتضامن بين العمال، ونحو الاتحادات العمالية، وتدخل الحكومات في العلاقة بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال من أجل مصلحة المجتمع، ذلك كله أدى إلى مزيد من الديمقراطية وأدى إلى تغير في التصورات الفكرية عند كل من أصحاب رؤوس الأموال والعمال عن العلاقات الاجتماعية ذات الطابع الاقتصادي، وخاصة وضوح فكرة أن كل منهما يؤدي دورًا في مجتمع واحد يهم كل منهما نموه ورخاءه، وكل هذه عوامل لا مادية.

ومن الغريب أن ماركس نفسه أشار إلى أن المغير الحقيقي للبناء الأعلى ليس هو العلاقات الاقتصادية ذاتها ولكن هي عملية التثقيف والتدريب على ممارسة الحياة السياسية بين صفوف العمال فيعمل ذلك على تعديل تصوراتهم الفكرية ولكن استغراقه في إعجابه بماديته ستر عنه الحقيقة التي جرى بها قلمه. فهو عندما يتحدث عن صراع البرجوازية ضد الإقطاع، واستغلال البرجوازية للعمال يقول: (وترى البرجوازية نفسها مضطرة، في كل ميادين النضال هذه، إلى الالتجاء للبروليتاريا وطلب معونتها، فتجرها بذلك إلى مضمار الحركة السياسية وهكذا تقدم البرجوازية بيديها إلى البروليتاريا عناصر ثقافتها، أي أنها تسلمهم السلاح الذي سيحاربونها به)[2]. وفي موضع آخر يتحدث فيه ماركس عن الصراع الطبقي يقول: (يتخذ انحلال الطبقة الحاكمة والمجتمع القديم بأسره طابعًا يبلغ من حدته

(١) بيان الحزب الشيوعي- ٤٦.

(٢) المرجع السابق- ص٥٠.

وعنفه أن جزءًا صغيرًا من الطبقة الحاكمة نفسها ينفصل عنها وينضم إلى الطبقة الثورية، فكما انتقل فيما مضى قسم من النبلاء إلى جانب البرجوازية، كذلك فى أيامنا هذه ينتقل قسم من البرجوازية إلى جانب البروليتاريا، وخصوصًا القسم المؤلف من البرجوازيين المفكرين الذين تمكنوا من الإحاطة بمجموع الحركة التاريخية وفهمها بصورة نظرية).

ومن ثَمَّ فالتحول فى البناء الأعلى أى التصورات الفكرية طبقًا لأقوال ماركس هذه، لا يقبع فى العلاقات المادية ولا تحدثه عوامل مادية، ولكن يعتمد أساسًا على عملية التدريب والممارسة السياسية التى يباشرها العمال، فيتكون لديها عناصر ثقافتها. ذلك بالإضافة إلى عمليات التثقيف والتوعية التى يعمل بها مفكرو الحركة على تغيير مفاهيم العمال وتصوراتهم، فتدرك الطبقة العاملة التناقض فى علاقات الإنتاج أى تدرك عدم عدالة التوزيع.

وهكذا يلاحظ أن عدم عدالة التوزيع هى الفكرة المحورية فى النظرية الماركسية، وهذه الفكرة كما بينا نابعة من سلبية أخلاق البرجوازيين فى عصره، ولكن تعنت ماركس المادى أو أيديولوجيته أعمته عن هذه الحقيقة، وافترض أن عدم عدالة التوزيع راجعة لأن صاحب رأس المال يملك وسائل الإنتاج، واعتبر الملكية الخاصة هذه هى سبب استغلال أصحاب رؤوس الأموال لطبقة العمال. وبذلك أراد أن يمحو هذه الملكية الخاصة ويحولها إلى ملكية جمعية، ومن أجل هذا افترض أن هناك علاقة وثيقة بين النظامين الاقتصادى والسياسى حتى جعلهما كوجهى العملة لا يمكن فصلهما، فهو يقول: (إن كل الطبقات التى كانت تستولى على السلطة فيما مضى كانت تحاول تثبيت أوضاعها المكتسبة بإخضاع المجتمع بأسره لأسلوب التملك الخاص بها)[1]. ومن ثَمَّ جعل الطريق إلى تحويل الملكية الخاصة إلى ملكية عامة هو استيلاء البروليتاريا على السلطة، (ثم تستخدم البروليتاريا سيادتها السياسية لأجل انتزاع الرأسمال من البرجوازية شيئًا فشيئًا ومركزة جميع أدوات الإنتاج فى أيدى الدولة أى فى أيدى البروليتاريا المنظمة فى طبقة حاكمة)[2].

(١) المنشور الشيوعى- ص٥٢.

(٢) المرجع السابق- ص٦٦.

ومعنى هذا أن البروليتاريا، طبقًا لرأى ماركس ستخضع المجتمع بأسره لأسلوب التملك الخاص بها، ولكن ماركس لم يفته هذا التناقض الواضح، ولكنه لم يستطع أن يجد له الحل العلمى الموضوعى، ولكنه حل هذا التناقض بعبارة خلت من الواقعية وامتلأت بالشطحات الخيالية اليوتوبية إذ يقول: «ما أن يصبح كل الإنتاج متمركزًا فى أيدى جمعية واسعة تشمل الأمة بأسرها، حتى تفقد السلطة العامة صبغتها السياسية. إذ أن السلطة السياسية بالمعنى الصحيح هى السلطة المنظمة لطبقة من أجل اضطهاد طبقة أخرى، فإذا كانت البروليتاريا فى نضالها ضد البرجوازية تبنى نفسها حتمًا فى طبقة. وإذا كانت تجعل نفسها بواسطة الثورة طبقة حاكمة، ثم بصفتها طبقة حاكمة، تهدم بالعنف والشدة علاقات الإنتاج القديمة، فإنها بهدمها علاقات الإنتاج القديمة تهدم فى الوقت نفسه ظروف وجود التناقض والتناحر بين الطبقات بصورة عامة، وبذلك تهدم أيضًا سيادتها ذاتها من حيث هى طبقة)[1].

إن قول ماركس (يصبح كل الإنتاج متمركزًا فى أيدى جمعية واسعة تشمل الأمة بأسرها) قول يجافى الواقع، إذ كيف يتم ذلك فى مجتمعات يتراوح تعدادها بين عشرات ومئات الملايين؟؟. ومن ثَمَّ فهو قول يتصف بالخيال، إذ من الناحية الواقعية يصبح المجتمع سياسيّاً واقتصادياً خاضعًا لجماعة معينة من البروليتاريا وليس للأمة بأسرها أو حتى البروليتاريا بأسرها. ومن ثَمَّ ينشأ السؤال الآتى طبقًا لرأى ماركس نفسه، ما هى الضمانات حتى لا تتحول هذه الجماعة التى وصلت إلى السلطة إلى طبقة جديدة تحل محل البرجوازية، أعنى لا توفر عدالة التوزيع، لأن التوزيع واقعيّاً سوف يكون بيدها حيث أصبحت تملك واقعيّاً وسائل الإنتاج وخاصة أنها أيضًا تملك السلطة؟!

وإذا كان ماركس يظن أن الضمان، كما صوره له خياله الملتوى الذى لا يريد مواجهة الحقيقة. أن هدم علاقات الإنتاج القديمة هو هدم فى الوقت نفسه لظروف وجود التناقض والتناحر بين الطبقات بصورة عامة فإن هذا ليس إلا ضمان وهمى ليس له أساس علمى، فهو أحل طبقة مكان طبقة أخرى، كما يمكن أن تكون

---

(١) المنشور الشيوعى- ص٦٧.

مستغلــة كما كانت سابقتهــا، كما أن هدم العلاقات القديمــة إذا كان يضمن هدم التناقض القديم على حد قــوله، فإنه لا يضمن البناء الاجتمــاعى الجديد أو يحدد شكله أو اتجاه التغيــر فيه. فكأن النظرية الماركسية قــد استطاعت أن تهدم القديم، ولم تستطع أن تخطط لبناء المجتمع الجديد، أعنى أن تضع ضمانات عدالة التوزيع فى المجتمع الجديد.

ذلك كله يرجع إلى تعنــت ماركس المادى، وعــدم رغبــتــه فى الاعتــراف بأثر العوامل اللامادية، والأخلاقية بالذات فى توجيه الحياة الاجتماعية. ومن ثَمَّ تصبح الشيوعية أو الاشتراكية التى دعى إليها ماركس ما هى إلا أسلوبًا سياسيّاً واقتصادياً مثله مثل أى أسلوب اقتصادى أو سياسى وضــعه البشر لا يستقيم أمره إلا إذا توفر لدى القائمين عليه أخلاقيات إيجابية تضمن عدالة التوزيع.

﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ③﴾ [العصر: ١-٣].

صدق الله العظيم

***

روبرت بارك

ROBERT PARK

(١٨٦٤- ١٩٤٢)

ولد بارك فى بنسلفانيا Pennsylvania، ابن رجل أعمال، وتعلم فى جامعات هارفارد ومينيسوتا Minnesota وبرلين، وكذلك تعلم الفلسفة وعلم النفس ولقد تأثر بجورج سمل George Simmel أثناء دراسته فى برلين ولقد تضمن تاريخ حياته العلمية اشتغاله بالصحافة، وأيضًا كان له دور قيادى فى قسم الاجتماع بجامعة شيكاغو. ولهذا كان لأعماله مقام فى الفكر والتقدم الأمريكى مثل ما كان لأعمال جون دوى John Dewey وسمل. ولقد كان لبارك اتجاه إيكولوجى ecology فى دراسة المجتمع. وكان يركز انتباهه على المنافسة والصراع على أنهما أساس التغير الاجتماعى. وتتضمن مؤلفاته ضغط الهجرة وضبطها صدر ١٩٢٢ The Immigrat Press and its Control وكذلك مقدمة لعلم الاجتماع.

أهدافه:

كان بارك يعتبر أن علم الاجتماع يبحث عن (الوصول إلى قوانين طبيعية natural lawe وتعميمات generalizations فيما يختص بالطبيعة الإنسانية والمجتمع، بغض النظر عن الزمان والمكان... قانون طبيعى يكون تقرير يصف سلوك فئة من الأشياء)[1].

وكان بارك يعتبر المجتمع مثله مثل الأنساق الأخرى فى الطبيعة، ومن ثَمَّ ركز على أساسه الأيكولوجى وبصفة خاصة التوزيع المكانى للأفراد والجماعات. وكانت وجهة نظره فيما يختص بنظرية الصراع conflict theory تكمن فى تركيزه على الكفاح البيئى للإنسانية من أجل الوجود والبقاء، التى تؤدى إلى عملية

---

(1) Park, R.E. and Burgess, E.: "Introduction to the Science of Sociology" University of Chicago Press, Chicago 1921.

ديناميكية مثل الصراع والتكيف والتى تصبح حالات مؤقتة فى النمو المستمر للمجتمع. وهكذا قدم بارك لنا نظرية فى الصراع أيكولوجية تشبه نظرية ماركس فى تركيزها على الدور الرئيسى للمشاكل الاجتماعية.

ومن أجل ذلك استخدم بارك أسلوب التاريخ الطبيعى، مع توليفة من دراسة الحالة والدراسة لتاريخ الحياة. هذا المنهج استخدم لتقفى آثار مراحل تتابع التطور والنمو عند جميع مستويات النسق الاجتماعى. وهنا يظهر أيضًا التشابه مع منهج ماركس من ناحية الاستقرار التاريخى.

النظرية

افترض بارك أن أساس الاستقرار الاجتماعى يكمن فى عملية التطور، وكان يرى أن التوازن الاجتماعى Social equilibrium يقوم على أساس التطور الاجتماعى.

وافترض أن الكائنات البشرية دائمًا منشغلة وباستمرار فى الكفاح من أجل الوجود والبقاء، وتصبح المنافسة بينهم من أجل الحصول على هذا الهدف، وتلك هى العملية التى يتميز بها المجتمع الإنسانى.

واعتبر أنه من ذلك الكفاح ينبعث نظام طبيعى يمكن رؤيته فى التوزيع المكانى للأفراد والجماعات، وأيضًا فى اعتمادهم بعضًا على بعض أى فى تساندهم.

فى داخل نظام الحياة biotic order السابق شرحه تؤدى المنافسة إلى العملية الأيكولوجية من السيادة والتعاقب.

وتصبح العمليات الاجتماعية الرئيسية فى داخل هذا النظام تتكون من المنافسة Compitition والصراع والتكيف accomodation والتمثيل assimilation. تكمن الأولى فى العملية التطورية التى تؤدى إلى اللاحق من العمليات الاجتماعية المتتابعة، وتؤدى واقعياً إلى التمثيل الثقافى Cultural assimilation. وهكذا تصبح العمليات الاجتماعية مؤسسة على القوى الطبيعية وخاصة المنافسة من أجل المصادر

وهذه تؤدى إلى تتابع تلك العمليات وهكذا يصبح الصراع عامل حياة وتطور ويؤدى إلى نتائج اجتماعية معينة. هذه الفكرة ليست مختلفة كلية عن فكرة الاغتراب عند ماركس التى تؤدى إلى الصراع من أجل المصادر وتؤدى إلى أشكال معينة من السيادة وفى النهاية تؤدى إلى أشكال معينة من التمثيل الثقافى.

واعتبر بارك أن النسق الاجتماعى يتكون من أسسه الأيكولوجية التى يقوم عليها نظمه الاقتصادية والسياسية والأخلاقية. وهذه النظم تتأثر بالقوى الهامة (المنافسة- الصراع). وفى مركز هذا النسق وظيفة الضبط الاجتماعى وهى المشكلة الرئيسية للمجتمع.

من خلال هذه النظرية الديناميكية للمجتمع تعتبر نظرية بارك أن التغير الاجتماعى يتقدم خلال تتابع معين، أولاً عدم الرضى ثم القلق (أهمية القلق الاجتماعى أنه يقدم تحطيمًا للروتين المؤسس وإعدادًا لعقل جمعى جديد)[1]،

ومن ثَمَّ تنبعث الحركات الاجتماعية Social movements لتؤدى إلى تحسين النظم وإعادة بنائها (فالقلق الاجتماعى يأخذ شكلا فى حركات الجمهرة والجماهير وأخيرًا يتبلور فى نظم)[2].

وافترض بارك أن مفهوم الفرد عن ذاته ناتج عن موقفه الاجتماعى فى تدرج مكانات المجتمع.

وأخيرًا قدم لنا بارك هرمًا من المفاهيم عن مستويات التنظيم. عبارة عن نموذج أيكولوجى للنسق الاجتماعى. وجعل أساس ذلك النسق نظامه الأيكولوجى (المدنية والمجتمع)، ويتكون من التوزيع المكانى للأفراد والجماعات أثناء كفاحهم من أجل المكان الصحيح للاستخدام (المصادر) وأوضح مثل على ذلك الصراع المرير الذى دار بين الهنود الحمر والأمريكيين البيض المهاجرين، وتلك بؤرة العملية الأيكولوجية. ثانيًا: النظام الاقتصادى ويهتم بالإنتاج والاستهلاك للسلع والخدمات. ثم بعد ذلك النظام السياسى ويركز على إيجاد حل للصراع من خلال

(1) Ibid: P, 686.

(2) Ibid: P, 874.

تفسير الجزاءات الاجتماعية وتحديد ما إذا كان فعل ما يقع تحت طائلة الجزاءات الاجتماعية. وأخيراً النظام الأخلاقى الذى يكون فى أعلى مستوى وينظم ويرتب النظم التى أسفله من خلال عمل المعايير والتراث الاجتماعى للمجتمع بصفة عامة.

والنسق العام للتنظيم الاجتماعى يتأثر بالقوى الأيكولوجية من السيادة والتعاقب، وكذلك يتأثر بالمراحل المتتابعة للاحتكاك وهى المنافسة والصراع والتكيف ثم أخيراً تمثل الثقافة، وهذه المراحل المتتابعة من الاحتكاك تعمل أيضاً عند مستوى الوحدات الصغرى من خلال مفهوم الفرد عن ذاته.

ويلاحظ أن المراحل المتتابعة عند بارك واسعة جداً وعامة جداً حتى أنها تجعل فائدتها واستخدامها النظرى والتطبيقى مستحيل، إذ أنه من المصعب جداً أن نفرق تجريبياً بين كل مرحلة.

كما أن مرحلة التمثيل عند بارك فجة وغامضة، ويمكن أن يقال إنها تركز حول الذات فى تأكيدها على تمثل الأقليات فى ثقافة الصفوة.

***

فلفريدو باريتو
VILFAREDO PARETO

(١٨٤٨- ١٩٢٣)

ولد باريتو ابنا لأحد النبلاء الإيطاليين وأم فرنسية، ولهذا كان يتقن الإيطالية والفرنسية. ولقد تعلم الاقتصاد والعلوم والفلسفة، وكان تاريخ حياته العلمية فريدًا فقد تقلب فى وظائف متباينة كل التباين فمن مهندس استشارى بالسكة الحديد، إلى مراقب مناجم الحديد، إلى أستاذ للاقتصاد فى جامعة لوزان، إلى عضو فى مجلس الشيوخ الإيطالى. وإلى جانب ذلك شارك فى الحياة السياسية، فمارس ألوان الصراع السياسى فى إيطاليا والكفاح من أجل الحرية والوحدة، وأيضًا الصراع بين أحزاب اليسار واليمين. وكان شارحًا لأفكار مكيافيللى والوضعية والدارونية الاجتماعية. ومن أهم منشوراته: دروس فى الاقتصاد السياسى (٩٦- ١٨٩٧) Course in Political Economics، والنظم الاشتراكية (١٩٠١) The Socialist Systems، ومقدمة عامة فى علم الاجتماع (١٩١٥) General Treatise on Sociology.

أهدافه:

كان هدف باريتو الرئيسى تحديد وتفسير القوى الحقيقية التى تحدد حالة التوازن فى النسق الاجتماعى، بمعنى البحث عن العوامل التى تعمل فى النسق والعناصر التى ترد عليها من النسق وبذلك يتحقق التوازن. هذه النظرة تتضمن تركيزًا على الديناميكيات الاجتماعية للصراع والتغير، وتغض النظر كثيرًا عن المواقف الاستاتيكية. ويقع وراء الصراع والتغير عناصر أولية تتعلق بالوحدات الصغرى وتتكون من حالات نفسية، وعقلية اجتماعية Social rationales التى بدورها تحدد الفعل الاجتماعى والعمليات الاجتماعية: فنظريته معيارية واستقرائية، وذات أساس طبيعى يظهر فيه فكرة الرواسب residues القائمة على الطبيعة البشرية، كعناصر أولية فى فهم المجتمع.

نظريته

الافتـراض الرئيسى عنـد باريتو هو تقـسيمـه النشاط الاجـتمـاعى إلى نمطين كبيرين:

١- منطقى Logical الذى فيه النهـاية الموضوعية Objective end والغرض الذاتى Subjective Porpose متطابقـان، بمعنى أن يستطيع الفـاعل أن يحقق غـرضه الذاتى بأسلوب مـوضوعى. وهذا يتطلب أن تكون الوسائـل لتحقـيق الهدف أيضًا موضوعية فى إطار أفضل معرفة متاحة.

٢- النمط الثانى الذى فيه تختلف النهاية الموضوعية عن الغرض الذاتى.

واعتبر باريتـو أن معظم كتلة النشاط الاجتماعى تتكون من الأفـعال اللامنطقية nonlogic actions المؤسـسة على حـالات نفسـية (عـواطف Sentiments)، وقائمـة على الطبيعـة البشرية مع غـريزة التآلف Instinct for combination، بمعنى غريزة التوليف بـين الأشياء والأفكار وتكوين رواسب residues أو قوى اجتماعية.

واعتبر أن الأفكار اللامنطقية هى أسس لعدد من أنماط القوى أو الرواسب التى تحدد التوازن الاجتماعى. وتنقسم هذه الرواسب إلى ستة فئات:

١- غريزة التـآلف وهى تعمل على اندماج الأنواع المتـشابهة، والأشـياء والأفكار وتكون رواسب توجه الفعل الإنسانى.

٢- الجمـاعات الدائـمة Group Persistences مثل الأسـرة والعلاقـات الأسرية، والميل إلى المحافظة على هذه التجمعات.

٣- الحاجة إلى التعبير عن المشاعر بالأفعـال الخارجية. مثل الصلاة أو التصفيق عند الاستحسان.

٤- الرواسب المتـصلة بالاتتناس بالجمـاعات البـشرية Residues connected with Sociabilty وهى تتعلق بالرغبـة فى التطابق مع الجماعة والامتثـال لتقاليدها، ويدخل ضمنها الشفقة، والقسوة والتضحية بالنفس.

٥- رواسب تكامل الفرد مع أقرانه، وتتعلق بالمساواة والتكامل، أى محافظة الفرد على عدم اغتصاب حقوقه مما يخفض من مكانته عن أقرانه، أو يخفض من قوميته بين القوميات الأخرى.

٦- رواسب الجنس، وهى غريزة عند الإنسان.

واعتبر باريتو أن هذه الرواسب أو القوى الاجتماعية تحدد الفعل الاجتماعى، والتوازن الاجتماعى.

واعتبر أن الرواسب يقويها اجتماعيّاً مشتقاتها التى ما هى إلا تبريرات عقلية للرواسب، فالمشتقات وظيفتها إفضاء المعقولية أو الرشد الاجتماعى Societal rationalizations، فإذا كانت الرواسب وراء السلوك الإنسانى غير المنطقى فى معظمه، فإن الحاجة الإنسانية إلى المنطق أى إلى إضفاء المعقولية على أفعالهم تدفعهم إلى هذه التبريرات أى إلى المشتقات drivations.

ولقد صنف باريتو المشتقات إلى فئات:

١- التأكيد assertion، أى ذكر حقائق واقعية أو متخيلة لتبرير العقل.

٢- السلطة authority الاعتماد على مصادر لها هيبة وسلطة مثل أى نوع من العادات له سلطة لتبرير الأفعال من خلال ما تقوله هذه السلطة.

٣- التطابق مع المشاعر والمبادئ تبرير الأفعال لأنها تسر الآخرين أو تواسى الآخرين، أو تحقق مصالح الآخرين.

٤- براهين لفظية والتى تعنى استخدام الألفاظ البلاغية أو الأمثلة الشعبية.

وهكذا تعمل الرواسب فى الواقع الاجتماعى مستندة إلى مشتقاتها أو تبريرها أو ترشيدها المعيارى.

واعتبر باريتو أن هذه الرواسب تتوزع فى المجتمع خلال البناء الطبقى، وتعمل من أجل التوازن والتساند. وبما أن توزيع هذه الرواسب يتغير، وبصفة خاصة الفئتين:

١- غريزة التآلف. ٢- الجماعات الدائمة.

على أى حال يتغير هذا التوازن فى شكل من الدوران بين الصفوة الحاكمة، والصفوة غير الحاكمة. التغير فى توزيع الرواسب عند الصفوة الحاكمة بأن تمتص مزيدا من العناصر المتدهورة، والصفوة غير الحاكمة تنمى بينها عناصر أكثر من النوع المتفوق، ذلك بصنع الثورة، وتؤدى إلى الدوران بين نوعين من الصفوة الحاكمة وتلك هى الأسود التى تحركها فئة الجماعات الدائمة، أى التى تتميز بالمحافظة، والذئاب التى تحركها غريزة التآلف، وتصبح دورة الأسود والذئاب مستمرة ودائمة، وتعتمد على تغير توزيع فئات الرواسب(١ ، ٢).

ذلك يعنى أن الدورة عبارة عن الصفوة الحاكمة يغريها الحكم على امتصاص عناصر منحطة فتظهر عيوبها وتهتز مكانتها، بينما جماعة الذئاب تمتص عناصر مرتفعة فترتفع إلى صفوة حاكمة، وبدورها يغريها الحكم فتمتص عناصر منحطة وليست بالضرورة من النوع الذى يؤدى إلى تدهور الأسود، لأن كل منهما تختلف رواسبه عن الآخر. وهكذا يكون المجتمع فى توازن ديناميكى معتمداً على تغير توزيع الرواسب، التى تؤدى إلى استمرار المنافسة والصراع، وبالتالى دورة الصفوة.

ويلاحظ هنا أن باريتو قسم الصفوة إلى حاكمة وغير حاكمة، ومن ثَمَّ فمجموع الشعب ليس له وجود فى هذه الدورة وجعل منه مجرد تابع، يستغله كل فريق. بل دعى باريتو الصفوة أن تحافظ على ما فيه الجماهير من جهل، وأن تستغل الخرافات التى تسود بين الجماهير الجاهلة، ولكن يجب أن لا تصدق الصفوة هذه الخرافات، بل أن تستغلها فقط فى التغرير بالجماهير.

وهكذا ترى أن نظرية باريتو تقدم لنا نمطين من الصفوة الاجتماعية الأسود والذئاب. الأسود تسود بواسطة الراسب رقم (٢) الجماعات الدائمة فلديهم مشاعر قوية بالولاء للتجمعات الدائمة مثل الأسرة والقبيلة والمدينة والأمة. وتتمثل فى الصفوة العسكرية، وتركز على الولاء والتماسك والوطنية والمحافظة وتعتبرها القيم الأساسية، وهى مستعدة ومجهزة لاستخدام القوة عند الضرورة، وفى ظلهم يحدث الثبات للمجتمع أى تسود نزعة المحافظة.

أما الذئـاب فهم عكس ذلك يتـميزون بالراسـب الخاص بغريزة التـآلف، وهم غالبًا رجال أعمال وماليين ويتميزون بالمغامرة، فيحدث التغير السريع فى المجتمع، فلديهم القدرة على النمو المتزايد للإمبراطورية السياسية.

ومن ثَمَّ تعتبـر نظرية باريتو طبيعيـة (الغرائز) نسقية (المجتـمع) ديناميكية (دورة الصفوة) ذات اتجاه يميل نحو الصراع، وتختلف عن نظريات ماركس وبارك، وفى أنها طبقية أكثر منها اجتمـاعية، والاختلاف الرئيسى يكمن فى اعتباره أن الظواهر المعيارية تحدد الظواهر المادية وليس العكس كما عند ماركس.

***

ثورشتين فبلن
THORSTEIN VEBLEN
(١٨٥٧ - ١٩٢٩)

ولد فبلن فى واشنجتن Washington، عن أبوين من النرويجيين المهاجرين. وتعلم فى كلية كارلتون Carlton الكلاسيكيات والفلسفة والاقتصاد. ولقد كانت حياته العملية شديدة التنوع، فإلى جانب حياته الأكاديمية باشر كثيرًا من أعمال الخدمة المدنية. ويلاحظ أنه فى طفولته نشأ منتميا إلى طبقة منخفضة بحكم أنه ابن لمهاجرين جاءا إلى الولايات المتحدة سعيًا وراء حياة أفضل، كما أنه فى فترة حياته الأولى عاش تحت وطأة التوسع الصناعى الأمريكى فكانت حياته القلقة سببًا فى دفعه إلى المشاركة فى الحياة السياسية.

ولقد ركز فبلن فى دراساته على العلاقة المتبادلة بين الاقتصاد والتطور الاجتماعى، وكان فى ذلك متأثرًا بالنظريات التطورية والنظريات العملية Pragmatism، ولهذا يعتبر تطوريًا عمليًا. وأهم مؤلفاته هى نظرية الطبقة المترفة (١٨٩٩) The Theory of the Leisure Class ونظرية مشاريع الأعمال (١٩٠٤) The Theory of the Business Enterprise والغريزة التصنيعية (١٩١٤) The Instinst of Workmanship.

أهدافه:

كان هدف فبلن الرئيسى هو دراسة تطور البشرية باستخدام الأسباب الاجتماعية أكثر من أسباب الاقتصاد البحت الكلاسيكى. وتبعًا لذلك فقد وضع نظرية عن التطور التكنولوجى متتبعًا تأثير غريزة الإنسان الاقتصادية فى العمليات الاجتماعية مثل المنافسة والتغير الاجتماعى. ومثل ما فعل بارتو. استخدم العوامل الطبيعية فى وضع نظرية استقرائية عن الصراع الاجتماعى، ولكن يختلف فبلن عن بارتو، فى أن فبلن ركز على الاقتصادية بينما بارتو ركز على العوامل المعيارية. ولهذا كان تركيز فبلن على دراسة الآثار الاجتماعية للتكنولوجيا،

مستخدمًا دراسة علمية من وجهة نظر الشك skeptic. وكانت معظم مادة البحث تاريخيـة واقتصادية، واسـتعان بعلم الآثار إذ أنه كان يـهتم بتتبع عـمليات التطور التكنولوجى خلال مـراحلها العظمى فى عدد مـختلف من المجتـمعات فهـو كان معتمدًا على الاستقراء التاريخى.

نظريته فى التطور الاجتماعى

كان افتراضه الرئيسى أن الطبيعة البشرية تتكون من ثلاث سمات:

١- رابطة أبوية Parental bent.

٢- غريزة الصناعة أو الكفاءة العملية

The instinct of workmanship or Practical efficiency.

٣- فضول Idle curiosity.

واعتبر أن هذه السـمات الثلاث تمثل أسس النظم الاجتماعية بل اعـتبر فبلن أن الفضول الناقل لـلحركة هو الذى يؤدى إلى التغيـر التكنولوجى وأنه المحرك الأول فى التطور الاجتماعى والتغير الاجتماعى.

واعتبر أن عمليـة التطور الاجتماعى تبتدئ بتغيـر فى القيم الإنسانية التى تؤدى إلى التطور التكنولوجى. والتكنولوجيا بدورها تؤدى إلى تغير فى القيم والأفكار. وهكذا اعتبر أن عملية الحياة الاقـتصادية تؤدى إلى تراكم عمليات تكييف الوسائل للغايات، وذلك بصفة دائمة ومستمرة.

وجـعل فبلـن أساس نظريتـه فكرة المصـالح الاقـتصـادية economic interest الإنسانية التى تفسر عملية النمو الثقافى cultural growth وتفسر أيضًا توالى تراكم العناصر الثـقافيـة فى النظم الاقتصـادية. ولهذا يمكن اعتـبار فبلن من أصـحاب نظريات الحتمية الاقتصادية Economic determinizm.

واعتبر فـبلن أنه فى داخل عملية النمو الثقافى يكون التطور عضـوى ومتساند، وكل مرحلة تبرز وتمثل توازنًا تكنولوجيا، الذى فـيه يكون للأدوار المتبادلة للأجزاء خصائص التأييـد المتبادل والتساند، حتى أن أى إضـافة أو نقص لجزء جوهرى فى

أى نقطة يؤدى إلى الارتباك سواء كان قليلا أو كثيراً، وذلك فى كل جوانب المنطقة الحادث فيها الإضافة أو النقص. وهنا يبدو واضحًا أن فبلن فى هذه النقطة يميل إلى الاتجاه التكنولوجى الوظيفى، إذ يستخدم فكرة التساند والاعتماد المتبادل لأجزاء الكل، وتلك أفكار أصحاب المدرسة الوظيفية.

وأيضًا اعتبر أن التطور ما هو إلا تراكم وعمليات كرد فعل لمشاكل المواد المتغيرة، ويمثل التطور تكيفًا مختاراً وتنافسياً مع البيئة.

واعتبر أن هذه العملية التطورية تتقدم خلال عدد من المراحل المتمايزة:

١- يبتدأ المجتمع بمرحلة التوحش السلمية وهى تمثل الفترة الأولية والأكثر طبيعية للوجود الإنسانى. وفى هذه المرحلة كان الناس مرتبطين عن قرب بالطبيعة، وهناك قليل جداً من تقسيم العمل، وكانت غريزة الصنعة تعمل فى حرية تامة، وكان الدين المحور الرئيسى للمجتمع، وكان هناك أعلى مراحل التضامن الاجتماعى والجمعية.

٢- ومع النمو الاقتصادى جاءت مرحلة البربرية المنخفضة. وفى هذه الفترة ابتدأ تقسيم العمل، وانبعث تمايز بغيض تبعًا لظهور الملكية الخاصة.

٣- وفى المرحلة البربرية الأعلى، كانت أكثر سلبية، إذ زادت الثروة والملكية الخاصة، وظهرت طبقة المترفين، كما ظهرت طبقة الصفوة من الاحتكاريين، وهكذا تولدت الأسس الاجتماعية للرأسمالية.

٤- وفى المرحلة الرابعة والتى تعتبر أكثر المراحل سلبية، إذ وصل فيها المجتمع إلى المرحلة المالية، والغرائز الطبيعية وصلت إلى أكثر مراحلها انحرافًا، وأصبح الترف والاستهلاك واضحًا للعيان، ويسود النظام الاقتصادى التشهير والحرب، والعلاقات الاجتماعية آلية، ولا شخصية، وأصبحت القيم شديدة المادية، والدوافع سواء عند مستوى الأفراد أو النظم أساسها المكاسب الفردية، ومن ثَمَّ تؤدى هذه الحالة إلى أن يسود المجتمع صفوة من رجال الأعمال، وهكذا تصل الرأسمالية والبيروقراطية إلى أعلى مراحلها، وهى أعلى مراحل اللاطبيعية unnatural.

فى هذه المرحلة تكون سمات الطبيعة البشرية قد تشوهت وانحرفت تمامًا. وفى هذه الحالة يقود الفضول المحرك إلى تغييرات تكنولوجية التى تؤدى إلى المنافسة والصراع ونسق اقتصادى وطبقة استغلاليين.

وأخيرًا كان يهتم فبلن بالعمليات الاجتماعية المتبادلة مثل التثقيف acculturation والاستعارة الثقافية cultural browing، وتهجين الأفكار corssbreeding of ideas وبهذا الخصوص كان فبلن يرى أن بعض المجتمعات أكثر قدرة من الأخرى فى تكييف الأفكار الخارجية لأغراضهم الخاصة، ومن ثمَّ يكون لديهم مزيدًا من القدرة على الإسراع فى تطورهم التكنولوجى.

وهكذا يمكن القول أن نظرية فبلن تمثل رد فعل عملى لآثار التصنيع خلال فترة حياته أى فى عصره. ولذلك أنشأ نظرية عن الصراع الاجتماعى طبيعية (استخدم فيها العوامل الطبيعية) وتطورية وحتمية اقتصادية، والعملية الرئيسية فى هذه النظرية تتكون من التطور التكنولوجى والاستعارة الثقافية.

***

نظريات الصراع المعاصرة

الظروف الاجتماعية

بينما تسود النزعة الوظيفية البنائية معظم النظريات المعاصرة فى علم الاجتماع إلا أن نظريات الصراع المبكرة والتى تعتبر جزءاً من علم الاجتماع استمرت فى إظهار انعكاساتها على نظريات علم الاجتماع، وخاصة حول صراع الطبقات المعاصر وما أفرزته التأثيرات السلبية للتصنيع والتحضر من مشاكل فى داخل المجتمع الحديث.

وهكذا نرى أن نظريات الصراع الحديثة المعاصرة تمثل رد فعل جماعة معينة من المثقفين لعدد من الظروف الخاصة، تتضمن هذه الظروف المستوى العالى من الصراع الاجتماعى بصفة عامة وصراع الأجناس بصفة خاصة كما فى الولايات المتحدة ووسط وجنوب أفريقيا، وكذلك معالجة التأثيرات الضاغطة والكابتة للبيروقراطية bureaucratization والتصنيع industrialization، وتطبيق الاتجاهات الإصلاحية لمعالجة المشاكل الحديثة للتصنيع والتحضر. وعلى أى حال فهى تعتبر محاولة لتطبيق تقدمية القرن الثامن عشر فى حل مشاكل المجتمع الحديث، فهذه النظريات المعاصرة تمثل استخداماً لنموذج الصراع التقليدى (المبكر) لمشاكل المجتمع المعاصر.

وتعتبر هذه النظريات المجتمع كنسق، نسق فى حالة تطور يتكون من جماعات تتنافس من أجل المصادر وتحكمها صفوة سائدة. وتحدد مختلف الظروف الاجتماعية والديموجرافية مدى كثافة واستمرار وشكل الصراع الاجتماعى. بينما البناء الاجتماعى يعبر عن نمط السيادة الموجود فى المجتمع فى مرحلة معينة من تطوره.

وتستخدم نظريات الصراع المعاصرة هذا النموذج للمجتمع الحديث برسم الظروف الاجتماعية التى تحدد الصراع، والبناء النظامى للسيادة وتأثيرات الصراع، وكذلك العملية عند المستوى السسيوسيكولوجى. ومن ثمَّ إلى مدى بعيد يمكن

القول إنها تشبه نظريات الصراع التقليدية فى أساسها ولكنها نسقية فى شكلها، ولهذا فهى تشبه البنائية الوظيفية فى الشكل ولكنها تختلف تمامًا فى محتواها الأيديولوجى.

وسوف نعرض نمطين من نظريات الصراع المعاصرة:

الأول: النمط النسقى: الذى يركز على العوامل الاجتماعية التى تحدد عملية الصراع.

الثانى: النمط الطبيعى: الذى يصف المحتوى اللااجتماعى والديموجرافى للصراع.

ويمثل كل من داهرندروف Dahrendorf وميلز Mills النمط الأول، بينما كورز Coser فى اعتماده على سمل Simmel والمناظرة العضوية، وريسمان Riesman فى تركيزه على العوامل الديموجرافية يمثلان النمط الثانى.

ويلاحظ أن مثل هذا التصنيف ما هو إلامسألة درجة فقط، وبصفة خاصة فى نظريات الصراع المعاصرة حيث لا يوجد التفسير الطبيعى الخالص، إنما الاختلافات هنا تتعلق بنوع العوامل التى ركز عليها المنظر كعوامل أولية من أجل فهم الصراع الاجتماعى.

***

تشارلز رايت ميلز
G. WRIGHT MILLS
(١٩١٦- ١٩٦٢)

حصـل ميلز على شـهادة الدكـتوراه من جـامعـة وسكنسن Wisconsin سنة ١٩٤١، وعمل مع هايز جيرث Hans Gerth وهو عالم اجتماع ألمانى وكذلك مع هوارد بيكر Heward Beker. وقد ترجم مع زميله جبرث أهم أعمال ماكس فبر. وفى سنة ١٩٤٦ عمل أسـتاذًا للاجتماع فى جـامعة كولومـبيا Colombia. وكان موضع اهتـمام مـيلز دراسة الصراع أنماط التطـرف. وقد اشتـهر بنقده التـحليلى لرأسمالية المجتمع الأمريكى.

وتضمنت أعـماله الرئيـسية مـؤلفه اليـاقات البيـضاء (١٩٥١) White Collar ومؤلفه قـوة الصفوة (١٩٥٦) Power Elite. وكذلك كتاب الخيـال السسيولوجى (١٩٥٩) Sociological Imagination.

أهدافه:

كان اهتمام ميلز يتركز حول تنميـة ما أطلق عليه اصطلاح الخيال السسيولوجى من أجل فهم المنظر التاريـخى، وذلك فى مصطلحات من معانى (الحـياة الداخلية والمسيرة الحياتية (الخارجية) لأفراد متباينين)[1].

وتتضـمن نتائج هذا النمط من الفـهم الانشغال والاهتـمام بالمواضيع العـامة فى المجتـمع، ووعيا وانتـباهًا أكبـر للعلاقات بـين التاريخ والبيـوجرافى biography، وكذلك الوعى بفكرة البناء الاجتماعى، وأيضًا الفهم المرتب للناس والمجتمعات[2].

ولهذا يسأل ميلز ثلاثة أنواع من الأسئلة:

١- ما هو بناء هذا المجتمع المعين ككل؟

---

(1) Mills: Sociological Imagination" Grove Press, New York, 1961, P.5.

(2) Ibid.: P. 7.

٢- أين يقف هذا المجتمع فى المجتمع الإنسانى؟

٣- أى النوعيات من الرجال والنساء السائدة فى هذا المجتمع وفى هذه الفترة؟[١].

وتعطى هذه النظرة اهتمامًا كبيرًا، بل وتركز على الفهم المقارن للبناءات الاجتماعية التى تظهر والتى توجد الآن فى تاريخ العالم[٢].

وفى دراسته هذه حاول استخدام هذا المنظور فى الفهم السسيولوجى للقوة والتدرج الاجتماعى فى المجتمع الأمريكى المعاصر من أجل (استيعاب ثم إلى مدى بعيد يمكن القول أنها تشبه نظريات الصراع التقليدية فى أساسها ما يجرى فى العالم)[٣]. وهكذا كانت محاولته إلى جانب أنها نظرية فهى أيضًا تطبيقية عملية.

ومن أجل هذا استخدم ميلز الأفكار المبكرة التي ولدها ماركس وفبر، وصنع ميلز تحليلاً لاتجاه القهر للرأسمالية الأمريكية الحديثة، والذى تظهر فيه تأثيرات الترشيد المتزايد وتوالى المايد من التركيز ، والصفوة، والضبط، واغتراب الأفراد.

نظريته

وضع ميلز عدة افتراضات تدور حول طبيعة الحقيقة الاجتماعية والتأثيرات الاجتماعية للرأسمالية الصناعية (industrial capitalism).

افترض ميلز أن الحقيقة الاجتماعية تمثل توليفة من البيوجرافى والتاريخ. وتقاطعاتها فى داخل البناءات الاجتماعية[٤]، وهو يعنى بذلك (استيعاب التاريخ والبيوجرافى والعلاقة بين الاثنين)[٥]. ويلاحظ أن هذه الوضعية هى ماكروسكوبية macroscopic وأيضًا ميكروسكوبية microscopic (ذلك لأنها تأخذ فى اعتبارها أن تقلب خبرات الأفراد اليومية فى الإطار المرجعى لفهم المجتمع الحديث)[٦].

---

(1) Ibid.: P. 7.
(2) Ibid.: P.134.
(3) Ibid.: P. 7.
(4) Ibid.: P.134.
(5) Ibid.: P. 6.
(6) Mills. "Whiet Collar, The American Middle Classes" Oxford Universty Press, New York, 1956. P. XX.

وافترض ميلز أن التأثير الرئيسى للترشيد هو زيادة فى التركز centralization، وما يتبعه من نزعة الصفوة elite، وفى مؤلفه قوة الصفوة، وصف ميلز هذه الصفوة على أنها تتركب من قمة الشريحة المنفذة للمشاريع الكبرى والنظام السياسى والمؤسسة الحربية. ويمتلك أعضاء هذه الصفوة صفات معينة متشابهة وأصول اجتماعية متشابهة، وقابلية تبادل الأدوار، وقدرة العمل فى سرية، كما تمتلك أيضًا مقام ومكانة وثقة فى نفسها عالية جدآ، ولكن ينكرون ويخفون قوتهم، وهكذا يتخذ المجتمع تحت ضبطهم شكلاً معينًا عبارة عن

١- الصفوة.

٢- مستويات متوسطة من القوة (شبه منظمات ميتة).

٣- وعند مستوى القاع يوجد جمهرة المجتمع ويمثلون سوق مضبوطة تمامًا[١].

وتتكون نتائج المزيد من الترشيد من مستويات عالية من تركيز النظم وضبط الصفوة.

واعتبر ميلز أن الترشيد يؤثر فى البناء المهنى، وتنهار المشاريع الفردية بحدة، وفى الوقت نفسه تتزايد بحدة نسبة الموظفين المستخدمين أى الذين يعتمدون فى حياتهم على وظائفهم. وهذا بدوره يؤدى إلى زوال الأفراد المستقلين ونشأة فكرة الرجل الصغير الضئيل فى العقل الأمريكى[٢]. وفى هذه الحالة يستخدم مزيد من الضبط لكل مستويات البناء الاجتماعى.

واعتبر ميلز أن النتائج التالية لهذه العمليات عند المستوى الفردى، تتكون من زوال الحرية الفردية، وزيادة فى الاغتراب alienation، والتى ترزح فيها الطبقة الوسطى بصفة خاصة تحت وطأة عدم الراحة والقلق، وتعانى من الاغتراب عن النفس والعمل، وتحرم من الترشيد الفردى حيث لا يملك الفرد حرية توجيه نفسه، ذلك كله يؤدى إلى فقد الشعور السياسى.

---

(1) Mills: The "Power Elite" Oxford University Press Niw York, 1956, Chap. 1.

(2) White Coller: op. cit., P. XII.

وهكذا يؤدى الترشيد إلى ضبط سيكولوجى وضبط نظامى، والذى ينجم عنه زوال الحرية عند كل مستويات المجتمع.

وفى الحقيقة يمكن النظر إلى مثل هذه الدراسة على أنها تمثل انعكاسات لأيديولوجية شخصية أكثر منها علم اجتماع موضوعى.

ويؤخذ عليه أنه ركز على النتائج السلبية للترشيد إلى حد أنه أبعد أى وظائف إيجابية للترشيد.

كما أن منهجه يكاد يكون بعيداً عن اعتباره علمياً فهو يميل إلى الوصف، كما أن بياناته غير مرتبة. ورغم هذا فإن ميلز يظل أحد أهم منظرى نظريات الصراع فى علم الاجتماع المعاصر. ويقدم إغراءات لمثل هذا النمط من علم الاجتماع.

***

رالف داهرندورف

RALF DAHRENDORF

(١٩٢٩ - ٢٠٠٩)

تعلم داهرندورف أولا فى جامعة هامبورج حيث نال شهادته الجامعية الأولى ١٩٥٢ ثم نال الدكتوراه من جامعة لندن ١٩٥٦ وخلال حياته الجامعية شغل كراسى علم الاجتماع فى عدد من جامعات ألمانيا، كما عمل فى مدرسة لندن للاقتصاد ثم فى جامعة استانفورد. ومن مؤلفاته الرئيسية بالإنجليزية الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى وصدر فى ١٩٥٩[١].

أهدافه:

فى كتاب داهرندورف «الطبقة والصراع الطبقى فى المجتمع الصناعى»، اهتم داهرندورف بالحقيقة المحيرة وهى (أن البناءات الاجتماعية. . لديها القدرة على أن تنتج فى داخل ذاتها عناصر الإحلال بالقوة والتغيير)[٢]. وتبعا لذلك حاول داهرندورف أن يعرض كيف ينشغل بل وتستغرق الجماعات والعمليات فى هذه الظاهرة (التى يمكن أن تحقق نظريا وأن تحلل أمبيريقيا)[٣]. ولقد حاول داهرندورف وضع نظرية عامة عن صراع الطبقات والتغير الاجتماعى مستفيدا من نظريات القهر.

ولتحقيق هذا الهدف تقدم إلى اختبار النظرية الماركسية عن الطبقات فنقدها، ثم عمد إلى التعامل مع مشاكلها باختبار الصراع الصناعى والسياسى فى المجتمع الصناعى الحديث.

وعند إنشاء نظريته الخاصة به عن الصراع الطبقى استخدام أيضًا مفاهيم فبر Weber عن السلطة authority، واتحادات التعاون الإجبارية ولهذا يمكن النظر إلى

(1) Dahrendorf, R.: "Class and Class Conflict in industrial Society", Stanfod University Press, Stanford, Calif 1959.

(2) Ibid.: P. VIII.

(3) Ibid.: P. VIII.

منهج داهرندورف على أنه مزج بين أفكار ماركس وفبر ثم طبقها على الصراع الطبقى فى المجتمع الحديث.

نظريته

أقام داهرندورف نظريته على أساس نظرية القهر التى تفترض وجود التغير الاجتماعى والصراع الاجتماعى والقهر، (ومساهمة كل عنصر فى المجتمع فى تفككه وتغيره)[١]. وتعتبر هذه الافتراضات أسس نظرية الصراع فى المجتمع.

وبقبول داهرندورف لهذا النموذج عن الحقيقة الاجتماعية، تقدم إلى افتراض أن الاتحادات associations مجبرة على التعاون إذ أن تعاونها يحدث تحت وطأة الأوامر، وهو يعنى بذلك أن أعضاء هذه الاتحادات يشكلون منظمات رسمية ومن ثَمَّ فهم خاضعون لعلاقات السلطة. والعاملان فى بناء هذه الاتحادات هما تجمعين من المراكز، وهما السيادة domination والخضوع subjection[٢]، وهو يعنى أن جماعة تملك السلطة فهى تأمر، وجماعة لا تملك سلطة فهى مأمورة.

ويمتلك كل تجمع من هذين التجمعين مصالح كامنة Latant مشتركة، وهو يعنى أن كل جماعة لديها توجيهات لا شعورية منغرسة فى أوضاع اجتماعية معينة والتى تمثل الأسس لشبه جماعات quasi- groups جماعات غير منظمة يشارك أعضاؤها فى مصالح مشتركة كامنة[٣].

هذه المصالح الكامنة قد تفصح عن نفسها فى شكل مصالح ظاهرة manifest، ويعنى داهرندورف تحول المصالح الكامنة اللاشعورية إلى اتجاهات ظاهرة واعية شعورية، والتى تواجه وتتعارض مع مصالح الاتحادات الأخرى. ومن ثَمَّ تصبح تلك الشبه جماعات طبقات اجتماعية، ويعنى داهرندورف اتحادات تشترك فى مصالح ظاهرة وكامنة ولها علاقة ببناء السلطة فى الاتحادات المتعاونة بالأمر[٤].

---

(1) Ibid.: P. 162.

(2) Ibid.: P. 237- 238.

(3) Ibid.: p. 237- 238.

(4) Ibid.: P. 238- 239.

ذلك الإعلان والإفصاح عن المصالح يعتمد على حضور عدد من عوامل معينة أو (ظروف التنظيم)، والظروف الفنية ويعنى بها هيئة التنظيم وإجراءات التنظيم، والظروف السياسية ويعنى بها الحرية أو التحزب أو التعصب، والظروف الاجتماعية ويعنى بها الاتصالات communication، والظروف السيكولوجية ويعنى بها استدماج أدوار المصالح -أى مدى تشرب أعضاء الجماعة لأدوارها[١].

فإذا وجدت هذه الظروف فإن كثافة وحدة الصراع الطبقى الناتج تتوقف على (إلى أى مدى وجدت هذه الظروف)، ويعنى مدى اكتمال وجودها أو أنها ما زالت فى دور التكوين، ويعنى المدى الذى فيه صراع الطبقات والجماعات قد ظهر على السطح، ومدى توزيع السلطة والمكافآت، ومدى انفتاح النسق الطبقى[٢].

وأخيراً يتوقف انفجار الصراع الطبقي وعنفه على مدى تواجد الظروف السابق ذكرها، وإلى مدى تحول الحرمان المطلق للحرمان النسبى ويعنى بها تحرر أعضاء الجماعة أو الطبقة من الإذعان والخضوع المطلق وتحولهم إلى خضوع نسبى. وكذلك يتوقف الانفجار والعنف على المدى الذى وصل إليه ترتيب وتنظيم الصراع[٣].

وهكذا يمكن القول أن داهرندورف أخذ بنظرية القهر، واعتبر أن جماعات المجتمع تتعاون ويتم بناؤها مجبرة على ذلك بواسطة المصالح الكامنة. وتحت ظل ظروف اجتماعية معينة تفصح هذه المصالح الكامنة عن نفسها فى شكل مصالح ظاهرة، تتعارض هذه المصالح بعضها مع البعض الآخر، فيتلو ذلك الصراع الطبقى، ويتوقف كل من كثافة وعنف هذا الصراع على ظروف موقفية معينة.

وبما أن المجتمع ما هو إلا عبارة عن مجموعة من الاتحادات المتنافسة والمتعاونة إجبارياً والتى تبنيها المصالح ويحيط بها ظروف اجتماعية، فإن مثل هذا المجتمع يصبح مجهزاً بمنبع للديناميكية والتغير الاجتماعى المستمر.

---

(1) Ibid.: P. 239.

(2) Ibid.: P. 239.

(3) Ibid. : P. 239.

ويلاحظ أن محاولة داهرندورف لتركيب أفكار ماركس وفـبر تعتبر وصلة هامة بين نظريات الصراع ونظريات السلوكيين الاجتماعـيين، وخاصة أنها أيضًا تتعامل مع مواضيع التناقض بين هاتيـن النظريتين. ولقد حاول فى نظريته تفـسير ضرورة ولا ضرورة الصراع الطبقى، وانبعاث وعـدم انبعاث الصراع الطبقى، وتلك كانت دراسة محكمة توضح مدى تعقد الصراع فى المجتمع الصناعى.

ولكن يؤخذ على نظرية داهرندورف أن تعريفه لمفاهيمه الرئيسية المتعلقة بالطبقة والصراع الطبـقى غيـر واضحة، ويعـترف داهرندورف أن نظريتـه فى الصراع وإن كانت حديثة إلا أنها غير كاملة وتحتاج إلى مزيد من التطبيقات والتدقيق.

***

تلخيص النمط النسقى

لنظريات الصراع المعاصرة

هذا النوع من النظريات يهتم بالظروف الاجتماعية التى فى ظلها ينبعث الصراع، كما تهتم بالخواص السسيولوجية للسيادة فى المراحل المختلفة للتطور، مثل هذه النظرية تقدم محاولة هامة لعمل تحليل ديناميكى للصراع والسيادة فى المجتمعات المعاصرة، مستخدمة فى ذلك الأفكار المبكرة عن الصراع.

فنرى عند مليز وداهرندورف:

١- كل منهما كان متأثرًا بنظريات الصراع المبكرة وخاصة أعمال ماركس وفبر.

٢- اهتم كل منهما بفهم الصراع والسيادة فى داخل المجتمع الصناعى الحديث.

٣- كان كل منهما يعتبر أن القوة والسيادة هى بؤرة البناء الاجتماعى.

٤- استخدم كل منهما الاستقراء التاريخى.

٥- استخدم كل منهما تركيبات ماركس وفبر لتحليل الصراع والسيادة.

***

دافيد ريسمان
DAVID RIESMAN
(١٩٠٩-٢٠٠٢)

ولد دافيد ريسمان فى سنة ١٩٠٩ وتعلم فى جامعة هارفارد Harvard وعمل أستاذًا للقانون فى جامعة بفلو Buffalo من سنة ١٩٣٧- ١٩٤٢، ثم عمل أستاذًا للعلوم الاجتماعية فى جامعة شيكاغو، ثم انتقل إلى نفس المنصب فى جامعة هارفارد منذ سنة ١٩٥٨. واهتم بعلم اجتماع التربية ودراسة الخصائص الاجتماعية، ومن أهم ما نشره كتاب الجمهرة الوحيدة Lonely Crowed وكتاب إعادة النظر فى النزعة الفردية Individualism Reconsidered- وينصب اهتمامنا فى هذه الدراسة على ماأثاره من مسائل فى كتابه الجمهرة الوحيدة. فقد تحدث فى كتابه هذا عن التغير الديموجرافى كأساس للصراع الاجتماعى. ومن ثَمَّ فهو أسهم فى التفسير الطبيعى لنظريات الصراع المعاصرة.

أهدافه:

كان اهتمام ريسمان الرئيسى «بالأسلوب الذى به تحل تدريجياً خاصية اجتماعية مختلفة تمامًا محل خاصية كانت سائدة فى أمريكا فى القرن التاسع عشر»(١).

ومن ثَمَّ فبؤرة اهتمامه هو التغير الاجتماعى فى النمط السائد من الخصائص الاجتماعية. وللوصول إلى هذا الهدف، تضمنت أساليب عمله تطبيق نظريات النمو الديموجرافى والاقتصادى فى دراسة التغير الاجتماعى وأنماط البناء الاجتماعى وأنماط الإلزام والتطابق الاجتماعى(٢).

مستخدمًا فى ذلك الاستقراء التاريخى. ومن هذا نجد أن منهجه تضمن استخدام أطر فكرية من عمل الآخرين لدراسة مشكلة الصراع الاجتماعى والتغير الاجتماعى.

---

(1) Riesman: "The Lonely Crowed" Yale Universit press, New Haven, 1961. p.3.

(2) Ibid: p. 7-9.

نظريته

ابتدأ ريسمان بتعريف الخاصية الاجتماعية Social character «بأنها ذلك الجزء من الخصــائص الذى يكون مـشترك «لــه عمومـية» بين الجـماعـات الاجتـماعـية الهامة. .وأنها نتاج خبرات هذه الجماعات»[١].

الصلة بين هذه الخـاصية والمجـتمع «يمكن أن نجـدها فى الأسلوب الذى يؤمن المجتمع به درجـة من التزام والتطابق conformity عند الأفراد الذين صنعوه»[٢]. ومن ثَمَّ تمثل الخاصية الاجتماعية إلزامًا معيارياً.

هذه النماذج من الإلزام أو التطابق بدورها تعتمد على عـوامل ديموجرافية معينة أو «تبدلات سكانية معينة فى المجتمـعات الغربية منذ العصور الوسطى»[٣]. وعلى حد تعبير ريسمان «أخذت هذه التبدلات شكل حرفـS «فى اللغات الأجنبية»[٤]. ويمثل الخط الأفقى فى قاع حرف S المجتمعات التقليدية التى كانت فيها نسب كل من المواليد والوفيات متساوية واعتبرها ريسمــان مجتمعات فى طور احتمالية النمو العالى hiegh growth potential. وعندما تبتدئ هذه الاحتمالية فى العمل يحدث نمو انتقالى transitionl يمثلة فى حرفـS الخط الرأسى والذى خلاله يكون مـعدل المواليد أعــلى من معدل الوفـيات. وفى المرحلة الثـالثة ينحـدر معدل الـنمو إلى أسفل. وهى بداية التناقص السكانى، ويمثلة الخط الأفـقى فى قمة حرفـS، والتى فيها تكون نسبة كل من المواليد والوفيات منخفضة.

وبعد أن رسم ريسمــان منحنى النمو الذى يمثله عنده حرف S، ابتدأ فى إقامة نظريته فـاعتبر «أن كل من هذه الأطـور الثلاثة المختلفة فى منـحنى السكان يشغله مجتمع يلزم أعضائه على التطابق ويصوغ خصــائصه الاجتماعية بأسلوب مختلف كل عن الآخر»[٥].

---

(1) Ibid: p. 4.
(2) Ibid: p. 5.
(3) Ibid: p. 7.
(4) Ibid: p. 7.
(5) Ibid: p. 8.

وصف ريسمان العلاقة بين الخاصية وبين النمط الاجتماعى كالآتى:

النمط الأول «نمط احتمالية النمو العالى»:

١- فى هذا النمط توجه التقاليد الناس.

٢- ومن ثَمَّ يتميز المجتمع بالسلوك التقليدى الموروث الذى عرفه وحدده نسق القرابة.

٣- تتم عملية التنشئة الاجتماعية عن طريق تمثل العادات والتقاليد فى داخل نظام اجتماعى جامد ومحكم وثابت.

٤- وتمارس الجزاءات ضبطها عن طريق شعور الفرد بالقلق والخوف من الانحراف عن التقاليد.

٥- النظام الاقتصادى مستتب ومن ثَمَّ فالأشخاص لديهم استقرار وأمان اقتصادى لاتساع رقعة الأرض المنتجة.

٦- ساد هذا النمط فى المجتمعات البدائية. والعصور الوسطى فى أوربا.

النمط الثانى «النمو الانتقالى» حيث نسبة المواليد أعلى من الوفيات:

١- يكون الناس موجهون داخلياً «أى من داخل أنفسهم» إذ أنهم قد استدمجوا أهدافهم. ولكن ليس بالضرورة أن تكون الوسائل أيضا مستدمجة.

٢- تتم عملية التنشئة الاجتماعية عن طريق غرس الخصائص الاجتماعية داخل الفرد بواسطة كبار السن.

٣- تمارس الجزاءات ضبطها عن طريق إحساس الفرد بالذنب لعدم قدرته على التطابق مع الخصائص الاجتماعية.

٤- يتميز النظام الاقتصادى بالتوسع الاستعمارى.

٥- ساد هذا النمط فى أوربا خلال العصر الفيكتورى.

النمط الثالث «بداية تناقص السكان»:

١- يوجه الناس أناس آخرون أى يكون هناك أناس يوجهون وأناس موجهون أى أناس يأمرون وأناس يأتمرون.

٢- يكون الناس غير متأكدين من أى من القيم الصواب وخاصة فيما يختص بالقيم الأساسية.

٣- ولهذا يجد الناس أنفسهم يتجهون إلى الجماعات المتشابهة معهم أى جماعة الند أى تكوين طبقة.

٤- وتمارس الجزاءات ضبطها من خلال إحساس الفرد الخوف من الانعزال.

٥- الاقتصاد يسوده التصنيع والتحضر.

٦- يوجد هذا النمط فى مجتمع الميتروبوليتان المعاصر فى أمريكا وأستراليا وأوربا.

واعتبر ريسمان أن الرابطة لهذا النموذج من التغير تكمن فى داخل العلاقة النشطة المتبادلة بين السكان والبناء الاجتماعى، بمعنى عندما يحدث التغير فى السكان وبصفة خاصة فى معدلات المواليد والوفيات، يولد المجتمع أشكالاً جديدة من الإلزام والتطابق ليؤمن إشباع الحاجات، وتبعًا لذلك يصبح الصراع الاجتماعى والأشكال المتغيرة من الإلزام والسيادة وظيفة لعوامل التغير السكانى. فمثلاً مجتمعات النمو الانتقالى يحتمل أن تكون عنيفة وتثير الاضطراب فى الأساليب المستقرة للوجود الاجتماعى التى كان فيها توجيه التقاليد هو النموذج الأساسى لتأمين الالتزام والتطابق. فعدم التوازن فى معدلات المواليد والوفيات يصنع ضغوطًا على أساليب المجتمع المعتادة، مما يستدعى ويتطلب شريحة جديدة من خصائص البناء»[1].

وهكذا يعتمد الصراع الاجتماعى والسيادة على معدلات المواليد والوفيات فى المجتمع، والتى تمثل ضغوطًا ديموجرافية معينة، والتى تؤدى إلى أشكال معينة من البناء الاجتماعى وأنماط من السيادة والإلزام والتطابق.

***

(1) Ibid: p. 14.

لويس كوزر
LEWIS COSER
(١٩١٣-٢٠٠٣)

ولد كوزر فى ألمانيا سنة ١٩١٣ وحصل على الدكتوراه من جامعة كولومبيا Columbia سنة ١٩٥٤، وعمل أستاذًا لعلم الاجتماع بجامعة ولاية نيويورك، وقد تتلمذ كوزر على يد ميرتون Robert Merton. ويتركز اهتمام كوزر الرئيسى حول النظرية الاجتماعية. ومن أهم مانشره كتاب وظائف الصراع الاجتماعى The Functions of Social Conflict. وكذلك كتاب تكملة فى دراسة الصراع الاجتماعى سنة ١٩٦٧. Continuities in the Study of Social Conflict، وكذلك كتابه أساتذة الفكر السسيولوجى سنة ١٩٧١ Masters of Sociological Thought. واهتمامنا فى هذا المقام يتركز حول أفكاره عن الصراع الاجتماعى.

أهدافه:

فى كتاباته عن الصراع هدف كوزر إلى «توضيح وتدعيم المفاهيم المناسبة لبيانات الصراع الاجتماعى. . . ومركزًا على الوظائف Functions أكثر من المعوقات الوظيفية Dysfunctions للصراع الاجتماعى.. والتركيز أيضا على النتائج اللاحقة للصراع الاجتماعى والتى تعمل على الزيادة أكثر من التناقص فى التكيف وترتيب العلاقات الاجتماعية والجماعات»[١].

واعتبر كوزر الصراع هو «كفاح حول القيم والدعاوى لتعزيز المكانة والقوة والمنابع، ويتجه هذا الكفاح إلى أهداف الخصوم لإبطال مفعولها أو تحييدها أو تقليل منافستها»[٢].

---

(1) Coser, L.A: "The Functions of Social Conflict" Free press, Chicago. 1956. p. 7-8.

(2) Ibid ; p.8.

ومن أجل هذا الهدف فحص كوزر القضايا الأساسية لنظريات الصراع الاجتماعى وبصفة خاصة عند سمل Simmel، وعمل على إمدادها بوقائع أخرى سواء ذات طبيعة نظرية أو عملية، وأيضا مثل ما فعل باقى أصحاب نظريات الصراع المعاصرة، فعل كوزر إذ استخدم نظريات المنظرين الأوائل فى دراسة الصراع الاجتماعى المعاصر.

نظريته

افترض كوزر الرئيسى أن الصراع ربما يزيد أكثر من أن ينقص التكيف والترتيب الاجتماعى. والمحافظة على حدود الجماعة، بمعنى أن الصراع إذا كان يعتبر معوقًا للوظائف dysfunctional فإنه أيضا له وظائف[1].

ثم تقدم ليرسم ويوضح منبع الصراع، والمواقف الطارئة المؤدية للصراع والوظائف المحتملة للصراع.

واعتبر كوزر أن الصراع ينشأ عندما «يوجد زيادة فى عدد الطالبين عن الفرص المتاحة لإعطاء المكافآت المناسبة»[2]. بمعنى أنه استخدم هنا الفكرة الاقتصادية التى تتحدث عن العلاقة بين العرض والطلب، فإذا كان عدد طلاب العمل أكثر من فرص العمل المعروضة، هذا منبع للصراع وفى نفس الوقت اعتبره موقفًا طارئًا مولدا للصراع. ولكن فيما يختص بالنتائج التالية لهذه الظاهرة يحددها نمط البناء الاجتماعى الذى فى داخله تحدث تلك العملية، وأيضا يحددها نمط المسائل موضع اهتمام أعضاء المجتمع، كل ذلك يؤثر فى وظائف هذه العملية فى داخل المجتمع.

واعتبر كوزر أن الأبنية الاجتماعية تختلف فى أنماط الحراك الاجتماعى[3]. وتختلف الأبنية الاجتماعية أيضا فى أنواع نظم صمام الأمان Safty- valve institutions الموجودة بها، وأيضا تختلف فى مدى السماح بالصراع وانتظاميته، وكذلك تختلف الأبنية

(1) Ibid : p.8.

(2) Coser: "Continuities in the Study of Social Conflict" Free press, New . york, 1967, p.27.

(3) Ibid: p. 26.

الاجتماعية فى درجـة التحام الجماعات ومستوى المشاركـة الجمعية وكـذلك طـول الـصراع [1].

ومن ثَمَّ اعتبـر كوزر أنه كلما زاد انغلاق نسق التدرج الاجتـماعى، وكلما قل عدد نظم صمام الأمـان، وكلما قل التسامح وانتظامية الـصراع، وكلما زاد انغلاق الجماعـات كل على نفسها وكلمـا طال كفاح الجمـاعة، كلما زادت كثـافة وشدة التمزيق والانهيار الذى سوف يحدثه الصراع الاجتماعى فى داخل المجتمع.

وكذلك اعتبر كوزر أن أنماط المواضـيع التى يقع حولها الصراع هى أيضا عامل رئيسى فى تأثيراتها، فمثلاً المواضيع التى تدور حول الشـرعية الاجتماعية وتتضمن عدم الاتفـاق حول الدعـاوى الأساسيـة تؤدى إلى مستـويات عاليـة من الصراع. وكذلك قد تكون المواضيع واقعية وحقيقـية مثل الفشل فى إشباع متطلبات معينة، أو غيـر واقعيـة مثل المواضيـع التى تتضمن حـاجة إلى خفض تـوتر عام، النمط الأخير يؤدى إلى صراع أكثر شدة وكثافة.

ولكن أيضا اعتبر كوزر أن توليفة إيجابية من كل العوامل السابقة يمكن أن تؤدى إلى صراع يقدم للنسق الاجـتماعى وظائفا Functions مثل أنه قد يقـدم استقرارا للعلاقات الاجتمـاعية، ويعيد الحيوية للمعايير الموجـودة، ويساهم فى بعث معايير جديدة، ويقـدم ميكانيـزم لاستمـرار إعادة تكيف ومواءمـة ميـزان القوة، وينمى اتحادات وائتلافـات جديدة، ويقلل العزل الاجتمـاعى، ويساهم فى المحافظة على خطوط حدود الجـماعة، وبصفة عـامة تحت ظل ظروف معينة، قـد يؤدى الصراع إلى نسق اجتماعى أكثر مرونة واستقرار وتكامل.

وهكذا اعتبـر كوزر أن الصراع حول مواضـيع واقعية فى داخل بناء اجـتماعى مفتوح قد يساهم فى مـزيد من التكيف والمرونة والتكامل للبناء الاجتماعى، بينما الصراع اللاواقعى فى بيئة مغلقة وغير مرنة قد يؤدى إلى العنف والتفكك.

---

(1) Coser : Fun. of Soc. Conflict: p. Chap. IX.

مثل هذه المحاولة لإنشاء نظرية تساعد على فهم الظروف والآثار لهذه العملية الديناميكية فى المجتمع المعاصر، هى مساهمة عظيمة للنظرية السسيولوجية المعاصرة[1].

وبالرغم من ذلك فإن هذه النظرية يؤخذ عليها بعض المسائل:

١- عن محاولة كوزر الاستعاضة عن البنائية الوظيفية التى اعتبرها ذات جانب واحد، إلا أنه سقط فى نفس الفخ إذ أنه اعتبر الصراع تكيف وتكامل.

٢- أفرط كوزر فى تبسيط منابع الصراع الاجتماعى.

٣- كما يمكن اعتبار قضاياه عامة وماكروسكوبية حتى أنه يصعب استخدامها، بل وغير ملائمة لفهم مواقف معينة.

٤- يمكن اعتبار نظريته أكثر قربًا من الوظيفية البنائية منها إلى نظريات الصراع.

***

(1) Ibid. :Chapt. IX.

تلخيص لنظريات الصراع المعاصرة

سبق أن أشـرنا إلى أن نظريات الصراع المعـاصرة تعـتبر رد فـعل جمـاعة من المثقفين على الصراع الاجتماعى بصفة عامة والعنصرى بصفة خاصة. وكذلك كرد فعل لآثار الضغوط العالية للزيادة الكبيرة فى عمليات البيروقراطية والتصنيع.

واعتبرت هذه النظريات المجتمع كنسق، نسق مـتطور من جماعات متنافسة من أجل الحصول على المتابع، ويحكمهم نوع معين من سيادة الصفوة.

واعتبرت الظروف الاجتمـاعية والديموجرافية المختلفة كمحـدد لكثافة واستمرار وشكل الصراع الاجـتماعى، بينما يمثل البناء الاجـتماعى نمط السيـادة الموجود فى المجتمع فى مرحلة معينة من تطوره.

ويلاحظ أن دراستـها لكل من مليـز وداهرندورف وريسمان وكـوزر قدمت لنا عددًا من المتشـابهات بينها، فجمـيعهم وإن كانت لهم حيـاتهم الأكاديمية إلا أنهم انشغلوا بالسـياسة. ومـعظمهم قد لاحظ الصراع الاجـتماعى فى داخل المجـتمع الأمريكى الذى يمر بمرحلة تتمـيز بمعدلات عالية من التصنيع والبيـروقراطية. وقد تركز اهتـمامـهم جمـيعا على دراسـة الصراع وأنماط السـيادة فى داخل المجـتمع الصناعى المعاصر.

كما يمكن رؤية التشابهات الآتية فى نظرياتهم:

١- كان هدفهم التحليل للصراع والسيادة فى داخل المجتمع الصناعى الحديث.

٢- اعتبروا أن المجتمع يمثل نسقًا من الجماعات أو المصالح المتنافسة.

٣- ينبعث الصـراع الاجتماعى أو الطبـقى فى ظل ظروف اجتمـاعية أو تنظيمـية معينة.

٤- يسـاهم التصنيع والبيـروقراطيـة فى صنع الأشكال الرأسـماليـة من السيـادة والمركزية والصفوة.

٥- يساهم الصراع الاجتماعى فى مزيد من التطور والتكيف الاجتماعى. وهكذا يمكن اعتبار أن نظريات الصراع المعاصرة تمثل رد فعل راديكالى للأشكال المعاصرة من الصراع والسيادة. كما يلاحظ أن التواصل بين نظريات الصراع المبكرة والمعاصرة واضح جداً فى أسلوب الصياغة وفى استخدام الأفكار المبكرة.

***

الفصل الرابع

السلوكيون الاجتماعيون

أولا: السلوكيون الأوائل

- فبر } نسقى
- ميد

- سمل } طبيعى
- سمنر

ثانيًا: السلوكيون المعاصرون

- بلومر } نسقى
- جوفمان

- جارفنكل } طبيعى
- بلاو

السلوكيون الاجتماعيون

الظروف الاجتماعية

يعتبر السلوكيون الاجتماعيون مجموعة من المفكرين تمثل أفكارهم رد فعل لمشاكل معينة فى ظل نوع من التفكير المشترك إذ أنهم من البروتستانت فيما عدا سمل Simmel. وقد نالوا تعليما واسعًا فى التاريخ والفلسفة واللاهوت. وكان مسارحياتهم أساسًا أكاديميًا، ولقد كابدوا الآثار الديناميكية للتصنيع والتحضر. ولقد نشأ معظمهم متأثرًا بمثالية عصر التنوير، والنظريات التطورية، والدارونية، والمذهب العملى الحديث.

وهكذا يمكن اعتبار أن المذهب السلوكى الاجتماعى هو رد فعل جماعة من مفكرى البروتستانت كمحاولة لمواجهة المشاكل الحديثة للتغير الاجتماعى. فهذه النزعة تعتبر شكل جديد من المذهب العضوى ولكن يتجه إلى دراسة الوحدات الصغرى، حيث تدرس العوامل الفردية كمحدد للسلوك الاجتماعى، وحيث تنظر إلى المجتمع من ناحية منظور الفرد، إذ تعتبره مجموعة من القيم من ناحية، ومن ناحية أخرى كمجموعة من الأشخاص المتفاعلين، فهذه النظرة انبعثت كاستجابة لحاجات النسق عند مستوى الوحدات الصغرى.

وهكذا أصبحت الظواهر المعيارية والثقافية عند مستوى الوحدات الصغرى موضع اهتمام هؤلاء المفكرين وبؤرة دراساتهم. وذلك فى محاولة لفهم المجتمع عند المستوى الفردى، وخاصة ما لاحظه هؤلاء المفكرين من تزايد الوعى الاجتماعى نتيجة لتأثيرات التصنيع. وبتقدم التحضر والنمو الاقتصادى، حاول علم الاجتماع فهم هذا البناء الاجتماعى المتغير عند المستوى الفردى فى ضوء قيم عصر التنوير مثل المثالية. تمامًا مثل ما يحدث حديثًا من التركيز على القيم الفردية للأخلاق البروتستانتية والمذاهب التابعة لها.

والنزعة السلوكية الاجتماعية مثلها مثل النظريات الأخرى لديها عدد من الأنماط الفرعية، فهناك نموذج التفاعل الاجتماعى المتبادل، والنموذج الطبيعى، بمعنى

النمط النسقى والنمط الطبيعى. فالنمط النسقى يمكن مشاهدته فى أعمال فبر Weber وميد Mead فهما يعتبران أن الفرد نتاج المجتمع ومن ثَمَّ يركزان على العمليات الاجتماعية المهمة. بينما النمط الطبيعى يعتبر الغرائز الإنسانية أو الحاجات الإنسانية أساسًا للعمليات الاجتماعية عند مستوى الوحدات الصغرى، التى يعتقدون أنها أساس المجتمع.

وإن كان النمطان يختلفان فى أساسهما فإن نماذجهما متشابهة، فهى دراسات للحقيقة الاجتماعية عند مستوى الوحدات الصغرى وتطورية واستقرائية.

السلوكية الاجتماعية المبكرة

النموذج النسقى

تعتبر هذه الدراسة أن الفرد رشيد ويمثل نتاجًا لمجموعة معينة من العلاقات الاجتماعية. فهى تعتبر أن المجتمع ما هو إلا مجموعة من العلاقات والقيم، وأهم عمليات المجتمع هى التنشئة الاجتماعية والتفاعل المتبادل بين أعضائه. وطبقًا لهذه الفكرة اعتبرت الفرد كتابًا خطه المجتمع، ويعكس توجيهات القيم السائدة التى نشأت فى داخل محتوى اجتماعى معين. مثل هذه النظرة المعيارية النسقية عن الحقيقة الاجتماعية نجد لها تعبيرًا صادقًا فيما كتبه كل من فبر Weber وميد Mead.

***

ماكس فبر
MAX WEBER
(١٨٦٤- ١٩٢٠)

ولد ماكس فبر من أسرة بروتستانتية فى ألمانيا من الجناح اليمينى للأحرار. ولقد تلقى فبر تعليما واسعًا فى الاقتصاد والتاريخ والقانون والفلسفة واللاهوت، وتربى فى ظل الفلسفة المثالية الألمانية. وعمل فبر أستاذًا للاقتصاد فى جامعة فرايبورج Freiburg، ثم أستاذًا فى جامعة هايدلبرج Heidelberg أستاذًا للاقتصاد. ولقد كان فبر منشغلا بالسياسة الألمانية من ناحية، ومن ناحية أخرى كان يحاول صنع علم اجتماع موضوعى أى متحرر من القيم Value- Free. فقد كان فبر مهتما بروح الإنسانية وخاصة بالقيم، معتبرا الفرد فاعلا أكثر من مجرد صنيعة للتاريخ.

ويلاحظ أن كثيراً من كتابات فبر لا تنتمى إلى ميدان علم الاجتماع بنطاقه المعروف فأغلبها يعالج مشكلات ملموسة أكثر مما يعالج موضوعات أساسية فى النظرية العامة لعلم الاجتماع. ومع ذلك فقد كان فبر يتمتع بقدرات تحليلية فائقة مكنته من تقديم إسهامات خطيرة إلى النظرية فى علم الاجتماع، وذلك من خلال دراسته المتعمقة لهذه المشكلات، بل ولقد أسهم فى النظرية بدراسته لمشكلات وموضوعات لا ترتبط بشكل مباشر بالنظرية[١].

وكانت أهم كتاباته تعكس اهتمام فبر بتطور نسق قيم النوع البشرى، ومن أهم ما كتبه فبر الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية (١٩٠٥) The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism وكذلك كتابه علم الاجتماع الدينى (١٩٢٠) Sociology of Religion وكذلك كتابه الاقتصاد والمجتمع (١٩٢٣) Economics and Society.

---

(١) نظرية علم الاجتماع -نيقولا نيماشيف- ترجمة دكتور محمود عودة وزملاؤه- دار المعارف ١٩٧٧ ص ٢٥٣.

أهدافه:

عـرف فبـر علم الاجتـماع على أنه (الـعلم الذى يحاول شـرح وفهم الفـعل الاجتـماعى من أجل الوصول إلى التـفسير السـببى causal explanation لسبب حدوث الفعل وآثاره)[1]. ويلاحظ أن هذا التعريف يتضمن عدة عناصر محورية، (أ) محـاولة التفسيـر أو الفهم، (ب) التركيـز على الفعل الاجتـماعى أى السلوك الملتصق به المعنى الذاتى subjective meaning وهو يعنى بذلك التركيز على القيم الاجتمـاعية كعنصر أولى فى توجـيه السلوك الفاعل، (جـ) وأخيـرًا محاولة صنع تفسير سببى لهذه الظاهرة.

وهكذا نجد أن فبر كان مهتما بـالفهم العلمى للسلوك الاجتماعى إذ اعتبره بؤرة علم الاجتـماع. ومن ثَمَّ ركز فـبر على الفهـم الموضوعى للقيم الاجـتماعـية فى محتوى تاريخى، وحاول تقدير وطأتها الاجـتماعية على المجتمع. ومن أجل ذلك درس فبر مواضيع متعددة، مثل الأخـلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية، والسلطة الكارزماتية charismatic authority، والبيروقـراطية bureaucracy، والترشيد rationality. وذلك أنه كان يعـتبر أن علم الاجتـماع لابد أن يهتم بدراسـة القيم المتقـاطعة crucial values أى المتشـابكة التى تحدد السلوك الاجتـماعى عند نقطة معينة من تاريخ تطور المجتمع.

وهكذا يمكن مـلاحظة أن هذا النوع من الدراسـة يختـلف تمامًا عن دراسـات الوحدات الكبرى والنواحى البنائية للمجتمع.

نظرية الفعل الاجتماعى
SOCIAL ACTION

يعتـبر فبر أن الفعـل الاجتماعى له مـعنى عند الفاعل عندما يفتـرض الفعل معنى ذاتى كـما أنه يأخذ فى حـسبانه سلوك الآخرين، ومـن ثَمَّ فالفعل يعتـبر موجه نحو الآخرين.

---

(1) Weber. Max: "Basic Concepts in Sociology" Peler Owen. London. 1962.

واعتبر فبر أن هناك عدداً من الأنماط المتمايز للمعنى Meaning:

١- معنى مقصود واقعى للفعل الفردى الثابت، ويعنى به المعنى الذاتى.

٢- مستوى الواقعية للفعل المقصود، ويعنى به المستوى المعيارى للجماعة.

٣- المعنى الملائم للصياغة العلمية الخالصة، مثل التجريد والنماذج النظرية.

وكل الأنماط الثلاثة تتعلق بأنماط متعددة من التفسير السببى.

اعتبر فبر أن الفعل الاجتماعى مختلف فى مستوى الرشد rationality ولقد وضع فبر أربعة أنماط من الفعل الاجتماعى تتراوح بين أقل وأعلى مستوى من الرشد وهى:

١- الفعل الاجتماعى الموجه بالتقاليد traditionally Orianted social action، ويعنى به السلوك التقليدى taditional behaviour، وهو يقع قريباً من حدود ما يمكن أن يقال عنه فعل يوجه معنى، وإن كان فى الغالب يقع فى الجانب الآخر، لأنه غالباً ما يكون رد فعل تلقائى automatic للمنبهات المعتادة، فهو عبارة عن السلوك المعتاد الذى تحدده التقاليد، إنه ذلك الحجم الكبير من الأفعال المعتادة يومياً التى ألفها الناس.

٢- الفعل الاجتماعى الموجه بالعاطفة، ويعنى به السلوك العاطفى الخالص Purely affectual behavior، وهذا الفعل يقع أيضاً عند حدود المعنى meaninfully وغالباً ما يعبر هذه الحدود. فمثلا قد يتضمن هذا الفعل رد فعل غير مضبوط لبعض المنبهات غير العادية. إنها حالة من التسامى sublimation عندما يحدث الفعل المحدد عاطفياً فى شكل تحرر الوعى من التوتر العاطفى. وعندما يحدث هذا نكون على الطريق نحو الترشيد.

٣- توجيه رشيد نحو قيم مطلقة absolute value، ويعنى به الفعل الاجتماعى الذى يحدده مجموعة معينة من الأخلاق والقيم. ويتمايز هذا الفعل عن النمط العاطفى، بوعى الفاعل التام بالصيغة النهائية للقيم الحاكمة للفعل. وفى الوقت نفسه كل من النمطين (٢، ٣) لهما عناصر مشتركة، أعنى أن معنى

الفعل لا يكمن فى إنجاز نتيجة خلفه، ولكن فى إنجاز وإتمام نمط معين من الفعل من أجله وحده. والأمثلة على الفعل العاطفى هو الإشباع لضغط مباشر للانتقام، تكويس الإنسان نفسه لشخص أو فكرة، أو أخيراً العمل على التخلص من التوتر العاطفى.

والأمثلة على التوجيه الرشيد الخالص نحو قيم مطلقة، هو الفعل لأشخاص الذين بغض النظر عما قد يقع عليهم من التكاليف المحتملة، يفعلون ليمارسوا معتقداتهم التى يشعرون أنها من متطلبات الواجب والشرف والجمال الخالص والدعاوى الدينية والولاء الشخصى.

وعندما يكون الفعل موجه إلى قيم مطلقة، فإنه يتضمن دائمًا أوامر commands أو متطلبات demands، التى يشعر الفاعل أن عليه واجب القيام بها. إنه فقط فى الحالات حيث يحرك الأفعال البشرية إنجاز مثل هذه المتطلبات غير المشروطة، تلك هى الأفعال التى يمكن أن توصف بأنها موجهة إلى قيم مطلقة.

٤- فعل موجه عقليّاً نحو نسق من الغايات الفردية مميز، عندما تكون الغايات والوسائل والنتائج قد أخذت كلها فى الاعتبار عقليّاً وقدرت. وذلك يتضمن التأمل العقلى للوسائل والغايات البديلة، وكذلك إمعان النظر العقلى لعلاقات الغايات بالنتائج المتوقعة من استخدام أى وسيلة متاحة، وأخيرًا الأهمية النسبية لمختلف الغايات المحتملة. الاختيار بين البدائل والغايات والنتائج المتصارعة قد يحددها التقدير للقيمة المطلقة. وفى هذه الحالة يكون الفعل موجهًا عقليّاً إلى نسق من الغايات الفردية المميزة فقط بالنسبة إلى اختيار الوسائل. ومن ناحية أخرى ربما الفاعل بدلا من أن يبت بين البدائل والغايات المتصارعة فى عبارات من التوجيه الرشيد إلى نسق من القيم، فإنه ببساطة يأخذها كرغبات ذاتية ويرتبها بوعى فى سلم حسب أهميتها.

ويلاحظ أن فبر ختم هذا التصنيف بقوله إنه من النادر جداً أن نجد أفعالا اجتماعية قد وجهت فقط تبعًا لواحد أو آخر من هذه الأساليب، وأكثر من ذلك

أن هذا التصنيف من أساليب التوجيه لا يعنى بأى شكل أنه يستوعب إمكانيات المجال الاجتماعى، ولكن فقط هو عبارة عن صياغة مفهومية لأشكال خالصة من الأنماط ذات أهمية اجتماعية. والتى بالنسبة لها الفعل الحقيقى قد يقترب منها كثيراً أو قليلاً.

كما أنه وإن كان هذا التنميط طبقًا لرأى فبر ليس شاملاً ولا مانعًا إلا أنه يمثل بالأحرى أنماط من التوجيه الاجتماعى تدور من الثقافة ذات النزعة الفردية القليلة والضبط العالى للتقاليد، إلى تلك الثقافة ذات النزعة الفردية العالية ويقل فيها نسبياً ضبط التقاليد(١).

ولقد عمل فبر على رسم وتوضيح أنواع الشرعية والعلاقات والاتحادات والجماعات، والضبط المنغرس فى كل شكل من أشكال التوجيه، من التقليدى إلى العاطفى إلى التوجيه الرشيد الذى تحدده القيم المطلقة، إلى التوجيه الرشيد الذى تحدده الغايات الفردية كالآتى:

١- فى النوع التقليدى، تكون الشرعية مؤسسة على الميول والاتجاهات الدينية، وعلاقات التضامن جمعية، والاتحادات إجبارية، والجماعات المشتركة سياسية، والضبط قائم على النظم الدقيق.

٢- فى النوع العاطفى، مؤسس على الولاء العاطفى والمشاركة جمعية، وفيه يكون الاتحاد اختيارى والجماعات المشتركة ثورية، والضبط يقوم على أساس القوة.

٣- التوجيه الرشيد المحدد بقيم شرعيتها مستمدة مما تقوله هذه القيم، وفيها تكون العلاقات اتحادية، وتكون الاتحادات إجبارية والجماعات المشتركة مقدسة والضبط قائم على النظام.

٤- التوجيه الرشيد نحو نسق من الغايات الفردية يكون مؤسسًا على المصالح الذاتية والعلاقات اتحادية، واتحادات إجبارية، والجماعات المشتركة سياسية والضبط قائم على القوة.

---

(1) Weber: "The Theory of Social and Economic Organaization", Trans. A.M. Henderson and Tallcot Parsons, ed. Parsons. Glencoe, Ill.: The Free Press, 1947. Part I P.P. 88, 112-23.

وهكذا تكون الأنماط المختلفة من المجتمعات أو الأفعال الاجتماعية مؤسسة على أنماط مختلفة من القيم أو من مستويات الرشد.

نظريته فى التغير

بعد أن صاغ فبر نظريته فى الفعل الاجتماعى وموجهاته أقام على أساسها نظريته فى التغير الاجتماعى وخاصة أنه (قد بدت لفبر الماركسية نظرية حتمية وحيدة العلية لا يمكن الدفاع عنها أو تأييدها، ومن ثَمَّ تصبح مجحفة وغير مناسبة لإعادة بناء العلاقات الاجتماعية أو التاريخية. وشعر فبر أن ماركس كاقتصادى قد ارتكب نفس الخطأ الذى يفعله الأنثروبولوجيون فى أيام فبر، من إقامة نظريات جزئية لما هو عظيم الأهمية، واختصار تعدد العوامل العلية إلى نظرية عامل وحيد)(1).

فقد كان فبر يدرك أهمية العلاقات المتبادلة فى كل الوضع النظامى الذى يصنع البناء الاجتماعى، ولهذا كان من أهم وجوه النقد التى وجهها إلى الماركسية هى أنها فشلت فى التمييز بين ما هو اقتصادى بحت وبين ما هو له ارتباط اقتصادى، ويضرب فبر مثلا على ذلك أن الحجاج إلى روما هم بالتأكيد لهم علاقة بسوق النقود، ولكن لا يجعلهم ذلك مشاريع اقتصادية. فأهمية الأفكار الدينية أو السياسية للنظم الاقتصادية لا تحول تلك الأفكار إلى عوامل اقتصادية، إنما المسألة تختص بعلاقاتهم الاقتصادية(2). فقد فسر فبر الديناميكية الاجتماعية على أساس تحليل تعدد العوامل التى يمكن عزلها وقياسها تبعًا لأهمية أسبابها الخاصة، وفعل ذلك بالتحليل المقارن للوحدات القابلة للمقارنة التى توجد فى مختلف الثقافات.

ولكن يلاحظ أن فبر كان شديد الميل لإعطاء العوامل اللامادية وخاصة العامل الدينى أهمية أكبر، (فيما يختص بالتأثيرات الأولية المختلفة على أنماط الثقافة

---

(1) Gerth, H. Mills, C.W.: "From Max Weber, Essays in Sociology" A Galaxy Book, Oxford University Press, New York, 1958. P.P. 46- 47.

(2) Ibid.: P. 47.

والمجتمع، بلا ريب أثبت فبر الأسبقية لأنساق التوجيه الديني، وتنبعث هذه النتيجة بوضوح من سلسلة دراسته المقارنة فى علم الاجتماع الدينى)[١].

فلقد أكد فبر فى علم اجتماعه الدينى أن المعتقدات الدينية هى القوى الدافعة للتغير الاجتماعى، ففى رأيه لا شىء أثر فى مجرى التاريخ الإنسانى بأسلوب ثورى كما فعلت الديانات العالمية الكبرى من حيث النتائج الاجتماعية لتعاليمها. فقد اعتبر فبر أنها تنتمى للقوى الديناميكية الحقيقية للتاريخ.

إذ يعتبر فبر أن انبعاث ديانة جديدة فى مجتمع يحدث كسرا كبيرا وهاماً للنمو التاريخى، وذلك أنه (إذا انبعث مجتمع دينى فى ظل نبى أو داعية مخلص، أو لا يقع الضبط للسلوك المعتاد فى أيدى الخلفاء المؤهلين بمواهب والتلاميذ وأتباع النبى أو المخلص. وكقاعدة يقف النبى أو المخلص شخصياً فى تعارض مع القوى التقليدية المقدسة للسحرة أو الكهنة)[٢].

(إن النبى فى هذه الحالة يضع إلهامه الشخصى Personal charisma فى صراع ضد مراكز السحرة والكهنة المؤسسة، ومقاماتهم المؤيدة بالتقاليد، بهدف تحطيم قوتهم أو إجبارهم على اتباعه)[٣].

ولهذا يعتبر فبر أن حالات الديانات النبوية عاشت ليس فقط فى حالة حادة من التوتر بل ودائمة بالنسبة للمجتمع الذى تظهر فيه. وتزداد حدة هذه التوترات كلما زادت الديانات صدقًا كديانات إنقاذ. ويتضخم أيضًا التوتر كلما كانت الأخلاق أكثر رشدا rational، وكلما زاد توجيهها للقيم المقدسة كوسيلة للخلاص.

ويبدو أن دراسات فبر فى الديانات وخاصة السماوية جعلته يكتشف العنصر الفعال أو الديناميكى فى النبى. وأطلق على هذا العنصر اصطلاح الإلهام Charisma

---

(1) Parsons, T.: "Evaluation and Objectivity in Social Science: an interpretation of Max Weber's Contobution" International Social Science Journal, Unesco, Volume VII 1965, P. 59.

(2) Gerth and Mills: From Max Weber, P. 327.

(3) Ibid. : P. 328.

(فمفهوم الإلهام كمنبع للحركات الروحية ذات الكثافة العظمى، وجد مناسبًا لوصف الظواهر العالمية)[١].

وعمل فبر على توسيع مفهـوم الإلهام ونقله من المتن الدينى إلى الحياة الإنسانية بأسرها. فالقـواد الملهمين عنده، هم أولئك الذين يتبعـهـم من هم فى كرب وشدة ويكونوا فى حاجة إلى اتباع قائد لاعتقادهم فيه أنه ذو مؤهلات فوق العادة.

وإن كان فبر يؤكد على سيادة الرجـل الملهم، فإن فبر لم يقلل من ميكانيكيات النظم، ومن ناحـيـة أخـرى لا يعنى ذلك تـفـسـيـره مـا هو اجـتـمـاعى بما هو سيكولوجى، وخاصة مفهـوم الشخصية. (فقد كان فبر يرى فى مفـهـوم الشخصية فكرة سيئـة الاستعمال جدًا، إذ تشـير إلى مركز لا عقلى للإبداع، مـركز يتوقف عنده البحث التحليلى)[٢]. ولهذا كان فبر ينظر دائمًا إلى الفرد فى متن اجتماعى، (فبـالنسبـة لعقل الفرد، المـعنى والحصول على المعـنى لظواهر العالم كـانت دائمًا مسائل يقررها الفرد فى اختياره الحر بين مختلف الأرباب)[٣].

وهكذا كان موقف فبر العقلى واضحًـا أثناء عملية نقده لبناء فلسفة التاريخ فى عصره، فعنده الفرد يفوق ويعلو العالم التجريبى، بواسطة قدرته على أخذ موقف عقلى فيـما يختص بالعالم، وأن يختـار بين القيم المختلفة، ويستطيع الفـرد قيادة أفعاله إلى أعلى المثل.

فعنـد فبر الأمـانة العقليـة كانت فى عـملية الانتـخاب العظيـمة التى تجـريها الشخـصية للاختـيار بين القيم. فلقـد كان يعتـبر أن قانون الحيـاة لأى نمط عقلى كأسلوب للحياة، هو عبـارة عن اختيار مسئول من بين مختلف مـجموعات القيم التى تقدم نفـسها فى أى وقت. فـعملية الحـسابات الرشيـدة للدافع والنتائج، أى عملية الاختيار، ترفع الشخصية فى ذاتهـا فوق الطبيعة السفلية الغريزية النامية بلا فروق. واعتبر أن هذا هو العمل الحقيقى لكل العلوم، فعملها هو مساعدة كل فرد فى جلاء أفكاره عن المعنى النهائى لأفـعاله، بإبلاغه عن الوسائل المناسبـة لتحقيق

---

(1) Memmsen, Wolfgang: "Mav Weber's Political Sociology and his Philosophy of World History" Int. rnational Sociology: op. cit. P. 33.

(2) Greth and Mills: op. cit. P. 55.

(3) Memmson: op. cit. P. 28.

مثله، وقبل كل شيء، توضح له الآثار المحتملة لهذه الوسائل على المثل المتنافسة وتضع أمامه النتائج الكاملة لقراراته.

ومن ثَمَّ فجوهر الشخصية عند فبر هو فعل عقلى رشيد فى خدمة الأهداف الأساسية، ومهما كانت هذه الأهداف شخصية خالصة فى الأصل، فإنها تنتمى للمجالات الرفيعة للشخصية. وهذه المجالات الرفيعة تقف فى تعارض مع العمليات العقلية للعالم الجامد. ومن ثَمَّ يقوم صراع مستمر بين المبادئ المتعارضة، وفى الوقت نفسه ينعكس هذا الصراع فى الواقع الاجتماعى، فى التضاد بين الرجل الثقافى والرجل التكنيكى. فالشخصية المبدعة التى تحمل وتوجه نحو قيم تعتبر خيالية بالنسبة للواقع الاجتماعى، ولهذا تكون حرة من شروط البيئة (وخاصة التقاليد)، ومن ثَمَّ تكون فى صراع مستمر مع الرجل التكنيكى (أى الرجل المحكوم بالآلة) والرجل النظامى (أى الرجل المحكوم باللوائح والقوانين)، أولئك الذين تحدد الظروف الموجودة أفعالهم. هذه الشخصية المبدعة ذات الديناميكية الاجتماعية التى تظهر عندما تتجمد أشكال الحياة الروتينية وتثبت عدم إشباعها وعدم كفاءتها للسيادة على حالة نامية من التوتر والمعاناة، وضع فبر لمثل هذه الشخصية مفهوم الإلهام. وهكذا نجح فبر فى انتزاع مفهوم الشخصية من متنه السيكولوجى وأقامه على أساس اجتماعى.

وبذلك يصبح الإلهام charisma عند فبر عبارة عن شكل من الطاقة الروحية تؤدى إلى انبعاث مثل أخرى غير الموجودة فى المجتمع الذى يظهر فيه الشخص الملهم. ومن ثَمَّ تضاد بشدة حقائق الحياة اليومية، ولهذا إما أن تصبح ثورية أو أن يتخلص منها المجتمع سريعا. هذا التوتر بين القيم التى يبشر بها الشخص الملهم وبين الواقع اليومى يتصف بالحدة المتناهية، فهو موقف يتمثل فى التعارض بين الحياة اليومية للنظم القديمة وبين الطبيعة التلقائية للقائد الملهم، أى الروتين ضد المشاريع الإبداعية وتقاليد الناس العاديين ضد الحرية الداخلية للرجل الملهم الصاعد وغير العادى، والقواعد النظامية ضد الفرد المنبعث.

ولكن هذا الموقف لا يتضمن ثباتًا أو دوامًا، لأن الإلهام فى الأيام الأولى ربما يحرك أتباع بطل محارب أو نبى تحت تأثير الحماس والإخلال الذى حركه القائد الملهم عند الناس للتخلى عن أنماطهم وتقاليدهم الموروثة من أجل الأفكار والقيم التى أعلنها، فإذا أريد لهذه الأفكار والقيم دواما وثباتًا فلابد من إجراء عملية اجتماعية وهى تحويل هذه القيم إلى أشكال وأساليب فى الحياة اليومية. ولما كانت هذه القيم بالمقارنة مع ظروف الحياة اليومية عبارة عن يوتوبيا، فمن ثَمَّ فى بدء الحركة، يصبح أى تفكير عن التكيف والتكامل مع الظروف الموجودة غريبًا عن طبيعتها، ولهذا لا يسأل الأتباع عن النتيجة، ولكن يكافحون بالاقتصار على طاعة وصايا القائد الملهم، وذلك هو السبب في أن حركات الإلهام Charisma ثوراتها تنتمى للقوى الديناميكية الحقيقية للتاريخ.

وقد وصف فبر تأثير الإلهام فى الآتى: (تؤسس قوة الإلهام على الاعتقاد فى بطل ملهم. وعلى الاعتقاد العاطفى لأهمية وقيمة إعلان ديانة أو أخلاق أو فن أو علم أو سياسة أو من أى نوع آخر، وعلى بطولة سواء نسكية أو حربية، وعلى حكمة قانونية وعلى هبات إعجازية أيًا كانت، وينشدون تشكيل الأشياء والمواقف طبقًا للإرادة الثورية - من الداخل- من مركز فى العقل السائد تعلن قوتها الثورية. ومن ثَمَّ فهى تقف فى تضاد حاد لأى نظام تقليدى أو بيروقراطى، وكقاعدة تدمر قوة الإلهام النظام إذا لم تستطع تطويعه لاتباعها، فالإلهام هو بصفة خاصة قوة التاريخ الثورية المبدعة. ويتركب تأثيرها الثورى من قدرتها على تحوير المعتقدات والاتجاهات نحو كل شىء فى الحياة والعالم. فلقد وجد أن تأثيرات مختلف الأخلاق الدينية على وعى الفرد، وهى حالات خاصة بهذه الظواهر العالمية)(1).

ويتبين من هذا أن فبر يدحض آراء ماركس، إذ كان فبر يؤكد دائمًا على أن كل أخلاق دينية يجب على الأقل فى مسلماتها العليا، أن تشتق أصولها من جذور دينية خالصة، وليست متأصلة فى اعتبارات اقتصادية أو سيكولوجية، ولقد عارض فبر بشدة الهراء الماركسى من أن الدين كان مجرد بناء أعلى أيديولوجى يرقد فوق

---

(1) Memmsin: op. cit. P. 33.

الظروف الاقتصادية، ذلك يؤدى إلى عنصر جوهرى فى المفهوم التاريخى الفلسفى عند فبر، وهو أن المعتقدات الدينية -فى شكلها الأساسى- أى الإلهام الدينى لأفراد قديسين وأنبياء هى القوة الدافعة الأساسية للتغير الاجتماعى.

وقد كرس فبر جزءًا كبيرًا من عمله الاجتماعى للكشف عن العمليات التى تجريها ظهور كريزما دينية، ولقد بذل جهدًا كبيرًا فى تأسيس خطوط جديدة للتطور التاريخى.

واعتبر فبر أنه لم تكن قوة المصالح المادية الموجودة كافية للتطور التاريخى، إنما فى رأيه ما كان مطلوبًا لإحداث التغيرات والتطور التاريخى، هو تأملات القوى الروحية من المنطقة السامية عند كريزما دينية، ولم يشأ فبر أن يترك مفهومه ليفهم بمعنى جدلى، ولكن اعتبر أن المصالح -مادية ومثالية- وليس الأفكار، التى تحكم مباشرة أفعال الناس، ومع ذلك فوجهات النظر للحياة التى أبدعتها الأفكار كانت عادة توضح الخطوط التى طبقًا لها تقود القوة الديناميكية للمصالح الفعل، ويقرر فبر أن ما يحدد وجهات النظر للحياة هو ما يرغب الإنسان فى أن يكون عليه أو ما يرغب الإنسان الحفاظ عليه، وتتضمن هذه الفكرة معارضة صريحة وهدمًا قويًا لوجهة نظر الماركسية التى تقرر أنه ليس إدراك الناس هو الذى يعين معيشتهم ولكن معيشتهم الاجتماعية هى التى تعين إدراكهم.

الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية

أراد فبر أن يثبت تهافت النظرية الماركسية التى تدعى أن النظام الاقتصادى هو المحرك والمغير للحياة الاجتماعية، فقد استطاع فبر أن يكشف عن أن أفكارًا معينة تكمن وراء شكل معين من الفعل الاقتصادى.

ففى علم الاجتماع الدينى كشف فبر عن أثر السلوك الموجه بالدين على النظام الاقتصادى، وابتدأ هذا البحث بدراسة أثر ظهور الدين فى مجتمع، فأول ظاهرة يصطدم بها هى ظاهرة القرابة، والمعروف أن علاقات القرابة أشد أنواع العلاقات مقاومة، ورغم ذلك وجد فبر أن علاقات الأخوة الدينية بين النبى والأتباع تخفض

من قيمة علاقة القرابة، إذ أنه على المعتنق للدين الجديد أن يقف وبصفة نهائية أشد التصاقًا بالنبى وأخوته فى الدين (ذلك يعنى أنه فى داخل المجتمع الجديد أنشأت الديانة النبوية أخلاقًا دينية للأخوة، هذه الأخلاق ببساطة اضطلعت بالمبادئ الأساسية للسلوك الاجتماعى والأخلاقى الذى منحه اتحاد الجوار، سواء أكان مجتمع فلاحين أو أعضاء قرابة دموية، أو أعضاء طائفة، أو الشركاء فى الملاحة والصيد، فعرفت تلك الجماعات عنصرين أساسيين: الأول: ثنائية أخلاق الجماعة الداخلية والجماعة الخارجية، ثانيًا: أخلاق الجماعة الداخلية، ونتيجة لهذه المبادئ فى الحياة الاقتصادية، فبالنسبة لأخلاق الجماعة الداخلية وجد الواجب الأساسى للأعضاء وهو المساعدة الأخوية فى الأزمات، وأجبر الغنى والنبيل على الإقراض بدون فوائد وإعطاء السلع لمنفعة الفقراء الذين لا يملكون وإعطاء السلف بدون مصلحة، ونشر الضيافة والمعونة بدون مقابل، وبدون تعويض آخر غير المعاونة، كل هذا نتج من مبدأ احتياجك اليوم قد يكون احتياجى غدًا، هذا المبدأ لم يكن بالطبع موزونًا عقليًا (اقتصاديًا)، ولكن أدى دورًا فى المشاعر، وتبعًا لذلك كانت المساومة فى مبادلة السلع ومواقف التسليف مثل الاسترقاق الناتج عن الديون مقصورة على الجماعة الخارجية)[1].

وفى بحثه عن الطوائف البروتستانتينية وروح الرأسمالية، يكشف فبر عن أثر الدين فى توجيه العلاقات الاقتصادية، فقد لاحظ أنه رغم الفصل الشديد بين الدولة والكنيسة فى الولايات المتحدة منذ منتصف القرن التاسع عشر، حيث يعتبر سؤال المواطن عن ملته ضد القانون، ورغم أنه توجد أعباء مالية كبيرة على المنتمين للكنيسة عن مثيلتها فى أوربا، ومع ذلك كان يوجد ٩٩٪ ينتمون للكنيسة، وكذلك كان سؤال المواطن إلى أى كنيسة ينتمى، يحدد مدى الثقة فيه، وكان السؤال يسئل بصراحة وبلا خجل. وعلى ذلك (إذا نظر الإنسان فى الحالة فى الولايات المتحدة، يمكن للإنسان أن يرى بسهولة أن السؤال عن البنوة الدينية كان دائمًا يوضع فى الحياة الاجتماعية وحياة الأعمال التى تعتمد على علاقات دائمة وائتمان وتصديق)[2].

(1) Gerth and Mills: op. cit, P. 329.

(2) Ibid.,P. 303.

وأورد فبر فى بحثه ملاحظات كثيرة رآها بنفسه، وأهمها ملاحظتان:

(الأولى عن بائع مسافر معه فى القطار يذكر لفبر دون أن يسأله، أن كل فرد قد يعتقد أو لا يعتقد كما يحب، ولكن إذا رأيت فلاحًا أو رجل أعمال لا ينتمى إلى أى كنيسة على الإطلاق، لن أثق فيه فى خمسين سنت، ثم يقول البائع: لماذا يدفع لى إذا كان لا يعتقد فى شيء»[1].

والملاحظة الهامة الثانية يذكر فبر فيها (أنه حضر حفل تدشين لأعضاء من طائفة البابتست وفى هذا الحفل رأى أعضاء الطائفة وقد أتوا من أماكن بعيدة إلى مكان التدشين، وهو عبارة عن حوض ماء يغذيه نهير صغير ينحدر من الجبال الزرقاء، وكانت باردة ومتجمدة، ورأى القسيس فى حلة سوداء غارقًا فى هذا الحوض حتى صدره. ورأى حوالى عشرة أشخاص فى أبهى حلل يوم الأحد، وخطوا فى البركة واحدًا وراء الآخر، واعترفوا بعقيدتهم البابتستية وغاصوا تمامًا ثم وقفوا مرتعشين يرتجفون فى ملابسهم المبللة، وخرجوا من البركة وهنأهم كل الحاضرين، وكان أحد أقارب فبر معه، وأشار إلى رجل كان غارقًا فى البركة، وقال له: انظر إليه لقد قلت لك ذلك، ولما سأله فبر، لماذا توقع قدومه؟ أجاب قريبه: لأنه يريد افتتاح بنك فى مدينة M، فسأله فبر هل هناك بابتستيون عديدون حوله حتى يمكنه أن يعيش؟ فأجابه قريبه: ليس على الإطلاق، ولكن مجرد أن يصبح بابتست سوف يحصل على رعاية وتأييد كل المنطقة وسوف ينتصر فى المنافسة على كل واحد»[2].

وأورد فبر ملاحظات أخرى كثيرة من هذا النوع، مما دفعه إلى تحليل هذه الظاهرة. ولقد وجد أن الانتماء إلى طائفة دينية معروف لدى المجتمع على أنه ضمان مطلق للكيفيات الأخلاقية للرجل، وخاصة تلك النوعيات المطلوبة للأعمال، وبذلك يضمن الانضمام إلى طائفة البابتست تسليم كل الإقليم وتصديق غير محدود وبلا أى منافسة، (فبصفة عامة هؤلاء الرجال الفنيين الذين نجحوا فى الأعمال هم أولئك الذين ينتمون إلى ميثودست Methodist أو بابتست أو الطوائف الأخرى)[3].

---

(1) Ibid.,P. 303.

(2) Ibid.,P. 304.

(3) Ibid.,P. 305.

وقد بحث فبر عن سبب تصديق الناس لعضو الطائفة، فوجد أن الطائفة أولاً متمسكة بالتقاليد الدينية، ومن ثَمَّ فهى لا تسمح بالانضمام لعضويتها إلا بعد استفسار دقيق عن السلوك، قد يمتد إلى الوراء إلى عهد الطفولة، ومن ناحية أخرى أن عضو الطائفة إذا وقع فى ضائقة اقتصادية نتيجة خطأ لا إرادة له فيه، فإن الطائفة تنظم وترتب له أموره، فتعطيه ضمانات لدائنيه وتساعده بكل أسلوب، ومن ثَمَّ يصبح توقع الدائنين والمتعاملين مع عضو الطائفة، الاطمئنان، مما يجعلهم يدفعون إليه بأموالهم لاستثمارها دون خوف، إذ أن الطائفة من أجل مكانتها وهيبتها سوف لا تسمح بأن يعانى الدائنون أى خسائر بسبب عضو الطائفة الذى وقع فى خطأ لم تعتبره الطائفة حاسمًا بالنسبة لفرصه فى النجاح، إذ المفروض أن الطائفة التى تعتبر نفسها ذات سمعة حسنة، لم تقبل فى عضويتها إلا شخصًا ذا سلوك جعله مؤهلا أخلاقياً، ومن ثَمَّ فإن عضوية الطائفة تعنى شهادة عن كفاءة أخلاقية، وخاصة أخلاق الأعمال عند الفرد)[1]. ويعتبر فبر أن هذا عكس العضوية فى الكنيسة التى يولد فيها الفرد وتضع بركتها على الصالح وغير الصالح، فالبنوة الكنسية هى فى الأصل إجبارية، ومن ثَمَّ لا تدل على شىء بالنسبة للكيفيات ونوع العضو، ولكن الطائفة هى اتحاد اختيارى للمؤهلين دينياً وأخلاقياً، وبالتالى: (الطرد من الطائفة لفرد بسبب جرائم أخلاقية يعنى اقتصادياً خسارة الضمان والتأمين، واجتماعياً الخروج من الطبقة)[2].

وقد كرس فبر جهدًا كبيرًا للكشف عن أصل هذه الظاهرة وتطورها، فيذكر أنه فى القرون الوسطى كان المسيحيون هم فقط المواطنون بالكامل، وكان الحرمان من عضوية الكنيسة له أيضًا نتائج سياسية، ولما أصبحت أوربا كلها مسيحية، وترعى الكنيسة الصالح وغير الصالح، تطورت المسألة إلى مبدأ من مبادئ المسيحية، وهو المحافظة على نقاء العشاء الربانى، ويتبع ذلك قضية من له الحق فى اختيار أو طرد فرد من العشاء الربانى لضمان طهارته، ويذكر فبر أن هذه القضية شغلت أوربا خلال القرن السابع عشر، وعند نشأة الطوائف الدينية وخاصة البيوريتان، اعتبرت

(1) Ibid.,P. 305.

(2) Ibid.,P. 306.

نفسها مسئولة عن نقاء العشاء الربانـى، ووضعت أسسًا للاختيار لعضوية الطائفة، تضمن بها أن لا ينضم لعضـويتها إلا الأفراد ذوى النوعيات والكيفـيات الأخلاقية الدينية التى تؤهلهم لحضور العشاء الربانى، ويذكر فبر أنه دار الصراع خلال قرون بين المبدأين، الأول الخاص بالكنيسة كاتحاد إجـبارى لإدارة عملية الصفح والبركة، والثانى الخاص بالطائفة كاتحاد اختيارى لأشخص مؤهلين دينياً.

ويركز فبر الانتباه على أثر مبدأ الاختيـار ونتائجه العملية الهامة فى التأثير على السلوك، بالإضافـة إلى الفكرة الحاسمة لحـفظ العشاء الربانى نقـياً، ومن ثَمَّ طرد الأشخاص غيـر المتطهرين، قادت فبر إلى معاملة نظام الكـنيسة على أنه فشل فى تشكيل طوائف، واعـتبـر أن البـيوريتـانيين القـدمـاء هم الذين اقتـربوا من نظام الطوائف.

فلقد كان نظام كنيسة البيوريتـان والطوائف يعمل من خلال فكرة ضرورة حاجة الفرد لامتلاك مقدراته، وكان نظام يربى ويختار النوعيات، فعضو الطائفة عليه أن يكون لديه نوعيات من نوع مـعين لدخول دائرة المجتمع، كـون الفرد حائزاً لتلك النوعيات، كان مهماً لنمو الرأسمالية الحديثة الرشيدة، إذ لكى يحافظ العضو على مصـيره فى هذه الدائرة، عليه أن يثـبت باستـمرار أنه حائز على هذه النوعـيات، وأنها متولدة فيه باستمـرار وثبات، وطبقًا لكل الخبرات لم يكن هناك وسائل أقوى لتربيـة السمات من تربيـتها خـلال ضرورة أن يثبت الفـرد ذاته فى دائرة اتحاداته، ولذلك كان النظام الأخلاقى المستمـر والمؤدب العنيف للطائفة، مرتبط بنظام سلطة الكنيسة البيوريتانية كتربية واخـتيار رشيد، وذات علاقة بالمسموحات والممنوعات. ووضعت الطوائف البيوريتانية فكرة اهتمام الفـرد بالاحترام الاجتماعى كأعظم قوة فى خدمـة تربية تلك السمـات. وبذلك وضعت الدوافع الفردية والمصـالح الذاتية للشخص أيضًا فى خدمـة المحافظة على الأخلاق البيوريتانيـة البرجوازية ونشرها، ويقوم هذا الأسلوب فى التربية على أسـاس المكافآت المقررة على السلوك. وتعمل هذه المكافآت من خلال شكل وظروف الوسـائل الخاصة بالخلاص، فكانت توضع المكافأة على إثـبات الذات أمام الرب بمعنى الحـصول على الخـلاص، الذى يوجد

عند كل الطوائف البيوريتانية، والثانى إثبات الذات أمام الناس، بمعنى تملك مصير الذات اجتماعـياً فى داخل طائفة البيوريتان، كل من المظهرين متبادلين ومتكاملين ويعملان فى نفس الاتجاه، فهما يساعدان على إعطاء روح الرأسمالية الحديثة.

ذلك بالإضافة إلى أن هذه الطوائف شكلت أحد أهم الأسس التاريخية لنزعة الفردية الحديثة التى تعتبر الحجر الأساسى فى المذهب الرأسمالى الحديث، ويتضح من ذلك أن فبر يركز ليس على المذهب الأخلاقى للديانة فى ذاته، ولكن على ذلك الشكل من السلوك الأخلاقى الناتج عنه، ذلك السلوك عند البيوريتانيين كان أسلوبًا للحياة معين ومنهجى وعقلى، مهد الطريق لروح الرأسمالية الحديثة.

وأيضًا فى بحثه عن الخلفية الدينية لتلك الطوائف البروتستانتينية، وجد فبر فى وثائقهم الأدبية، ما يؤيد أثر المبادئ الدينية لهذه الطوائف فى نشأة روح الرأسمالية الحديثة. فلقد وجد فى وثائق الكويكرز Quakers والبابتست تكرارًا وتركيزًا على حقيقة أن الخطيئة ابنة العالم تعمل على فقد الثقة فى الأعمال بين الواحد والآخر، ولكن لهم ثقة فى الاستقامة الدينية للمتدين، ولهذا أعطى الناس الائتمان وأسلموا أموالهم فقط للمتدينين، وأجروا عمليات الشراء فى حوانيتهم، لأنه هناك، وهناك فقط، يجدون الأثمان المحددة والأمينة، وكما هو معروف يقول دائمًا البابتستيون أنهم أول من رفع سياسة تحديد السعر إلى مبدأ، وبالإضافة للبابتست، أعلن الكويكرز صيحة تكشف عنها الفقرة التالية التى جذبت انتباه فبر، عثر عليها زميل له فى البحث فى وثائقهم (فلم يكن الأمر يتعلق بالقانون، إذ كان يتمسك الأعضاء الأوائل بكلماتهم وارتباطاتهم إذ يعتبرونها مقدسة.. هذه السمة لوحظ أنها صادقة لديهم فى أعمالهم التجارية، وعند بداية ظهورهم كمجتمع، عانوا كثيرًا كرجال تجارة، لأن الآخرين استاءوا من أحوالهم الخاصة، إذ أخذوا زبائنهم من حوانيتهم، ولكن بعد قليل كانت الصيحة العظمى ضدهم أنهم أخذوا تجاره البلاد فى أيديهم، نشأت هذه الدعوى جزئياً من تحررهم الشديد من التعقيدات التجارية بينهم وبين الآخرين، وكلية لأنهم لم يطلبوا سعرين للسلع التى يبيعونها)[1].

(1) Ibid..P. 312 - 313.

وكذلك وجد فبر، أن هذه الطوائف تعتقد فى أن الرب يبارك ويتفضل بالغنى على من يسره خلال التضحية أو خلال نوع سلوكه، وحولت الطوائف البروتستانتينية تلك الفكرة إلى مجال العمل، فكانت أحد مبادئ الرأسمالية المبكرة - وهو الأمانة خير وسيلة- هذه العلاقة بين المبدأ الدينى والمبدأ الرأسمالى كانت توجد عند كل الطوائف، ولكن كصفة متميزة ومستمرة وثابتة، فإنها توجد فقط عند البروتستانت.

يعتبر فبر أن (كل النمط الأخلاقى البرجوازى كان شائعًا منذ البادية عند كل طوائف التقشف، وهى متماثلة ومتطابقة للخلق الذى تمارسه الطوائف فى أمريكا فى الوقت الحاضر.

مثلا الميتودست Methodists يحرمون الآتى: ١- المساومة أثناء البيع والشراء، ٢- البيع بالأجل، ٣- جعل معدلات الربح أعلى مما يسمح به قانون البلاد، ٤- حشد الكنوز فى الأرض (أى عدم تحويل رأس المال السائل إلى الاستثمار فى السندات الحكومية)، ٥- الإقراض بدون التأكد من قدرة الإنسان لإعادة دفع الدين، ٦- الكماليات من كل نوع)[(١)]. وإلى جانب هذا الخلق هناك المكافآت الاجتماعية والأسس التنظيمية للطائفة الدينية.

وكانت هذه الاتحادات، بصفة خاصة، المراكب النموذجية للارتقاء الاجتماعى فى دائرة رجال الأعمال من الطبقة المتوسطة، إذ يعنى الانضمام إلى الطائفة أنه رجل مختبر أخلاقياً يستحق الائتمان، ويذكر فبر أنه يمكن بسهولة ملاحظة أن فرص العمل كانت غالبًا تتأثر بصفة حاسمة بهذا التصديق الشرعى. ومن ثَمَّ عملت هذه الطوائف على حفظ وانتشار روح أعمال البرجوازيين الرأسماليين بين شريحة واسعة من الطبقة المتوسطة، فالطبقة المتوسطة، لا سيما الشريحة الصاعدة، كانوا حملة هذا الاتجاه الدينى الخاص، والذى يمكن للفرد ملاحظته بينهم كمحدد لفرص النجاح، ويذكر فبر أنه معروف جيدًا، أن كثيراً من المؤسسين الأمريكان بل معظم رؤساء الصناعة والأقطاب الموثوق بهم ينتمون رسمياً للطوائف وخاصة البابتست.

(1) Ibid.,P. 313.

ويذكر فبر أن الإمعان الدقيق يكشف التقدم المتواصل لصفات عملية التحول للعلمانية فى الزمن الحديث، التى استسلمت لها كل الظواهر التى نشأت فى مفاهيم دينية، وليس فقط الاتحادات الدينية، والطوائف الدينية، التى كان لها تأثير كبير على الحياة الأمريكية ورغم أن الاهتمام الكنسى كان يتدهور بسرعة، ورغم أن كثيراً من هذه الظواهر بدت وكأنها تتفكك بسرعة وخاصة فى المنظمات الدينية، ومع ذلك يوجد لها رواسب ما تزال حية فى عديد من الميادين، فلقد ظلت صفة الائتمان لعضو الطائفة ثابتة.

فأصبح -١٩٠٦- نوع من الطوائف التى ينتمى إليها الفرد هى بالأحرى لا يعنيها الأمر سواء أكان الفرد ماسونى أو مسيحى علمانى أو أدفنسنت أو كويكر أو لا شيء، ما هو حاسم، أن يسمح الاقتراع بعضوية الفرد، بعد اختبار وتجربة أخلاقية فى مفهوم الفضائل المرغوب فيها للتقشف البروتستانتى، ومن ثَمَّ للتقاليد البيوريتانية القديمة، ولهذا يمكن ملاحظة نفس الأثر لعملية الاختيار.

وهكذا، أصبحت للطوائف الدينية والاتحادات الكثيرة الخاصة المشابهة والنوادى فى أمريكا، المؤسسة على عملية التجميع عن طريق الاقتراع، لها أهمية سياسية واجتماعية، حتى أن الحياة الكلية لليانكى النموذجى من الجيل الماضى سارت خلال سلسلة من هذه الاتحادات، مبتدئة بنادى الأولاد فى المدرسة، ومتقدمة إلى نادى رياضى أو لأى نادى طلابى من أى نوع، وإلى الأمام إلى أحد من النوادى المشهورة لرجال الأعمال والبرجوازيين، وأخيراً إلى نادي أغنياء منطقة المتروبوليتان.

ويعتبر فبر أن كثيراً من هذه النوادى الحاملة لتلك الاتجاهات تقود نحو جماعات المكانة العالية التى تميز النمو الأمريكى المعاصر، وتنمو هذه الجماعات المكانية إلى جانب الثراء المجرد، وبشكل أكثر فى تعارض معه.

ففى أمريكا مجرد النقود فى ذاتها تشترى القوة أيضًا، ولكن ليس الشرف الاجتماعى، بالطبع أن النقود وسيلة لاكتساب المهابة الاجتماعية، لقد كان التقليد القديم فى أمريكا يحترم الرجل العصامى، وكان الطريق إلى الشرف الاجتماعى

يعتمد على البنوة لكنيسة، وأخوة مهذبة فى كلية متميزة، ورسمياً مع طائفة ممتازة، فى الوقت الحاضر بدلاً من البنوة لطائفة، أصبح الانتماء لنادى متميز أمر جوهرى. منذ الماضى وحتى الحاضر الصفة الدقيقة للديمقراطية الأمريكية أنها مركب من الاتحادات الخاصة جداً، ولكن الاختيارية، ومن يريد أن يكون معروفًا فى هذه الديمقراطية، فى أى مركز كان، ليس عليه أن يتطابق مع تقاليد مجتمع برجوازى فقط، ولكن كقاعدة عليه أن يكون قادرًا على إظهار نجاحه فى اكتساب القبول بواسطة الاقتراع لأحد الطوائف أو النوادى أو مجتمعات الأخوة، وليس المهم من أى نوع كانت المهم أنه معروف أنها تصديق شرعى كاف، وذلك الذى لا ينجح فى الانضمام أو يتجاهل فعل ذلك، عليه أن يأخذ الطريق الصعب وخاصة فى الحياة العملية.

وعلى هذا يصبح المركز الحديث للنوادى الدنيوية والمجتمعات التى تحصل على أعضائها عن طريق الاقتراع، هى إلى حد كبير نتيجة عملية للتحول إلى العلمانية، وتشتق مراكزها من الأهمية الخاصة للنموذج الأصلى لهذه المؤسسات الاختيارية، أى الطوائف الدينية.

نظريته فى الطبقات

يتضمن بحث فبر عن أثر الطوائف البروتستانتينية وروح الرأسمالية، تركيزًا على عملية الاختيار القائمة على أساس اختيار دينى وأخلاقى، ذلك عندما كانت الطوائف الدينية تسود المجتمع الأمريكى، وعند تطورها نتيجة عملية العلمانية إلى اتحادات ونوادى، احتفظت هذه الأنواع الأخيرة بالسمات الرئيسية لعملية الاختيار، فأصبحت عملية الاقتراع تقوم بنفس الدور لضمان كفاءة لعضو وأهليته لعضوية الجماعة، وظلت هذه العضوية تحمل السمات الرئيسية لعضوية الطوائف الدينية فى الماضى، أى التصديق الشرعى بكفاءة العضو وأهليته للائتمان، ومن ناحية أخرى تعتبر تأييداً فى مجال الأعمال، أى تعضيداً له فى موقفه الاقتصادى، وهذا يتضمن زيادة فرص الحياة. ويعتبر مفهوم فرص الحياة من المفاهيم الأساسية فى تحديد الموقف الطبقى.

وإذا كان أسلوب التوزيع للممتلكات المادية يحدد فرص الحياة فى سوق المنافسة كما يذهب إلى ذلك كل من ماركس وفبر، فإن هذه الممتلكات المادية والحصول عليها تأثرت بشدة بعملية الترشيد البروتستانتى للمجال الاقتصادى، إذ أن عملية الترشيد دفعت أعضاء هذه الطوائف للإقلال من السلع الاستهلاكية، وعدم تجميد رؤوس الأموال، مما أدى إلى سرعة تراكم رؤوس الأموال لديهم، ومن ناحية أخرى مبدأ بذل أقصى جهد فى العمل إذ النجاح فى مجال الأعمال يباركه الرب ودليل على رضاه، يؤدى بالتالى إلى زيادة الممتلكات المادية، التى تؤدى بدورها إلى زيادة فرص الحياة، وزيادة القدرة على المنافسة فى السوق، كل هذا يكشف بجلاء عن أثر الأفكار فى توجيه الفعل الاقتصادى، والأهم فى تحديد الموقف الطبقى، وأيضًا فى عملية الحراك الاجتماعى.

وهكذا يمكن القول أن فبر فى دراسته للعضوية فى طائفة أو اتحاد أو ناد كشف عن التداخل الشديد بين المكانة الاجتماعية والموقف الطبقى، وفى دراسته لأخلاق البروتستانتية وعلاقتها بالمجال الاقتصادى كشف عن أثر الأفكار فى الحراك الاجتماعى وبالتالى فى تحديد الطبقة.

فإذا كان الموقف الطبقى يحدده بدقة الموقف الاقتصادى كما يذهب إلى ذلك ماركس، فإن فبر أفصح عن التداخل الشديد بين ذلك الموقف، وموقف آخر هو موقف جماعة المكانة الاجتماعية المشتق من العضوية فى طائفة أو اتحاد أو ناد، أى العضوية فى جماعة مكانة، وهذا الموقف الأخير يحدده تقييم إجتماعى، ويقوم فى أساسه على عنصر لا مادى وذاتى.

ويعتبر فبر أنه بهذا العمل قد استطاع أن يمزج بين النظريتين الاجتماعيتين المتقابلتين، وهما النظرية الذاتية والنظرية الموضوعية عن التدرج الطبقى، فالاقتصاديين الكلاسيك الإنجليز وخاصة ريكاردو Ricardo، والذى أخذ عنهم ماركس يمثلون النظرية الموضوعية، فوصفوا الطبقة فى مصطلحات من الدخول، ومن ثَمَّ يتكون البناء الطبقى من مالك الأرض وصاحب المشروع والعامل، لا يهم ما إذا كانت تدرك الطبقة شيئًا عن موقفها أم لا، فموقفهم الطبقى قد حدده بدقة

موضعهم ووظيفتهم فى داخل النـظام الاقتصادى الموضوعى، وإن كان ماركس لم يقف عند هذا الحد فقد أضاف وجهًا جديدًا تاريخياً، بإبراز الطبيعة الخاصة الحديثة للطبقات البرجوازية والبروليتاريا.

أما النظرية الذاتية للطبقات، فقد وضعت أهمية كبرى على السمات النفسية لأعضاء الطبقات الاجتماعية، فمفاهيم الاحترام والشرف الاجتماعى والعناصر التصورية للآراء السياسية والدينـيـة والمـشاعر المتـعلقة بأسلـوب الحياة المحـليـة أو الإقليمية ظهرت فى تلك النظريات لتحل محل النظريات الصارمة الجامدة للاقتصاديين.

ويلاحظ أن تشكيل «جمـاعة المكانة» يعزى إلى فكرة يتـمسك بها بصفـة عامة أعضاء الجماعة، هذه الفكرة بدورها لها نتائج اجتـماعية واقتصادية حيوية. وبالمثل تشكيل جماعة الطبـقة يحدده الموقف الاقتصادى الذى يشارك فيـه الجماعة، وهذا الموقف المادى المشترك، يتشكل أساسًا من تأثيـر الأفكار بين أعضاء الجماعة، تلك الأفكار تكون كامـنة، وكمونهـا لا ينفى وجودها، إذ تظهر واضـحة جليـة عندما تتوفر لها قيادة توجهها نحو أهداف، إذ يعـتبر فبر (أن درجة انبعاث الفعل المشترك وربما الفعل الاجتـماعى من الأفعال الجمعـية لأعضاء طبقة هى مـتعلقة بالظروف الثقـافية العـامة، وخاصـة تلك التى من النوع العقلى، وهـى أيضًا متـعلقة بمدى المتناقضات التى تولـدت فعلا، وبصفة خاصـة متعلقة بوضـوح الصلة بين أسباب ونتائج الموقف الطبقى، ومهما يكون اختلاف فرص الحـياة، فهذه الحقيقة فى ذاتها طبقًا لكل التـجارب والخبرات، بلا شك تعمل على توليـد العقل الطبقى، ولكنه مـشـروط بالإدراك الواضح لنـتـائج الموقف الطبـقى لأنه عند ذلـك فـقط يمكن الإحساس بتناقض فرص الحياة)[1].

ويبدو من عمل فبر أنه كان يعنى أولياً بالتوترات والتداخل بين الطبقة والمكانة، وبين المصلحة والفكرة، لأنه رأى فى ذلك ديناميكيـة النمو التاريخى ذلك يعنى أن فبر لم ير فـى الصراع الطبقى ما رأته الماركـسية من دور حاسم فى مـسار التاريخ الإنسانى، وإن كان فبر لم ينكر الصراع الطبقى ونصـيبه فى التاريخ، إلا أنه اعتبر

(1) Gerth and Mills: From Max Weber. P. 184.

(أن الصراعات الطبقية القديمة كانت صراعات طبقية حقيقية إلى حد بعيد، وليست صراعات بين جماعات مكانة)[1]. واعتبر تركيز ماركس على العامل الأجير الذى أفرزته وسائل الإنتاج، ما هو إلا مجرد حالة خاصة من اتجاه عالمى، فبالمثل أفرزت وسائل العنف الجندى الحديث، وأفرزت وسائل البحث العالم، ووسائل الإدارة الموظف المدنى، وهكذا حاول فبر وضع أعمال ماركس فى مضمون أكثر عمومية، موضحًا أن نتائج ماركس تقوم على ملاحظات اشتقها من حالة خاصة رتبها ماركس، ولكن يمكن رؤيتها أحسن كإحدى الحالات فى سلسلة واسعة من الحالات المتشابهة، واعتبر فبر أن السلسلة ككل توضح الاتجاه المتميز الواسع لعملية البيروقراطية، وهكذا وضع فبر فى مقابل الصراع الطبقى عند ماركس مفهوم البيروقراطية الرشيدة.

مفهوم الترشيد

فلقد اعتبر ماركس أن الاقتصاد الحديث لا عقلى أساسًا، هذه اللاعقلية للرأسمالية تنتج من تعارض التقدم التكنولوجى الواعى لقوى الإنتاج، وبين قيود الملكية الخاصة والربح الخاص ومنافسة السوق غير المنظمة، ومن ثَمَّ يتميز النسق بفوضى الإنتاج.

ولكن فبر لم يركز انتباهه على مشاكل ديناميكيات الرأسمالية ومشكلة دورة العمل والأزمات الرأسمالية، التى شغلت انتباه ماركس وجعلته يصف الرأسمالية بفوضوية الإنتاج: هذا الإغفال الذى تعمده فبر له أهمية بالنسبة لمفهومه عن الترشيد فى المجتمعات الحديثة.

فعند ماركس خدمت العناصر العقلية للمجتمع، العناصر التى لا يمكن السيطرة عليها واللاعقلية، فعملت بذلك على زيادة المتناقضات، بينما عند فبر الرأسمالية هى الشكل الأعلى للعمليات العقلية، فتفصح نظمها عن تجسيد للعقلية فى نمط من البيروقراطية، فتتنافس المؤسسات الكبيرة مع الدولة البيروقراطية فقط فى رفع الكفاءة العقلية واستمرار العملية والسرعة والدقة وحساب النتائج، ويستمر

---

(1) Ibid.,P. 185.

كل هذا فى داخل النظم التى تدار عـقليّاً، وتشغل الوظائف المؤتلقـة والمتخصـصة مركز الانتباه فى النظام، ومن ثَمَّ يكون كل البناء ديناميكياً.

وهكذا أثبت فبر للبيروقراطية وجهها العقلى، وأظهر إعجابه بالنظام الرأسمالى المدار بيروقراطياً، واعتـبر أن الرأسمالية الصناعية الحديثـة استوعبت النظم الأخرى فى تصورها هى، المتجه نحو الترشيد لكل وجوه الحياة.

ويلاحظ أن هناك خط فكرى واضح يربط بين شـتى بحوث فبـر، وهو عنصر الترشيد Rationalization الذى يظهر بوضوح أنه أكثر العناصر عمومية فى فلسفته عن التاريخ، حتى أنه يجعل من فلسفـة فبر كنظرية تطورية تجعل من التاريخ نمواً مستقيـمًا، فلقد اعـتبر فـبر أنه خلال نشـأة النظم وتدهورها، وصعـود وهبوط الطبقات والأحزاب والحكام، أتمت الإنسانية الاتجاه العام للترشيد الدنيوى، واعتبر فبـر أن هذه العملية اسـتلزمت إيقاظ العالم وإزالة أوهامـه، ومن ثَمَّ يقاس المدى والاتجاه للتـرشيـد سلبيّـاً فى مصطلحـات من درجة إزاحـة العناصر السـحرية. وإيجابيّـاً إلى مدى ما ربـحته الأفكار بانتظام من تماسـك ودوام، وهكذا (يجعل مفهـوم الترشيد أعـمال فبر تظهـر كما لو كانت مـسألة نمو مستقـيم، لنقول من السحـر إلى التفكيـر العلمى أو من اتجاه أولى سيـاسى إلى اتجاه أولى رأسـمالى للمشاريع الاقتصادية)[١].

ففى علم اجـتماعه الدينـى نجد عنصر الترشـيد واضحًـا، فقد تتبع فـبر تحليل تدهور السحر حتى ظهور الأنبياء أى الديانات العالميـة، واعتبر هذه العملية ترشيداً متـزايدًا فى مقـابل التدهور للسحـر، وفى مقـال فبر عن التـوترات بين الديانات الأخوية والمجال الاقتـصادى كشف عن عمليات الترشيـد التى اتخذتها الطوائف، وفى مقـاله عن البروتستـانتينية جـعل تعاليم كالـفن عن القدرية النقطة الأساسـية للتحليل، وأظهر فى هذا التـحليل عملية الترشيـد المتزايد للمذهب اللاهوتى. ولما كان مهـتماً أيضًا بتـحليل السلوك الإنسانى، ففى قلب هذا التحـليل وجد الخوف الدينى للمؤمن من أجل خلاص روحه، ذلك الخوف قدم الدوافع للتنظيم المنهجى

(1) Bendix,Renhard: "Max Weber's Sociology to day" International social science Journal. Vol. XVII No., 1956 P.11.

للحيـاة التى رأى فيـها جـوهر روح الرأسـمـاليـة. وكذلـك بذلت الطوائف البروتستانتينية جهدًا ترشيديّاً كبيرًا لتشكيل الحياة الاقتصادية ومن أجل هذا الغرض حلل فبر أنواعًا أخرى من عمليات الترشيد فى الديانات الصينية والهندية.

لهذا اعتبر فـبر عملية الترشيد قوة ثورية هامة للـتاريخ لا تقل أهمية عن القوة الثورية للإلهام. ولقد بحث الأساليب الخاصة الـتى يحصل بها الترشيد على القوة المهمينة عـلى الحياة الاجتمـاعية، فوجد أنـه بينما يعمل الإلهام من خـلال عملية ثورية العقول، فإن عـملية الترشيد تعمل من خـلال ثورية الظروف المادية للحياة، ومن ثَمَّ فمنطقتها أصلاً فى المجال الاقتصادى.

واعتبر فـبر أن الرأسمالية هى أعظم قوة ثورية فى العـالم الحديث تمامًا مثل ما فى السياسة. وفى كل من الحالتين البيـروقراطية هى مركبة العملية الثورية. واعتبر بذلك البيروقراطية هى الشكل الفنى الأكثر كفاءة عقليّاً.

واعتبر أن العوامل الروحية تلعب دورًا هامّاً فى الإنجاز والإسراع بهذه العملية، وهى عملية الترشيد العالمى.

***

جورج ميد
GEORGE MEAD
(١٨٦٣- ١٩٣١)

ولد ميد فى مشاشوستس Massachusettes، ابن رجل دين بيوريتانى. وتعلم فى كلية أبرلن Oberlin، ثم جامعة هارفارد ثم جامعة ليبزج Lepzig، ثم جامعة برلين فى ظل المثالية الألمانية التقليدية والعملية الأمريكية. ولقد قدم ميد بحوثًا عن أفكار كل من سمل Simmel ودوى Dewey. وأثناء عمل ميد مع دوى فى جامعة شيكاغو، ركز ميد على فهم التفاعل المتبادل والذات الاجتماعية social self فى داخل محتوى مجتمع يعايش أعلى مستويات التصنيع والتحضر ونزعات الإصلاح والنزعة العملية والمثالية. ومن ثَمَّ كان وعى الإنسانية بذاتها يتزايد تبعًا لذلك، وكان ميد فى مقدمة هذه العملية. وتتضمن أعماله الرئيسية العقل والذات والمجتمع (١٩٣٤) Mind, Self and Society، وفلسفة الفعل (١٩٣٨) The Philosophy if the Act.

أهدافه:

كان هدف ميد الأولى، هو دراسة نشاط أو سلوك الأفراد كما يوجد فى العملية الاجتماعية(١). وفى محاولته فهم مثل هذه الظاهرة كوظيفة لمحتواها الاجتماعى والسيسيولوجى، وركز على الوحدات الصغرى للسلوك الاجتماعى، وذلك فيما يقابل المعنى عند فبر. وتبعًا لذلك ركز على الأهمية السسيولوجية للتفاعل الاجتماعى والعقل واللغة بالذات. وهكذا يمكن اعتبار ميد من أوائل أصحاب اتجاه علم النفس الاجتماعى.

(1) Meag, G. H: "Mind, Self and Society" University of Chicago PRess Chicago, 1934.

نظريته

اعتبر ميد أن الفرد رشيد وأنه نتاج العلاقات الاجتماعية Product of social relations. ونرى هنا وجه الشبه مع ما ذهب إليه فبر.

واعتبر ميد أن الحقيقة هى كل من الفردى individual والاجتماعى Social. مثل هذه الدراسة ذات المستويات المتعددة ذات أهمية كبيرة لأنها عكس ما كان قبلها من النظريات التى كانت تتعامل مع الوحدات الكبرى.

واعتبر ميد أن المجتمع ديناميكى وتطورى ومستمر فى تقديم أنماط جديدة ومتغيرة من النشأة الاجتماعية للأفراد. ويلاحظ أن تلك النظرة الديناميكية والمعيارية للمجتمع تتوازى مع تركيز فبر على المعنى والترشيد.

واعتبر ميد أن الذات الاجتماعية social self تتطور خلال سلسة معينة؛ يتم التفاعل الاجتماعى خلال الاتصالات الرمزية واللغة: خلال اللغة يتعلم الإنسان الاتجاهات والعواطف ومن ثَمَّ يصنع العقل mind والذات self. والذات الاجتماعية تتطور خلال ثلاث مراحل: (مرحلة المحاكاة فى الأفعال ومرحلة اللعب The Play stage ومرحلة الإلمام بقواعد اللعبة The game stage. والمرحلة الأولى تحدث خلال السنة الثانية من العمر حيث يقلد فيها الطفل سلوك الآخرين المحيطين به مثل الآباء والأخوة والأخوات، أما المرحلة الثانية فإنها تبدأ عندما يصل الطفل إلى سن الثالثة وتتسم بميل الطفل إلى اتخاذ أدوار الآخرين حيث يلعب دور الأم أو دور المدرس أو رجل الشرطة وفى هذه المرحلة يبدأ الطفل فى الخروج عن نطاق نفسه أى أنه يبدأ فى الاهتمام باتجاهات الآخرين نحوه بوصفه موضوعًا object. واتخاذ دور الآخر هو العملية فى تكوين الذات. وفى مرحلة اللعب هذه يكتسب الفرد مجموعة من الذوات selves، يتم التكامل بينها فى المرحلة الثالثة، وهى المرحلة التى تظهر فيها الذات الموحدة unified self، وفى هذه المرحلة يصبح الطفل قادراً على تبنى اتجاهات كل أعضاء المجموعة التى ينتمى إليها وعلى تصور دور كل فرد فى المجموعة والقيام به. وقد سمى ميد المجموعة الاجتماعية التى يكون الفرد من خلالها ذاته بالآخر المعمم generalized other.

ومن خلال هذا الآخر المعمم يمارس المجتمع الضبط على سلوك الأفراد الأعضاء فيه)[1].

واعتبر ميد أن نتاج هذه العملية (المراحل الثلاث) هي صياغة الذات الاجتماعية، التي تتركب من عنصرين رئيسيين: الأول (أنا I فاعل) وهي استجابة الفرد لاتجاهات الآخرين، الثاني (مفعول me) وهو عبارة عن الاتجاهات الاجتماعية التي يتعلمها الفرد أثناء عملية التنشئة الاجتماعية.

واعتبر ميد أن الفرد يمتلك ذاتًا اجتماعية فقط في حالة علاقاتها بذوات الأعضاء الآخرين لجماعته الاجتماعية، وأن بناء ذاته يعبر أو يعكس نمط السلوك العام لجماعته الاجتماعية التي ينتمي إليها، تمامًا مثل ما يعبر بناء ذات كل فرد آخر ينتمي لهذه الجماعة الاجتماعية)[2].

ومن المهم ملاحظة أن ميد لم يأخذ ولم تكن دراسته حتمية بالنسبة للذات الاجتماعية، بل بالأحرى، اعتبر ميد أنه بالرغم من التنشئة الاجتماعية أي التطبيع الاجتماعي، فإن عمليات الذات تتضمن وجوهًا إبداعية وتلقائية تساهم في التغير الاجتماعي، واختراع أنماط جديدة من التنشئة الاجتماعية.

وهكذا جعل من الفردية الإنسانية لديها القدرة على المساهمة في استمرار الديناميكية الاجتماعية والتغير.

وهكذا يمكن القول أن ميد اعتبر أن المجتمع يمثل نسق ديناميكي من التنشئة الاجتماعية، والذي في داخله تتشكل الذات الاجتماعية خلال التفاعل واللغة أهم أدواته. وتتقدم التنشئة الاجتماعية خلال ثلاث مراحل متميزة، ومن ثَمَّ يعتبر نموذجه نسقي ويركز على الوحدات الصغرى، وقد حددته نظرة تطورية. وتبعًا لذلك فالحقيقة الاجتماعية هي دائمًا في حالة صنع، وذلك استجابة لنشاط الأفراد المبدع التلقائي في تطوير أشكال جديدة من التنشئة الاجتماعية والذوات الاجتماعية.

***

(١) دكتور سمير نعيم أحمد: النظرية في علم الاجتماع، دار المعارف ١٩٧٩، القاهرة. ص ٢٥٥.

(2) Mead: op. cit. P. 164.

النمط الطبيعى للنزعة السلوكية الاجتماعية المبكرة

هذا النمط من النوع الذى يهتم بدراسة الوحدات الصغرى واستقرائى ومعيارى. وعلى أى حال فإن هذه النزعة تقوم على أساس افتراضات تهتم بخصائص الطبيعة الإنسانية والغرائز الإنسانية.

***

جورج سمل
GEORGE SIMMEL
(١٨٥٨- ١٩١٨)

ولد سمل ابن رجل أعمال يهودى، وتعلم التاريخ والفلسفة بجامعة برلين التى عمل بها محاضراً فيما بعد. وتأثر بأعمال كانت Kant وداروِن وسبنسر، ويعتبر سمل ممن ساهموا فى تأسيس علم الاجتماع الحديث فى ألمانيا. ويتضمن أهم ما نشره كتاب (عن القرون الاجتماعية (١٨٩٠) On Social Differentiation، وفلسفة النقود (١٩٠٠) The Philosophy of Money، وعلم الاجتماع: بحوث حول أشكال الاجتماع (١٩٠٨) Sociology: Investigations on the forms of Society.

أهدافه:

كان سمل مهتماً بأنماط وأشكال التفاعل والاتحادات فى المجتمع. بمعنى أنه كان مهتماً بتجريد الصور الرئيسية للسلوك الاجتماعى فى المجتمع، (ويقصد بالصورة ذلك العنصر الذى يتحقق فى الحياة الاجتماعية، ويكتسب خاصية الاستقرار النسبى ويتخذ شكلاً نمطياً، متميزاً عن المضمون أو المحتوى الذى يخضع للتغير المستمر، فتحليل الصور أو الأشكال تحليلاً مجرداً هو جوهر الدراسة، لأنه يقتضى دراسة البناء الواقعى للمجتمع[1].

مثل تلك الدراسة كانت تهتم بالوحدات الصغرى microscopic، ولكن ما هو أهم أنها تتضمن شجباً ورفضاً للنظريات العضوية عن الحقيقة الاجتماعية. فقد اعتبر سمل أن المجتمع لا يوجد كنسق منفصل، ولكن بالأحرى فإن المجتمع منغرس فى أشكال أو صور العلاقات الاجتماعية المتشابكة، هذه الأشكال من العلاقات التى اتجه ورغب سمل فى دراستها.

---

(١) فيماشيف: «نظرية علم الاجتماع»- ترجمة دكتور محمود عودة، دكتور محمد الجوهرى، دكتور محمد على محمد، دكتور السيد الحسينى، دار المعارف- القاهرة ١٩٧٧. ص ١٥٩.

نظريته

اعتبر سـمل أن المجتمع ليس عضوياً، ولكن اصطلاح مـجتمع اسم يدل على مجموعـة من الأفراد المتفاعلين. وطبقًا لذلك أصبح علم الاجـتماع عند سمل هو دراسة أنماط التفاعـل وأشكال الاتصالات، طالما أن هذه الظواهر هى الموجودة فى الواقع، وأنها توجد كعملية Process.

اعتبر أن المجتمع يوجد كوظيفة للتنشئة الاجتـماعية أكثر منه كحقيقة مستقلة. وتبـعًا لذلك اعـتبـر أن الفــرد هو نتاج المجـتمع. ومـن ثَمَّ يصبح كل من الفــرد والمجتمع مواضيع هامة لعلم الاجتماع..

اعتبر سمــل أن خواص أى جماعة معينة يمكن رؤيتهـا من خلال نوع التفاعل والاتحاد وبصفة خاصــة حجم الجماعة. وتبعًا لذلك اعتبر سـمل أن حجم الجماعة يحدد شكل الاتحاد، أى أن هذا الحجم يحدد الشكل. ومن ثَمَّ يمثل حرية عالية، ولكن فى الاثنين يوجـد الاعتـماد، وتسـود السلطة فى الثلاثة، وتحكـم الأعراف mores الجماعات الصغيرة، والقوانين تحكم الجماعات الكبيرة.

واعتبر سمل أنه فى داخل أى جماعة يوجد الغريزة الإنسانية الهامة وهى تجاهل الآخرين، وهى التى تؤدى إلى التنافس وذلك هو العنصر الرئيسى فى نظريته.

وتؤدى هذه الغريزة إلى استمرار الصراع، وهو جوهر الحياة الاجتماعية والتطور الاجتـماعى..وتبعًـا لذلك تصبح العلاقـة بين الفرد والمجتـمع جدلية (دياليكتـية dialectical) بينما يؤدى التصنيع إلى مزيـد من حرية الفرد، ولكن تزيد أيضًا من الاغتراب. كما رأى سمل أن من آثار التقدم التناقض، بمعنى أن الصراع يؤدى إلى التطور الاجتماعى ولكن فى نفس الوقت يزيد مشاكل الفهم عند الفرد[١].

***

(١) اعتمد فى هذا المقال على

Wolff, K.H. (ed. and trans): The Sociology of George Simmel" Free Press New York, 1950.

وليم سمنر

WILLIAM SUMNER

(١٨٤٠- ١٩١٠)

سمنر هو ابن مـيكانيكى سيارات إنجليزى، تعلم فى أكسفورد Oxford ثم فى جامعة Yal. وتعلم اللغة الفرنـسية والعبرية واللاهوت. وبالرغم من هذه الثقافة الكنسيـة وخط حياته الأول الدينى، فـقد تأثر سمنر بشـدة بآراء سنسر، ودارون، كـما اهتم بالإنثـروبولوجـيا وعـلم الآثار. كمـا أنه انشـغل بالمسائل الـسيـاسيـة والاقتصادية والاجتماعية التى كانت فى عصره.

ويعتبر أعظم مؤلفاته كـتاب الأساليب الشعبية (١٩٠٦) Folkways وله مؤلف آخر لم يكن له من شهرة مـثل الأول، وهو علم المجتمع (١٩٢٧) The Science of Society الذى لم يتمه وأنجزه تلميذه ألبرت كيلر. وما نهتم به فى هذا المقام هو ما كتبه سـمنر عن البناء المعيارى للمجتمع وأساسه الغـرائزى فى مؤلفه الأساليب الشعـبيـة. وهكذا فإن كـان سمنر يعتـبر من أصـحاب نظريات صـراع الوحدات الكبرى. فإن اهتـمامنا به هنا يتركز حـول عناصر السلوك الاجتمـاعى فى نظريته والتى تبرز أساس هذه النظرية.

أهدافه:

اعتبر سـمنر أن علم الاجتماع هو دراسة قوانين التطور الاجـتماعى، على كل من المستويين الوحـدات الكبرى والوحدات الصغرى. ومن ثَمَّ يصـبح عمل عالم الاجتماع الرئيسى هو تتبع هذه القـوانين التطورية فى الظواهر الاجتماعية من أجل أن يضاعف النمو الاجـتماعى الرتيب، وعند مستـوى السلوكيين الاجتمـاعيين، يتضـمن هذا تحليلاً للـعلاقة بين الدوافـع الفردية وبين تطور ونمو نسـقه المعـيارى (الأساليب الشعبية).

نظريته

تحت تأثير نظريات سبنسر وداروين، جعل سمنر دعواه الأساسية أن التطور قوة أساسية وقانون. فعنده يتطور المجتمع إلى مستويات أعلى من التنظيم خلال عمليات التنافس والتعاون، وأن البقاء للأصلح.

واعتبر سمنر أن فى هذا التطور ينغرس قانون السكان، الذى يقول إن السكان يميلون إلى الزيادة إلى حد قوة إمداد البيئة، وقانون الغلة المتناقصة. ويقدم التوليف بين قانون السكان وقانون الغلة المتناقصة أهم الظروف الاجتماعية. وأدى ذلك إلى أن ينمط سمنر المجتمعات إلى نمطين مزدحم السكان، وقليل السكان. ويتميز القليل السكان باقتصاد الوفرة، والديموقراطية، وطبقات اجتماعية أقل. بينما المزدحم السكان يتميز باستخدام منابعه إلى أقصى حد، وتضبطه قوة الصفوة، كما يتميز بشدة الفروق الطبقية.

وهكذا حاول سمنر رسم صورة مطابقة لأثر النمو السكانى على المنابع الطبيعية، وفى داخل هذا الإطار، قرر سمنر بأسلوب يجعله من أصحاب الحتمية الاقتصادية، أن الفقر هو نتيجة الجهل، ويعنى الجهل بقوانين التطور.

وعند مستوى تفاعل الأشخاص، اعتبر سمنر أن السلوك تنمطه الأساليب الشعبية والأعراف، وبهذا الأسلوب فقد اتخذ لنفسه نظرة معيارية للظواهر الميكروسكوبية (الوحدات الصغرى).

واعتبر سمنر أنه يقبع وراء عمل الأساليب الشعبية والأعراف المصالح الإنسانية أو الدوافع الإنسانية، مثل الجوع، الحب، والخوف، والغرور والزهو. ويقبع وراء هذه المصالح، بالتالى الدافع الإنسانى الرئيسى المنفعة advantage والضرورة expediency.

واعتبر أنه من هذه المصالح والدوافع تنمو الأساليب الشعبية عن غير وعى أوقصد وتلقائياً وبدون ترتيب، ويعبر عن ذلك بقوله (فإذا وضعنا كل ما تعلمناه من الأنثروبولوجيا والأثنوجرافيا عن الناس البدائيين والمجتمع البدائى، ندرك أن أول عمل للحياة هو أن نعيش، فيبتدئ الناس بالأفعال وليس بالأفكار، وكل لحظة

تجلب ضرورات يجب إشباعـها فى الحال. فكانت الحاجة أول خبـرة ثم تبعها فى التو مجهـود كثير الخطأ لإشباعها. . . إنه أول النقط الهـامة أن يلاحظ أن الأفعال الأولـى التـى بها حـاول الإنسـان إشـباع حاجاته، كان كل فـعل يقف بنفسه، ولا يرمى إلى أبعـد من الإشبـاع المباشـر. من الحاجـات المتكررة نشأت الـعادات للأفراد والعادات الاجـتماعية للجـماعة، ولكن هذه النتائج لم تكن أبدًا مـشعوراً بها، أى عن وعى، ولم تكن مرئية أو متعمدة)[١].

وخلال الطقـوس الثابتة والمستـمرة تؤسس الأساليب الشعـبية أخيـرًا على أنها الصواب والحق وتقـويها المحـرمات Taboos والجزاءات sanctions ثم تقوى أكـثر بالجماعة الداخلية ingroup والجماعة الخارجية (فكل جماعة تنعش كبريائها وعزتها وتؤيد تفوقها وتمدح ديانتها، وتنظر باحتقـار إلى الخارجين، وتعتقد كل جماعة أن أساليبها الشـعبية هى الوحيدة والسليمة، وإذا لاحظت أن الجـماعات الأخرى لها أساليب شعبية أخرى فهى تستحق احتقارها)[٢]. ومن ثَمَّ تتحول الأساليب الشعبية إلى معايير تعنى برفاهية الجماعة.

ويخضع كل فرد للمعايير التى أصبح لها قـدسيتها وجلالها لأنها أتت إلينا من المواضى، ومن ثَمَّ توجه سلوك الأفـراد. ويعبر سمنر عن ذلك بقـوله: (لقد أتت إلينا المعاييـر من الماضى ولقد ولد كل فـرد بينها، وطالما أنه ولد فى جوها، فـهو لايستطيع أن يضيف عليها أو يتركها، ومن ثَمَّ يذعن كل فرد لتأثير المعايير وتشكله قبل أن تكون له القدرة على فحصها عقلياً[٣].

وليس معنى هذا أنها لا تحـمل فى طياتها الأسباب العقليـة لرسوخها ولكن بالعكـس (هى تتضـمن فى ذاتها تبريراتها الذاتـيـة بواسطـة التقاليد، والفائـدة - المصلحـة أو اللـذة- والرغبـة، وتؤيد بجزاءات، كما أنها ليـست منبهة للفكر بل على العكس، إذ قد تم صنع التـفكـير وأصبح منغرسًا فـى المعايـير، وهى

(1) Sumner, W.G.: "Folkways} Ginnand Com. Boston U.S.A.P.2-4.

(2) Ibid.: P. 13.

(3) Ibid.: P. 76.

لا تحتوى إطلاقًا أى استعداد لتغيير ذاتها، فهى ليست أسئلة ولكنها إجابات لمشاكل الحياة، فهى تضع نفسها كشىء نهائى وغير متغير لأنها تقدم إجابات معينة على أنها صادقة)[1].

ويضرب سمنر مثلاً على خضوع سلوك الأفراد أو الجماعات للمعايير بقوله (هناك من يريدون مناقشة الزواج المزدوج. . . فشلوا فى الحصول على من يسمح لهم بذلك. والبعض الآخر يريد مناقشة الملكية، وبالرغم من أن هناك كتابات نشطة فى هذا الموضوع فلا أحد يريد مناقشته. الزواج والملكية هم فى المعايير. . . الشىء الذى يلاحظ فى كل هذه الحالات أن الجماهير تعارض كل مناقشة ضد المعايير)[2].

وهكذا تباشر المعايير ضغطًا ودفعًا نحو الثبات، وتمثل أسس الضبط الاجتماعى، والبناء الاجتماعى، وفروق الثقافات الفرعية والأنساق النظامية، وهكذا تصبح المعايير وقد انتظمت institutionalization أى صارت نظمًا.

والنظم الاجتماعية عند سمنر (إما أن تنمو crescive أو تسن anacte، وتكون نامية عندما تأخذ شكلها فى المعايير، حيث تصبح المجهودات خلال الاستعمال الطويل محددة ومخصصة. الملكية والزواج والدين أهم النظم الأولية، لقد بدأوا فى الأساليب الشعبية. ثم أصبحت عادات اجتماعية، ثم نمت إلى معايير عن طريق إضافة شىء من فلسفة الرفاهية مهما كانت فجة، ثم ازدادت تحديداً وتخصصاً للقواعد والأفعال المقررة، واستعملت المعدات فأنتج ذلك بناءً، واكتمل النظام)[3].

هذا البناء ليس بأى حال ثابت static، فالأعراف قد تصبح جامدة أو صلبة أوحتى تفسد ومن ثَمَّ تخضع للتحسين (إذ عادة تكون الجماعات مجبرة على أن تعمل بأساليب غير معتادة، لأن التغير أفقد المعايير التقليدية قدرتها على الإشباع، ومن ثَمَّ اتضح فسادها وأصبحت سيئة الأثر. فالمعايير السيئة هى تلك التى لا تلائم ظروف الحياة وحاجات المجتمع فى ذلك الوقت)[4].

---

(1) Ibid.: P. 97.
(2) Ibid.: P. 76-77.
(3) Ibid.: P. 54.
(4) Ibid.: P. 99.

فإذا مـا ساءت المعـايير يدفع ذلك أعضـاء المجتـمع إلى إعادة فحـص أساليب التفكير والعـمل ويتركوا السلوك المنتظم أى المضبـوط بواسطة النظم والذى اعتادوه من قبل، يتركـوه إلى نوع من السلوك الجمعى فيلتف الناس حـول بعضهم وتنشط عملية رد الفعل الدائرى فى تقريب المسافات الاجـتماعية (إذ أنه إذا تجمع عدد من الأشخاص مع بعض، وخـاصة إذا كانوا متحـمسين بنفس المشاعر مـنبهين بنفس المصلحة، ينقلون الدافع كل إلى الآخـر مما يجعل كل البواعث والدوافع تزداد إلى معدل عال جداً، فى كلمات أخرى، أنها حقـيقة مسلم بها أن كل الحالات العقلية والعاطفيـة تزداد زيادة عظيمة بالقوة بواسطة انتقالهـا من رجل لرجل. وخاصة إذا كانوا ملتفين بمفهوم من الاجتماع والاتفاق والتعاون بين عدد كبير لهم مشاعر عادة أو اهتمام عام)[1]، ومن ثَمّ اعتبـر سمنر أن هذه الظواهر المعيارية تخضع للتـغير والتطور المستمر فى استجابة للظروف الاجتماعية المتغيرة.

وهكذا يمكن القول أن سمنر عند مستوى الوحدات الكبرى تطوراً طبيعياً للنمو الاجتـماعى بأسلوب بسـيط، وعند مستـوى الوحدات الصـغرى، وضع الظواهر الاجتماعـية فى مفاهيم معيـارية، واعتبر الحقيـقة الاجتماعيـة كمجموعة مـتغيرة ومتطـورة من الأساليب الشـعبيـة والأعراف، والتى تتطور فـى استجـابة للدوافع والمصالح الإنسانية.

***

(1) Ibid.: op. cit. P. 20.

ثانياً: السلوكية الاجتماعية المعاصرة

بالرغم من أن معظم النظريات المعاصرة تركز على الوحدات الكبرى فإن النزعة السلوكية الاجتماعية المعاصرة، وخاصة ذات الجذور التى تمتد إلى أعمال ميد، وسمنر، استمرت فى تأثيراتها على علم الاجتماع الحديث وخاصة فى الحقل الفرعى المسمى علم النفس الاجتماعى.

ويمكن اعتبار السلوكيين الاجتماعيين المعاصرين رد فعل جماعة معينة من المثقفين وخاصة أولئك الذين تعلموا على يد ميد فى شيكاغو أو تأثروا به، وكاستجابة لعدد من الظروف الخاصة، مثل استخدام المفاهيم الفردية المبكرة عن المجتمع للموقف المعاصر، وأيضًا التركيز الشديد على نزعة الفردية المنغرسة فى الأخلاق البروتستانتية التى تعتبر أساس معظم الثقافة الأمريكية والبريطانية والألمانية، وكذلك التأثيرات السلبية للتصنيع الحديث والبيروقراطية على الفرد.

ومن ثَمَّ يمكن اعتبار نموذج علم النفس الاجتماعى هو تطبيق للأفكار المبكرة للنزعة الفردية indivdualism والتطور الاجتماعى على ما يجرى من الأحداث فى داخل المجتمعات المعاصرة فى حالة تأثيرها على الفرد. تعتبر هذه النظرة أن المجتمع موطن فى داخل الفرد وخاصة فى مفهوم الذات self concept وعلى أن المجتمع ديناميكى وينبعث خلال التبادل الاجتماعى، والتفاعل الاجتماعى، والتفسير.

وقد ركزت هذه النزعة على فهم معنى الظواهر الاجتماعية، والمحتوى السسيولوجى للتفاعل الاجتماعى، وكيف يقوم البناء الاجتماعى على أساس عمليات التبادل الاجتماغى، وكيف تنتظم عمليات التفاعل الاجتماعى أو تصبح عقلية ورشيدة عند المستوى الفردى فى ممارسات الحياة اليومية، ومن ثَمَّ فالتركيز هنا على المجتمع باعتباره نسق ديناميكى ينبعث من التفسيرات الفردية للحقيقة الاجتماعية. نسق يخضع للتغير والتنظيم المستمرين.

ويمكن تصنيف نظريات السلوكين الاجتماعيين المعاصرين إلى نمطين رئيسيين:

١- النمط النسـقى، حيث يركـز على النواحى الاجتـماعيـة للذات الاجتـماعـية والتفاعل وتحليل عوارضها الاجتماعية.

٢- النمط الطبـيـعى، الذى يرى أسس التفـاعل على أنهـا منغـرسة فى عناصـر التركيب البشرى أو الطبيعة.

فمثلاً يهتم كل من بلومر Blumer وجوفمان Goffman بنواحى التفاعل الرمزى والبنائى، بينما يرى بلاو Blau العـمليات الاجـتمـاعيـة منغرسـة فى العمليـات السيكلولوجية الأولية، وبصفة خاصة فى دوافع الحصول على الهدف والاستمالة. بينما يعتـبر جارفنكل Garfinkel أن الدافع الأساسى للكائن البـشرى هو التوافق والتجانس مع النظام الأخلاقى. وهكذا نرى أن المفكرين بلومر وجوفمان نسقيان، بينما بلاو وجارفنكل طبيعيان.

على أى حال هـذه الاختلافـات تعتبـر اختـلافات فى الدرجة فـقط، طالما أن جميعهم يهتمون بإنشاء نظريات عن التفاعل الاجتماعى.

***

هربرت بلومر

HERBERT BLUMER

(١٩٨٧ - ١٩٠٠)

ولد بلومر فى الولايات المتحدة سنة ١٩٠٠ وتعلم أولاً فى جامعة ميسورى Missouri، حيث نال درجته الجامعية الأولى ثم درجة الماجستير، ثم انتقل إلى جامعة شيكاغو Chicago حيث نال درجة الدكتوراه، وفى جامعة شيكاغو تتلمذ على يد العلامة ميد Mead وتأثر به إذ أنه استمر يعمل بجامعة شيكاغو عدة سنوات، ثم انتقل إلى جامعة بركلى Berkely التى استقر بها. وكان بلومر شديد الاهتمام بالدراسات النفسية الاجتماعية (السيكوسسيولوجية)، والسلوك الجمعى collective Behavior والاتصالات الجمعية mass communications، بل يعتبر المؤسس لاصطلاح التفاعل الرمزى symbolic interaction، ومساهمته الرئيسية كانت فى هذا النمط من النظريات الاجتماعية. وتضمنت أعماله عدة مقالات عن علاقات الأجناس، والسلوك الجمعى، والاتصالات الجمعية، والمجموعة التى يعتد بها من أعماله وتعتبر أحسن ما أنتج هى التفاعل الرمزى، والسلوك الجمعى. وفى هذا المقام نحن نهتم بالتفاعل الرمزى على أساس أنه الذى يتضمن نظريته.

أهدافه:

اهتم بلومر بإنشاء نظرية عن التفاعل الرمزى فى المجتمع. (ويشير التفاعل الرمزى إلى تلك الخاصية المتميزة للتفاعل عندما يحدث بين الكائنات البشرية[١]. وتتكون هذه الخصوصية من التفسير المتبادل والرمزى كل لسلوك الآخر. وتبعًا لذلك (يصبح علم الاجتماع من وجهة نظره، علمًا يهتم بالعملية التفسيرية التى بواسطتها تسلك وتفعل الكائنات البشرية سواء فردياً أو جمعياً فى المجتمع الإنسانى)[٢]. فمثل هذه النظرية تجعل من المجتمع كنسق من عمليات التفسير التى تحكم السلوك.

(1) Blumer: "Symbolic interactionism, Perspective and Method", Prentic-Hall, Englewood Cliffs, New- Jersy, 1969. P. 78- 79.

(2) Ibid: P. 89.

نظريته:

اعتبر بلومر أن الناس سواء فردياً أو جمعياً مجهزون للفعل على أساس معانى الأشياء التى يتضمنها عالمهم(١). ومن ثمَّ يقوم السلوك على أساس المعانى الاجتماعية المتطابقة مع أشياء. أو مواضيع معينة. هذه الأشياء عبارة عن ثلاثة أنماط رئيسية:

١- النمط الطبيعى Physical مثل الأشجار والأنهار.

٢- اجتماعى Soeial مثل زملاء العمل، حكام.

٣- تجريد Abstract مثل مبادئ الأخلاق(٢).

واعتبر بلومر أن الاتحادات associations تمثل عملية process فيها يصنع الناس مؤشرات أو دلالات كل للآخر، ويفسر كل مؤشرات الآخر(٣). ومن ثمَّ ينشأ العقل الإنسانى ويفسر.

وهكذا تنشأ الأفعال الاجتماعية خلال العملية التى فيها يلاحظ ويفسر ويقدر الفاعلون المواقف التى تواجههم(٤). وهكذا يصبح الكائن البشرى عضوا فاعلا له ذات self تشارك فى أخذ الأدوار(٥). وهكذا يتفاعل الفرد مع ذاته فى العملية التفسيرية.

واعتبر بلومر أن مركب الروابط المتبادلة للأفعال الذى يتضمن المنظمات والنظم وتقسيم العمل وشبكة الاعتماد المتبادل، أمور متحركة وليست ساكنة(٦). كما أن خطوط الفعل الرابطة ليست سابقة التأسيس، كما أنها لا تملك وجوداً مستقلاً أو منفصلاً عن أولئك المشاركون فى التفاعل، ومن ناحية أخرى الأفعال السابقة لهؤلاء المشاركين، تجهز خلفية تكون فى خدمة إنشاء أى فعل رابط جديد(٧).

وهكذا يتبين أن مفهوم بلومر عن المجتمع يختلف تماماً عن المفهوم الخاص

(1) Ibid: P. 50.
(2) Ibid: P. 10.
(3) Ibid: P. 50.
(4) Ibid: P. 50.
(5) Ibid: P. 12.
(6) Ibid: P. 50.
(7) Ibid: P. 20.

بالنماذج العضوية والبنائية الوظيفية أو نظريات الصراع. إذ يرى بلومر أن المجتمع يتركب من خطوط حية من الفعل تشكلت خلال عملية التفاعل المتبادل التفسيرى، التى يقودها أشياء ومواضيع معينة، وحدده وعرفه مضمون جماعة معينة. وهكذا يمثل المجتمع عملية رمزية تفاعلية تفسيرية موطنة فى داخل الفرد.

وعلى هذا رأى بلومر أن هذه الافتراضات تتطلب نوعًا خاصاً وفريدًا من مناهج البحث، وهو الانتفاع بنمط من البحث أكثر طبيعياً بمعنى نمط من البحث يتجه مباشرة إلى العالم التجريبى. ويؤكد بلومر أن مثل هذه الدراسة تتطلب أن يضع الإنسان نفسه فى دور المشارك، وينظر إلى ديناميكيات التفاعل نظرة جادة، وينشئ صوراً من الفعل الاجتماعى، بمعنى أن يلاحظ العملية التى بها ينشأ ويشيد الفعل الاجتماعى. وينظر إلى النظم الاجتماعية والجماعات ديناميكياً.

هذه النظرة أدت إلى إثارة بعض الملاحظات:

١- يمكن اعتبار هذه النظرة وجهة نظر أو إطار عمل مفهومى أكثر منه نظرية. إذ أنها من الناحية التفسيرية والبنائية ينقصها الكثير.

٢- اتجاه بلومر إلى اقتفاء خطوات ميد يمثل مشكلة أخرى فإلى أى مدى سوف ينجح فى تأسيس نظرية تحظى القبول عند علماء الاجتماع.

ورغم هذا فإن بلومر قد ساهم مساهمة فعالة فى إنشاء نموذج عن المجتمع استقرائى يتعامل مع الوحدات الصغرى وديناميكى.

●●●

ارفنج جوفمان

ERVING GOFFMAN

(١٩٢٢ - ١٩٨٢)

حاز جوفمان على شهادته الجامعية الأولى من جامعة تورنتو Toromto سنة ١٩٤٥، ثم انتقل إلى جامعة شيكاغو التى نال منها درجة الماجستير ١٩٤٩ ثم درجة الدكتوراه ١٩٥٣. ومن ذلك الحين واصل مساره الأكاديمى فى جامعة بركلى، وحديثًا فى جامعة بنسلفانيا Pennsylvania. وكان اهتمامه يتركز حول إنشاء إطار عمل لتحليل التفاعل الاجتماعى، مؤسس على ملاحظات رسمية ولا رسمية واسعة المدى. ومن أهم منشوراته كتاب تقديم الذات فى الحياة اليومية The Presentation of Self in Everyday Life (١٩٥٩)، وكتاب المتعارضون Encounters (١٩٦١) وفى هذا المقام نحن نهتم خاصة بالكتاب الأول، إذ فيه قدم جوفمان نظريته فى التفاعل.

أهدافه:

يعتبر اهتمام جوفمان الرئيسى هو بالأسلوب الذى به يقدم الفرد نفسه ونشاطه فى مواقف العمل العادية، للآخرين، والأساليب التى بها يقود ويضبط الانطباعات التى يشكلها الآخرون عنه، ونوع الأشياء التى يرغب أو لا يرغب فى عملها أثناء إنجاز عمله أمامهم[1]. ومن ثمَّ فهو يركز على إدارة الانطباع فى التفاعل، ولهذا يعتبر عمله مكملاً لعمل بلومر من حيث تركيزه على عملية التفاعل.

نظريته:

تدور نظرية جوفمان حول عملية إدارة الانطباع وقد صاغها على النحو الآتى:

تعتبر مصادر المعلومات أو التصورات المتبادلة مركز التفاعل. ومن ثمَّ تصبح المعلومات عن الفرد تحدد الموقف إذ أنها ترسم ما تتضمنه توقعات الدور

(1) Goffman: "The Pressentation of self in Everyday Live" Doubleday, New York, 1959, P. XI.

المتبادل[1]. وما له أهمية رئيسية هى المهارات المتميزة التى يستخدمها الأفراد لتقديم وإبراز أنفسهم، والظروف الخاصة التى تستخدم فى ظلها هذه المهارات.

خلال التفاعل -وليكن إنجازاً ما فهو يحدث كالآتى: نشاط مشارك معين فى ظرف معين يعمل على التأثير بأسلوب ما فى أى واحد من المشاركين الآخرين[2]. خلال مثل هذا الإنجاز قد يفعل الفرد نمطياً routine بمعنى يؤدى نمطًا من الفعل سابق التأسيس.

هذا الفعل النمطى routine قد يصير مقننا فى شكل واجهة front، ويعنى بالواجهة ذلك الجزء من إنجاز الفرد الذى يعمل وظيفياً بانتظام واطراد بأسلوب عام وثابت ليعرف ويحدد الموقف لأولئك الذين يلاحظون الإنجاز[3].

تتأثر هذه الواجهة front بالبيئة الطبيعية، وشكل الشخص مثل الملبس والعمر والجنس، والمظهر ويعنى به المؤشرات الدالة على المكانة الاجتماعية للفاعل، والأدب ويعنى به دلالات عما قد يصدر منه من سلوك. وعادة يتوقع الإنسان التوافق بين هذه العناصر.

فضلاً عن ذلك تميل الواجهات الاجتماعية social fronts إلى أن تصبح منتظمة institutionalized أى تتأسس، وخاصة فيما يختص بالأدوار المؤسسة تمامًا.

ومن ناحية أخرى، السلوك فى داخل الواجهات الاجتماعية، قد يخضع للتأليف dramatization، مثلاً، عندما يكون هناك حاجة ضرورية وملحة إلى اتخاذ قرار فى التو واللحظة. وأيضًا تخضع للمثل، مثلا سلوك يتعلق بنمط اجتماعى ثابت وملازم لدور معين.

واضح أن الإنجازات ليست سلوك أدوار معزولة ولكنها متبادلة الارتباط مع سلوك الآخرين. عندما يتشابك المتحيزون أو يتساندون (يتبادلون الاعتماد)، فهم يشكلون فرقًا teams أو مجموعات من أفراد يتعاونون فى متابعة عمل نمطى (روتين) واحد[4]. يكون أعضاء الفريق متساندون وإلى حد ما سلوك كل منهم نحو الآخر مألوف Familiar.

(1) Ibid: P. 1.
(2) Ibid: P. 15.
(3) Ibid: P. 22.
(4) Ibid: P. 79.

ويحدث سلوك الفـريق داخل منظمة خاصـة، ويعنى منطقة طبيعـية physical area. سلوك الأدب والرقة والزخـارف يقع فى منطقة الواجـهة، ويعنى بذلك فى المنطقة الـتى تجمع فيـها وتزايد المشـاهدون -أى حيث يرى الناس الفاعـل، بينما يحدث السلوك المتـعب وغير المضبوط فى المنطقـة الخلفية، فى المنطقة البـعيدة عن أعين الملاحظين.

وهكـذا يعتبـر جـوفـمـان أن التـفاعل الاجتمـاعى وخـاصـة النـمط المعيارى أو الأخلاقى[1]، هو وظيفة لعـملية إدارة الانطباع التى تتم داخل واجهـات معينة بواسطة فريق الإنجاز. وتبعًا لهذا النمط من التـحليل يحدد التفاعل أنواع معينة من المعلومات المتاحة والمتبادلة. ويقنن التفاعل خصائص الموقف وعلاقات الأدوار.

ومن ثَمَّ يمكن القـول أن جوفـمان قـدم نمطًا نظرياً يتكون من نموذج فـريد عن الواقع الاجتـماعى. هذا النموذج يتكون من العوامل الرئيـسية التى تحدد الـتفاعل الاجتمـاعى وهى: الفاعل ومعه دوافـعه الملزمة، والإنجاز أو إدارة انطبـاع الفعل، والواجهة، وفريق الإنجاز مع مناطق الواجهة ومناطق الخلف. ويرتبط الفرد بالفريق من خلال الاعتماد المتبادل والسلوك المألوف.

●●●

(1) Ibid: P. 241.

النموذج الطبيعي
للنزعة السلوكية الاجتماعية

هذا النمط من النظريات يدرس الوحدات الصغرى، ويهتم بالتوجيه الداخلى ونظرة استنباطية للظواهر الاجتماعية. على أى حال يمكن النظر إلى عمل كل من بلاو Blau وجارفنكل Garfinkel، أنه يميل إلى الاتجاه الطبيعى، طالما أن بلاو يرى لهذه الظواهر جذور فى العمليات السيكولوجية الأولية، كما أن جارفنكل يعتبر أن دوافع الفرد تتطابق مع النظام الأخلاقى. فكل منهما أنشأ نظرية اجتماعية عن الحقيقة الاجتماعية تأخذ فى الاعتبار عوامل طبيعية. على أى حال هذا النمط من التصنيف هو مسألة درجة أكثر منه نوع. وبصفة عامة يسود النظرية المعاصرة فى علم الاجتماع النمط النسقى مع آثار طبيعية قليلة.

●●●

هارولد جارفنكل

HAROLD GARFINKEL

(١٩١٧ - ٢٠١١)

تلقى جارفنكل تعليمه فى جامعة نيو آرك New- Ark وجامعة كارولينا الشمالية North Carolina، ثم نال الدكتوراه من جامعة هارفارد على يد العلامة سالكت بارسونز. وكان محور اهتمام جارفنكل التنظيم الاجتماعى وخاصة فى الحقل المسمى مناهج بحث الشعوب Ethnomethodology أو ما يسمى أيضًا (بالمنهجية الشعوبية)[١]، الذى ساهم فيه مساهمة كبيرة بل ويعتبر أهم منشوراته العلمية هو كتابه دراسات فى مناهج بحث الشعوب (١٩٦٧).

أهدافه:

عرف جارفنكل اصطلاح Ethnomethodology بأنها (الاستقصاء للخصائص العقلية لمجموعة التعبيرات والأفعال العملية التى تتم أثناء الحياة اليومية)[٢]. ويمكن القول بأن جارفنكل كان مهتمّاً بكيفية ترشيد الأفراد للواقع الاجتماعى أثناء ممارستهم وتفاعلهم فى حياتهم اليومية، إذ يوجد تنظيم اجتماعى أو نظام أخلاقى فى داخل التفاعل الاجتماعى والذى من خلاله وبه يفسر الأفراد الواقع الاجتماعى ويجعلونه رشيداً أو يدركون الغرض منه أو يفهمونه. إنها تلك العملية (إدراك الغرض من الأشياء making sense out of) أو تفسير الواقع الاجتماعى الذى يهتم به جارفنكل فى نظريته.

مثل هذه الدراسة تختلف جذرياً عن علم الاجتماع التقليدى الذى عادة يتضمن وضع مفاهيم سابقة التحديد وتعريفات للحقيقة الاجتماعية على أساس بيانات

---

(١) هذه الترجمة وردت فى كتاب النظرية فى علم الاجتماع- تأليف الدكتور سمير نعيم (مرجع سبق الإشارة إليه).

(2) Garfinkel: "Studies in Ethnomethodology" Prestice-Hall, Englewood Cliffs, New Jersy, 1967, P. 11.

تجريبية. ولكن جارفنكل فى دراسته هذه عكس الوضع إذ اهتم بكيفية صنع الأفراد للحقيقة الاجتماعية، بمعنى كيف يصنع الأفراد أثناء تفاعلهم الواقع الاجتماعى، عن طريق تفسيراتهم الاجتماعية، ومن ثَمَّ تعتبر عملية التفسير الاجتماعى -أساس التنظيم الاجتماعى- كما هى مفهومة من عملية نظر الممارسين، وتلك العملية هى مركز اهتمام جارفنكل.

نظريته:

اعتبر جارفنكل أنه يوجد نظام أخلاقى عبارة عن بناء اجتماعى من القيم المعيارية، يمثل أسس التنظيم الاجتماعى، وهو عنده يعتبر موضوع علم الاجتماع(١).

واعتبر أن هذا النظام الأخلاقى مقبولاً عند أعضاء المجتمع، ويعرف الحقيقة الاجتماعية لأولئك الممارسين أى أعضاء المجتمع من واقع معاملاتهم اليومية(٢).

هذا النظام الأخلاقى يمثل الأسس لتفسير الواقع الاجتماعى(٣).

واعتبر جارفنكل أن دوافع الفرد هى أن يكون متطابقًا ومتوافقًا مع هذا النظام الأخلاقى عند تفسيره للواقع الاجتماعى، بمعنى أن يفهم الفرد الأفعال اليومية بواسطة تفسيرها بالرجوع إلى ذلك النظام الأخلاقى، أى من وجهة نظر النظام الأخلاقى. وهكذا يحاول الناس مواءمة مناشطهم فى داخل هذا النظام من أجل فهم أعمالهم أو أن يجعلوها معقولة لأنفسهم(٤).

طالما أن هذه العملية (التفسير العقلى) تحدث فى كل أنواع السلوك، فإنه يمكن القول أن أى وضعية اجتماعية منظمة ذاتياً Self- organizing بمعنى أن كل المواقف الاجتماعية تنظم نفسها، أى تكتسب لنفسها تنظيمًا، من خلال محاولة أعضاء الموقف إضفاء المعقولية أثناء التفاعل.

مثل هذا التنظيم طالما أنه يحدث أثناء عملية التفاعل، فهو ديناميكى(٥).

(1) Ibid: P. 33, 93.
(2) Ibid: P. 34.
(3) Ibid: P. 93.
(4) Ibid: P. 60.
(5) Ibid: P. 3.

واعتبر جارفنكل أن عملية الترشيد أو التعقيل تتكون من عدد من العناصر المتمايزة:

١- التصنيف والمقارنة.

٢- الأخطاء المحتملة والإتقان.

٣- البحث عن الوسائل.

٤- تحليل البدائل والنتائج.

٥- الاستراتيجية.

٦- الاهتمام بالتوقيت.

٧- إمكانية التنبؤ.

٨- قواعد التصرف أو الإجراءات.

٩- الاختيار.

١٠- أرضيات الاختيار(١).

تلك هى العمليات التى يستخدمها الفرد لإنجاز الرشد والمعقولية وفهم مناشط الحياة اليومية.

ويلاحظ أن موضوع علم الاجتماع عند جارفنكل يدور حول النظام الأخلاقى كما يعمل فى الممارسات المنظمة فى الحياة اليومية، وفى جذب الأفراد نحو الترشيد والتطابق مع هذا النظام الأخلاقى أثناء تفاعلهم مع الآخرين. ولهذا يعتبر أن التنظيم الاجتماعى ديناميكى، ويمثل نظام تفاوض بين الأفراد المتفاعلين.

كما يلاحظ أن جارفنكل قد استخدم قائمة ألفرد شوتز Alfred Schutz للترشيدات كما أن طريقته التجريبية تضمنت محاولة لدراسة عمليات الترشيد بعدد من الأساليب كتحليل الديالوج، ودراسات الحالة لأنماط معينة من الناس مثل تجارب يخضع فيها الناس لمواقف تشجيعية ويلاحظ تفسيراتهم لهذه المواقف،

(1) Ibid: P. 96, 103.

ومواقف يفترض فيهــا الناس عدم الثقة ويلاحظ رد فعل الآخرين. كل هذه الطرق صممت لإبراز الحالة التى بها يعمل النظام الأخلاقى فى توجيه عملية التفسير عند الأفراد عندما يكافحون من أجل التطابق والترشيد.

وهناك عدة ملاحظات يمكن أن توجه إلى هذه النظرية وهى:

١- تعتبر المنهجـية الشعوبية وجهة نظر أكثر منهـا نظرية، وخاصة أنها تكشف عن كثير من الثغرات النظرية من حيث إفراطها فى تبسيط الحقيقة الاجتماعية.

٢- نقطة أخرى وهامة، وهى أن جارفنكل أهمل المحـتوى البنائى الذى فيه تنبعث عملية الترشيد، مثل تأثير خصائص الجماعات المختلفة فى هذه العملية.

٣- جـعل جارفنكل من كل نواحـى النسق الاجتـماعى وظيـفـة لعمليـة التطابق والترشـيد، وفى هذا إفــراط فى تبسيــط ما هو مركب ومـعقـد ويبدو أن هذه مشكلة دراسات الوحدات الصغرى عندما تتزايد فى التصغير.

وبالرغم من هذه الثغرات فهى محاولة جادة لإنشاء نظرية ديناميكية تختلف عن الأسلوب التقليدى، وتعتبر بداية لأسـلوب جديد فى علم الاجتماع قد يؤدى إلى إثراء العلم وخاصة فى فرع التنظيم الاجتماعى.

***

بيتر بلاو

PETER BLAU

(١٩١٨-٢٠٠٢)

ولد بلاو Blau فى فيينا Vienna، وأخذ شهادته الجامعية الأولى من كلية المهرست Elmahurst سنة ١٩٤٢، ثم نال درجة الماجستير من جامعة كامبردج Cambridge سنة ١٩٥٠، ثم نال الدكتوراه من جامعة كولومبيا Columbia سنة ١٩٥٢ وابتدأ حياته العملية فى جامعة شيكاغو سنة ١٩٥٣ وفى سنة ١٩٧٠ عاد إلى جامعة كولومبيا التى نال منها الدكتوراه.

وكانت أهم أعماله العلمية ديناميكية البيروقراطية (١٩٥٥) The Dynamic of Bureaucracy، والتبادل والقوة فى الحياة الاجتماعية (١٩٦٤) Exchange and Power in Social Life، وبناء المنظمات (١٩٧١) The Structure of Organization. وفى هذا المقام نحن نهتم بمحاولته إنشاء نظرية عامة عن التبادل فى الحياة الاجتماعية.

أهدافه:

اهتمام بلاو الرئيسى هو تحليل الاتحادات الاجتماعية Social associations، وكذلك العمليات التى تحكم هذه الاتحادات، والأشكال التى تشكلها[1]. واعتبر أن العمليات المهمة فى تلك الاتحادات مثل التبادل الاجتماعى، تبتدئ عند الفرد أى عند مستوى الوحدات الصغرى microscopic. وتتحرك نحو الوحدات الكبرى macroscopic. وبذل جهداً كبيراً فى إنشاء نظرية عامة استقرائية عن التبادل والبناء الاجتماعى.

نظريته:

اعتبر بلاو أن العمليات الاجتماعية الأكثر تعقيداً تتطور من عمليات بسيطة[2]. واعتبر أن انبعاث التنظيم الاجتماعى هو عملية استطرادية، تبتدئ بعمليات الوحدات الصغرى.

---

(1) Blau: "Exchange and Power in Social Life Wiley, New York, 1964, P. 2.

(2) Ibid.: Introduction.

واعتبر أن قوى الجاذبية الاجتماعية Social attrsction تستميل وتنبه وتحرك معاملات التبادل. وتتركب هذه القوى من الشعور بالانجذاب والرغبة فى مختلف أنواع المكافآت، هذه القوى منغرسة ولها جذور فى العمليات السيكولوجية الأولية الإنسانية[1]. وهكذا تعمل دوافع الجاذبية والمكافأة على نشأة تبادل المنابع exchange of resources، وهذه تعتبر أول خطوة فى عملية الاتحاد الاجتماعى Social association.

وبمجرد أن يحدث التبادل يبتدئ تمايز المكانات والقوة، ومن ثَمَّ الفرد الذى يمتلك منابع resources (مصادر) يحتاجها الآخرون. والذى فى الوقت نفسه لا يعتمد عليهم بأى أسلوب، ذلك يصنع موقفًا فيه إشباع حاجات الآخرين يتطلب منهم الامتثال والإذعان لرغبات مالك هذا الموقف. وبهذا الشكل أدى التبادل إلى نشأة التمايز والفروق فى المكانة status والقوة power[2].

فإذا كانت المميزات والمنفعة الناجمة عن الإذعان والامتثال تزيد وترجح كفة المشقة والعناء المبذول فى العمل طبقًا لرغبة صاحب العمل أى دافع الأجر مثلاً، ذلك يؤدى إلى انبعاث التأييد الجمعى لموقف القوة، وهذا بدوره يؤدى إلى الاتفاق العام consensus، وأخيرًا إلى شرعية القوة. وهكذا تصبح السلطة الشرعية أساس التنظيم، وتؤدى إلى إنجاز مختلف المواضيع، واستقرار التنظيم، وانتظام institutionalization القيم والمعايير والمبادئ ونقل المعلومات[3].

وبينما ينشأ وينمو التأييد والشرعية للقوة من ناحية، ربما يكون هناك أيضًا بل وفى نفس الوقت أفراد يشعرون بالاستغلال لأنهم يحصلون على مكافآت غير مشبعة وغير كافية، أى أن مميزات ومنفعة الإذعان والامتثال لا تعدل المشقة والعناء المبذول فى العمل، هؤلاء الأفراد قد يوصل كل للآخر إحساسهم بالغضب والإحباط بل والعدوانية؛ ويؤدى ذلك إلى رفض جمعى للقوة، وهكذا تنبعث قوى معارضة خصيمة للجماعة التى فى مركز القوة أو مركز ضبط الموقف[4].

---

(1) Ibid: chaps.: 1, 2, 3.

(2) Ibid: chaps.: 4, 5.

(3) Ibid: chaps.: 8.

(4) Ibid: chaps.: 9.

وتبعًا لذلك، فإذا كان من ناحية عملية التبادل المتشابكة تؤدى إلى توازن القوى ودفعًا نحو التوازن فى العلاقات، فإنه فى الناحية المقابلة حيث الاضطراب فى المكافآت، وتدهور معدل التكلفة (أى تكلفة حياة العامل أى أجره) يؤدى إلى عدم التوازن فى العلاقات وإلى المعارضة والصراع، ومن ثَمَّ يحدث التغيير الاجتماعى(١).

وبناء على ذلك، فإن العملية المصاحبة لاختلاف توازن القوى تميل إلى إنتاج عدم توازن فى الحياة الاجتماعية، فتؤدى إلى جدل dialectic بين المبادلة (الأخذ والعطاء) وعدم التوازن، هذه العملية تشكل أسس الديناميكيات الاجتماعية. ولهذا يؤدى التبادل exchange إلى كل من البناء والعملية، أى كل من السكون static والحركة dynamic(٢).

وهكذا يمكن القول أن نظرية بلاو تقوم على أساس مفاهيم معينة وهى:

١- فرد متأثر بدوافع الجاذبية الاجتماعية والمكافأة.

٢- عملية التبادل الاجتماعى، ونشأة التمايز فى المكانات والقوة.

٣- التنظيم والشرعية يؤديان إلى التوازن.

٤- الإحساس بالاستغلال يؤدى إلى عدم التوازن الذى يؤدى إلى التعارض والتغير.

٥- الجدل الناجم بين التبادل واللاتوزان يؤدى إلى الديناميكية الاجتماعية.

***

(1) Ibid: chaps.: 11.

(2) Ibid: chaps.: 12.

الفصل الخامس

نماذج لنقد النظريات

النموذج الأول

نظرية التخلف الثقافى ونقدها.

النموذج الثانى

النظريات الحتمية ونقدها.

النموذج الأول

نظرية التخلف الثقافي ونقدها

وإن كان يبدو أن هناك شبه إجماع بين علماء الاجتماع على أن التغير التكنولوجي يتجه إلى زيادة تقسيم العمل على حد تعبير دوركيم، أو إلى زيادة التخصص على حد تعبير ماكيفر، إلا أنهم اختلفوا اختلافًا شديدًا حول أي النظم الاجتماعية، أو أي من وجوه الثقافة، أسبق تأثرًا، أو بمعنى آخر حاولوا إقامة ترتيب معين لتأثير التغير التكنولوجي في الأجزاء المتخلفة للبناء الاجتماعي.

نظرية أوجبرون:

وحول هذا الموضوع أنشأ أوجبرون نظرية عن التخلف الثقافي التي جذبت انتباه علماء الاجتماع من ناحية، ومن ناحية أخرى دارت حولها دراسات عديدة، اختلفوا فيها حول مدلول التخلف وأسبابه وحاول كل تفسيره من خلال النظرية الاجتماعية التي أنشأها أو يفضلها.

وتتلخص فكرة أوجبرون منشئ نظرية التخلف الثقافي في أن شطري الثقافة المادي واللامادي تختلف سرعة استجابتهما للتغير التكنولوجي وهو يعبر عن فكرته بقوله (واضح أن الظروف الاجتماعية تمهد للاختراعات الميكانيكية، وأيضًا الاختراعات الميكانيكية تسبب تغيرات في الظروف الاجتماعية. ولكن من المرغوب فيه معرفة أي النتائج أكثر عمومية. لم يحدث تقييمًا شاملا في هذه النقطة. ولكن في الوقت الحاضر في العالم الحديث يبدو أنه أسهل وجود بيانات عن تكنولوجيا تسبب تغيرات في الظروف الاجتماعية، ومن ثَمَّ نحن نميل لتفضيل الفرض بأن التتابع التكنولوجي يسبب التغيرات الاجتماعية)[1]. (ومن أجل هذا الفرض يصنف التراث الاجتماعي إلى مادي. وهو عمليات الإنتاج واستخدامه، ولا مادي وهو يتضمن التنظيم الاجتماعي في العلوم والفن والفلسفة والموسيقى والرسم والأدب والدين والأخلاق والعادات والأشياء المحبوبة والنحت، ومهما كان

(1) Ogburn and Nimkoff: op. cit., P. 577.

فالملاحظة غير القائمة على الإحصائيات تظهر أن أسرع أنواع التغير فى هذا الوقت فى الجزء المادى من الثقافة وفى العلوم، وأقل سرعة وأقل تغيرا فى القطاعات اللامادية. وكذلك يبدو أن تراكم العمليات فى الوقت الحاضر أكثر نشاطًا فى العلوم الطبيعية وفى الثقافة المادية، وهكذا يبدو أن الجزء المادى والعلمى من الثقافة يتسع وينمو أسرع من الجزء اللامادى)[1]. (أى أن هناك معدلا غير متساو للتغير فى وجوه الثقافة، إذ أن الثقافة المستقرة التى تبتدأ فى التغير لا تمارس نفس الدرجة فى كل أجزائها فى الوقت نفسه.. فى أجزاء ثقافتنا درجات التغير ليست متساوية. التغيرات التكنولوجية فى الكيمياء والكهرباء هى الآن سريعة جداً أكثر منها فى التغيرات فى إنتاج القوة وفى بناء الصناعة. وتميل القوانين للتغير ببطء أكثر، بينما المحاكم باستعمالها للسابقة فى تقرير الحالات جعلت القوانين أكثر مقاومة للتغير.. أجزاء الحضارة تتحرك إلى الإمام أو الوراء، بسرعات مختلفة، حقاً إنه من الصعب نظرياً تصور ثقافة ما حيث مختلف الأجزاء تتغير كلها بنفس المعدل، فإذا كانت مختلف أجزاء الكائن الاجتماعى منفصلة، وليست متعلقة كل بالأخرى تمامًا، سوف لا يكون هناك اهتمام خاص بالمعدلات المختلفة للسرعة لمختلف الأجزاء. مثلا الأوبرا ليست متعلقة بشدة بميكنة ثقافة القطن. ومن ثَمَّ يمكن لتغير ما أن يحدث فى أى منهما دون أن يؤثر فى الأخرى كثيراً. ومن ناحية أخرى، تربية الأطفال متعلقة جداً بتشغيل المرأة فى الصناعة، ومن ثَمَّ فأى تغير فى أحدهما سوف يؤثر فى الآخر. إذن، إذا لم تكن أجزاء الكائن الاجتماعى منفصلة كلية ولكنها مترابطة عن قرب، فإن المعدل غير المتساوى للتغير يكون له أهمية قصوى. وإذا كان جزء يتغير بسرعة، وجزء مرتبطًا به يتغير بطء يحتمل جداً نشأة توترات بين الجزئين المتحركين بلا تساوى، تلك سوف تكون الحالة بالتأكيد إذا كانا من قبل فى توازن منسجم.. التوترات التى توجد بين جزئين مترابطين من ثقافة تتغير بمعدل غير متساوى من السرعة ربما يمكن تفسيرها كتخلف فى الجزء الذى يتغير بالمعدل الأبطأ)[2].

---

(1) Ogburn: "Social Change" Encyclopidia. P. 331.

(2) Ogburn and Nimkoff op. cit., P.P. 591- 592.

أى أن أوجبرن ونمكوف يقصدان بالتخلف الثقافى موقفًا من سوء التكيف، بمعنى أنه حدث تغير فى عنصر ثقافى مادى وأن العنصر الثانى اللامادى لم يغير من تكيفه القديم للعنصر الأول، ومن ثَمَّ يصبح تكيفه أسوأ، ومن ناحية أخرى أن هناك تناسبًا طردياً بين سوء التكيف وبين شدة الترابط بين العنصرين المتغير الأصلى -أو الأول- وهو عندهما تكنولوجى، والمتغير الأبطأ وهو عندهما اجتماعى، بمعنى أنه كلما كان الترابط شديدًا كلما ازداد موقف سوء التكيف. (والتكيف تبعًا لبيئة متغيرة صعب جداً لعدة أسباب، أولها أن تغير البيئة التكنولوجية من الصعب التنبؤ به، وعادة بل ومن النادر أن يكون قد عمل له أى استعداد. فمثلا السيارة عند اختراعها، ظن أنها ليست عملية ولم يلتفت إليها أحد. وأنه عند اختراع الطائرة لم يكن يتصور أنها ستجعل من المدن الآهلة بالسكان هدفًا طيبًا للطائرة قاذفة القنابل. هناك إذن تخلف فى التكيف للتغيرات التكنولوجية الجديدة، وفى هذه الفترات من التخلف يكون تكيف الإنسان أسوأ منه قبل حدوث التغير التكنولوجى[1]. (وفى الواقع، تخلف التغيرات الاجتماعية وراء التقدم التكنولوجى هى ببساطة حالة خاصة للظاهرة العامة للمعدلات غير المتساوية للتغير فى الأجزاء المترابطة من الثقافة)[2].

ويبدو أن أوجبرن ونمكوف كان يسيطر على تفكيرهما بيئتهما الأمريكية ذات الثقافة اللامادية المستقرة نسبياً من ناحية، ومن ناحية أخرى، تمتاز بسرعة التغيرات التكنولوجية وندرة الاختراعات الاجتماعية، حتى أنهما انتهيا إلى أن العلم والتكنولوجيا، أحد، وأهم عوامل الاضطراب الاجتماعى فيقولا (إن العلم والتكنولوجيا ولو أنهما يأتيان بمواد ثقافية أكثر كفاءة، ومعرفة أكثر، ومستوى معيشة أعلى، فإنها تنتج اضطرابًا اجتماعياً)[3]. وإن كان عقليهما العلمى فى بعض الأحيان يدفعهما إلى التحدث عن الاختراعات الاجتماعية وقدرتها على إحداث مثل هذا التخلف، إلا أنهما كانا يلبثان أن يعودا مرة ثانية إلى التأكد على أن التكنولوجيا هى العامل الأول فى التخلف الثقافى. فمثلا يقولان: (التجديدات

(1) Ogburn "The meaning of Technology" op. cit., P. 8.

(2) Ogburn and Nimkoff: op. cit., P. 597.

(3) Ogburn and Nimkoff: op. cit., P. 597.

قد تكون فى الثقافة المادية أو اللامادية. الحرب، اختراع اجتماعى يمكن أن يسبب اضطرابًا عظيمًا فى التغيرات التكنولوجيـة، ولكن أعطى انتباها خاصًا للتكنولوجيا فقط بسبب مكانها المهم فى الحـياة الحديثة. العدد الكبير للاختـراعات المهمة الآتية الواحدة تلو الأخـرى فى الزمن الحاضر والتى تسـبب تلك التغيـرات الاجتماعـية الواسعة تجعل من التكنولوجيا سببًا خاصًا وهامًا للاضطراب الاجتماعى[1].

وهكذا كـانت البيـئة الأمـريكية ذات التـغيـر التكنولوجى السريع سـواء على الأمريكيين أنفسهم أو على الجماعـات المحيطة بهم مثل الهنود الحمر أو نيومكسكو التى عملت عـليهم دراسات عن وطأة التـغير الناتج عـن استخـدام مواد الثقـافة اللامادية أى التكنولوجيا الأمريكيـة، كل هذا جعل أوجبرن ونمكوف يؤكدان دائمًا أن التكنولوجيا هى العامل الأول فى التخلف الثـقافى، ولو أنهما نظرا بعد الحرب العالمية الثانية إلى خارج الولايات المتحدة، وامتد بصرهما إلى آسيا (الصين والهند وباكستان وأندونيسيا وماليزيـا والعراق وسوريا) ودول أفريقيا (مصر والجزائر ودول شرق وغرب أفريقيـا) لتبين لأوجبرن ونمكوف أن الحركات الاجتـماعية التى جرت على أرض هذه المجتمعات أتت باختراعات اجـتماعية أدت إلى تغيرات جذرية فى بنائها الاجتماعى ومن ثَمَّ أصبحت هى العـامل الأول فى التغير الاجتماعى، بينما فى كل هذه البلاد وسائل الإنتـاج الحديث (التكنولوجيا الحديثـة) والعلم التطبيقى الحديث الذى حرمهم منها الاستعمار طويلا، قد جلبا إلى تلك المجتمعات ليلحقا بخطوات التغيرات الاجتماعية فى الجـانب اللامادى من الثقافة. وهكذا تعتبر هذه المجتمعات التخلف الثقافى فيها تكنولوجى وليس لا مادى.

نظرية بارنز:

ولكن بارنز Barnes فى دراسته عن التخلف الثقـافى لم يقف عند حد المجتمع الأمريكى، ومـا يحيط به من جماعـات، مثلما فعل أوجـبرن ونمكوف، بل وسع نظريته حتى شملت تاريخ الإنسانية، وقدم دراسـة نظرية ممتعة عن التخلف الثقافى

(1) Ibid.: P. 597.

مستخدمًا المنهج التاريخي وبذلك استطاع أن يعرض ألوانا من التخلف الثقافى التى كابدت وطأتها المجتمعات الإنسانية مرة تظهر تخلفا تكنولوجيا وأخرى تخلفا اجتماعياً، وثالثة يكون هناك توازن وانسجام بين كل من وجهى الثقافة. (فخلال معظم تاريخ الإنسانية، كان التفكير الاجتماعى والنظم الاجتماعية متلائمين مع علم التكنولوجيا الذى كان موجودًا فى أى عصر. فقط فى حالة اليونان والرومان وعصرنا كان هناك مثل هذا التخلف بين الآلات والنظم الاجتماعية فى الفترة الكلاسيكية، وخاصة بين يونانى أثينا والإسكندرية، النظم الاجتماعية والفلسفة تقدمت أكثر بكثير من العلم والآلية، بينما آليتنا هى سابقة لحاضرنا إلى ما لا نهاية. فشل الرومان واليونان فى تحسين العلم والمخترعات حتى تحافظ على المسافة مع نظمهم الاجتماعية، كان السبب الأكبر فى أزمة الحضارة الكلاسيكية)[1]. واضح أنه فى هذه الفقرة يشير إلى أن هناك عصوراً كان هناك مواءمة وانسجام بين كل من عناصر الثقافة المادية واللامادية، ويبدو أنه يشير إلى عصور ما قبل الحضارة اليونانية والرومانية، تلك الحضارتين اللتين تميزتا بتخلف تكنولوجى.

ثم يعرض بارنز مرة ثانية نوعًا من التخلف التكنولوجى الذى كان يصاحب التطور الاجتماعى العظيم فى النظم الاجتماعية، الذى حدث فى مطلع العصر الحديث. (ففى مطلع العصر الحديث كان هناك دفعًا أكثر للتغيرات فى النظم الاجتماعية ولأنماط جديدة من التفكير الاجتماعى أكثر مما كان يتقدم العلم والاختراع بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٨٠٠. عندما أتت نهاية العصور الوسطى. وابتدأت الأزمنة الحديثة، هذه التغيرات كانت أصلا هى نتاج الطبقة المتوسطة، فلقد أنكرت تلك الطبقة معظم أنماط النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى للعصور الوسطى. ولقد ساعدت الدولة وحولتها من المطلقة إلى النيابية. ولقد نمت أفكار القانون الطبيعى التى وضعت الفقه والقانون لتؤيد حماية الملكية.. وبهذا الأسلوب التأثير الاجتماعى الذى بين سنة ١٥٠٠ وسنة ١٨٠٠ كان يشجع بقوة تحول وتغير النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى)[2]. وفى هذه الفقرة

---

(1) Barnes: "Social Institutions" op. cit., P. 55.

(2) Ibid. : P. 55.

يعرض لنا بارنز تغيرات اجتماعية واسعة فاقت التغير التكنولوجى فى هذا العصر، أى أنه كان هناك تخلفا تكنولوجيا.

ثم يعرض بعد ذلك بارنز التخلف الثقافى اللامادى فى القرنين التاسع عشر والعشرين عندما (بدأت الاتجاهات الثقافية والنظامية للعصر الحديث عند الكل، تؤيد وتشجع النمو فى كل من العلوم الطبيعية والاختراعات التكنولوجية، ولقد أصبح مفهوما أن العلوم تحمى وتثرى الحياة الإنسانية، وتزيد من احتمالات الربح المالى فى الأعمال وفى تشغيل العمال طبقا لنظام الربح والرأسمالية.. ولهذا ألقت الطبقات المالية ورجال الأعمال بكل قوتهم الهائلة فى المحافظة على الأشياء كما هى فى حياة النظم الاجتماعية. ذلك ما فعلوه، وفى نفس الوقت أصبحوا أشد إعجابًا بأسلوب التقدم فى العلوم والتكنولوجيا. ولهذا منذ سنة ١٨٠٠ إلى الوقت الحاضر، الجماعات الاقتصادية السائدة فى المجتمعات الحديثة مالوا إلى مقاومة التغيرات في النظم الاجتماعية بينما فى نفس الوقت شجعوا التقدم فى العلوم والتكنولوجيا، وذلك هو السبب الأكبر لهذه الحالة الغريبة والمنذرة بالخطر التى نواجهها اليوم، وأكثرها أهمية عدم توازى تكنولوجيا وعلوم اليوم، وميراث من النظم الاجتماعية والتفكير الاجتماعى زمنه فى معظم الأجزاء منذ حوالى سنة ١٨٠٠ أو قبل ذلك. فالظروف فى عالمنا الحديث، منذ أكثر من قرن قد عملت على تقدم عظيم فى العلوم والتكنولوجيا، وثباتًا فى النظم الاجتماعية)[1].

وهكذا يعرض بارنز لونا من التغير التكنولوجى الواسع المدى فى مقابل بطء شديد فى النظم الاجتماعية مما جعل العالم الغربى الرأسمالى يعيش فى ظل وطأة شديدة من التخلف الثقافى اللامادى.

ومن ناحية أخرى يعرض بارنز المشكلة من وجهة نظر علم الاجتماع السياسى أو بمعنى آخر من وجهة معتقداته وأفكاره عن التنظيم الاجتماعى فهو يبدو على عكس أوجبرن ونمكوف المتأثران ببيئتهما الأمريكية فأرجعا وطأة التخلف الثقافى إلى مجرد سرعة التغير التكنولوجى وموقف سوء التكيف الناجم عن التخلف فى متابعة التغيرات التكنولوجية. ومن ناحية أخرى يميلان إلى الإصلاح بإدخال تعديلات

(1) Barnes: op. cit., P.P. 54- 55.

أو مواءمات لعملية التغير التكنـولوجى لتحسين التكيف إذ عندهما (كلمة التخلف تتـضمن أن السبيل الأحـسن للعمل هو إخراج التخلف فى المتغيـر الذى لم يتغير أو الذى يتغير ببطء أكثر، حتى يكون فى تكيف أحسن مع المتغير الذى يتغير)(١).

(وبعد إزالة التـخلف فى أحد المتغـيرين وإقامـة تكيف آخر نفس الصـعوبة فى التـقدير تنشـأ بالنسـبة للقـيم بمعنى، لأى الشـيئـين التكيف أحـسن عن الموقف السابق)(٢). (إذ عندهما لا يتفق كل الأشخاص على أى الجزئين من الثقافة يكون حسن التكيف)(٣).

ولكن بارنز يبدو تأثره بالظـروف الاجتماعـية الخاصة به كـمنظر فى مهاجمـته العنيفة لـلنظم الاجتماعيـة الموروثة منذ أكثر من قرنين. فـقد (استحـدثت الطبقة المتوسطة بالتـحامهـا مع وزراء البروتستانت، والنظـام الرأسمالى، تفضـيل ومدح الربح المالى، ولقد أخذت دوراً نشيطاً فى الاستعـمار وفى خلق الإمبريالية الحديثة وأنشأت نمطاً ملائماً من نظرية سياسية واقـتصادية لتبرر النظام البرجوازى الجديد، وأوجدت فلسفة الحرية السياسية لتبرير الثورة ضد امتيازات الأرستقراطية، ودافعت عن بروز الحريات المدنية مـثل حرية الكلام والطباعة والاجتمـاع والدين وما شابه ذلك. وفى الاقتصـاد عظمت ومجدت حرية التـجارة، وإعفاء وحصـانة الأعمال والتجـارة من التنظيمـات الحكومية الواسـعة. معظم هذه الـتجديدات فى فلسـفة السياسة والاقتصاد قد نفـذت عند نهاية القرن الثامن عشر، وهكذا مال هذا النسق بعد ذلك لتركيز المقاومة للتغير)(٤).

وتتضح نظرته للتخلف الثقافى من وجهة نظر مقاومة أصحاب المصالح المكتسبة فى قوله (التناقض الموجود بين عالمنا العلمى والتكنولوجى وبين نـظمنا الاجتماعية وتفكيـرنا الاجتـماعى ذو أهمـية قـصوى فى أى عـمل لفهم الأزمـات فى النظم الاجتماعية والمشاكل الاجتماعية فى عصرنا. فالمشاكل الاجتماعية دون استثناء هى إبراز للهوة بين التـكنولوجيا والنظم الاجـتماعـية فبيـنما يتعـذب الملايين يطلبون

(1) Ogburn and Nimkoff: op. cit., P. 595.

(2) Ibid.: P. 595. (3) Ibid. : P. 594.

(4) Barnes: op. cit., P. 55.

النجدة من سـوء التغذية وسوء الإسكان، تدفـع الحكومة للفلاحين ليـحرثوا تحت القـمح والقطن حـتى يمكننا أن نحـصل على الأقل من الأكل والملبس، ويعـيش ملايين على حد الكفـاف فى الوقت الذى فيه المصانع والمزارع إذا استعـملت جيداً تخرج مقداراً عظيـماً من الأكل والسلع. قدراتنا الإنتاجيـة مناسبة لإعـطائنا كـل ما نحتاجه فى مجال الطلبات الإنسانية. ولكن عملية التوزيع فى المجتمع لا تمتلك شيئـاً مثل التسهيـلات المتاحة لوضع السلع تحت أمر المسـتهلكين، التناقض يمكن شرحه بسـهولة، الجانب الإنتاجى من حيـاتنا الاقتصادية يقـوم أساسًا على العلوم والآلية فهو نسـبياً حديث جداً وكفء، بينما الأفكار والخـبرات التى تدير التوزيع والاستـهلاك هى بالعكس، إظهاراً وانـعكاساً لحيـاة نظمنا الاجتمـاعية والتـفكير الاجتماعى، فهى المتأخرة جداً أو غير كفؤة[1].

وهكذا بينما يتأثر أوجـبرن ونمكوف بالبيئة الأمريكيـة المتميزة بسرعة الـتغيرات التكنولوجيـة والبطء النسبى فى جانب الثقـافة اللامادية الذى يسبب عـمليات من سوء التكيف.

نظرية بارسونز:

فإن تالكوت بارسونز Parsons يعرضـها بطريقـة أخرى من خلال نـظريته فى الدوافع والقيم، ومن ناحية أخرى عن تأسيس النظم الاجتماعية وما ينشأ عن ذلك من توترات. ويلخص فكرته عن مـفهوم التـخلف الثقافى بقـوله (واضح أن أحد الملامح الرئيسية لانتظامية العلم وتطبيقاته هو إحداث تيار مستمر من عوامل التغير فى النظام الاجتمـاعى، المشكلة الحالية هى كيف يؤثر هذا التيـار من التجديد فى أجزاء من النسق الاجتماعى، التى ليست متضـمنة مباشرة فى عملية تقديمه. . إن انتظامية كلا نموذجى العملية تخلق توترات فى بيئاتهما المباشرة، إنه بلا شك تؤخذ على أنها شىء مفضل لأنه فى مفاهيم نسق القيم السائد بيننا، التقدم العلمى شىء حسن، كما أن العمليات التى تنجز التقدم أو تستخدم نتائجه تصبح سهلة ومقبولة تلقائياً وبالعكس هناك توترات ومـقاومات، بعضها يتـعلق بتخلف الاتصالات بين

(1) Ibid.: P. 5.

المتخصص والعوام، والبعض بالامتيازات الخاصة التى يطلبها الباحث أو العالم التطبيقى، والبعض لتدخله فى أساليب قائمة لعمل الأشياء أو التفكير، والبعض يتعلق بحقيقة أنه يقدم تغيرات إذا استخدمت تتطلب هجر ونبذ الأساليب القائمة التى ترتبط بها مصالح مكتسبة)(١).

ويعرض بارسونز بعد ذلك تفسيراً للمشكلة بطريقة تكاد تتفق مع تقسيم أوجبرن للثقافة إلى مادية ولا مادية، ولكنه يبتعد عن هذه المفاهيم إلى مفاهيم أخرى تتفق مع نظريته عن الموجهات الاجتماعية فيقول (الانعكاسات للتغيرات التى قدمها التقدم العلمى والتكنولوجى يمكن متابعتها خلال مجريان رئيسيان، أولهما يبتدئ مع بناء توجيهات الوسائل الاقتصادية The economy of Instru- mental oriantations التى فى داخلها يتوطن الدور الذى تنشأ فيه التغيرات وتستقبل أول تطبيقاتها. الثانى يختص بالوجوه الثقافية والأنساق الاعتقادية وأنساق الرموز التعبيرية ومن ثَمَّ المكافآت، التى معها تكاملت الأطوار المبكرة لعملية الترشيد)(٢). ثم بعد أن قسم بارسونز الثقافة إلى هذين المجريين اتجه إلى دراسة كل مجرى دراسة تفصيلية. إذ يعتبر أنه يمكننا أن نميز ثلاثة نماذج رئيسية للانعكاسات فى مركب الوسائل instrumental complex:

الأول: إعادة بناء الأدوار المهنية ذاتها. هذا له ناحية إيجابية، فإذا صنعت أدوار جديدة يفضل المعرفة والتكتيك الجديد، أو أن الأدوار القديمة أعيد تجديدها بالنسبة للمحتوى التكتيكى.. بالطبع إنه بالنسبة لهذه الأدوار الفنية هناك ميل لإنشائها بتوسع... ولكن الاعتماد المتبادل بين الوظيفة الفنية لدور والتجديد فى توقعات الدور فى مصطلحات من توجيه القيمة Value- orientation مقفلة بدرجة كافية حتى أنه يصبح من الضرورى عمل مواءمات وتكيفات كثيرة جداً للتغيرات فى المحتوى الفنى. هناك كثير من المناسبات التى فيها دور أستاذ علم الاجتماع لابد أن يختلف عن دور أستاذ كلاسيكيات حتى فى نفس الجامعة ذات البناء الاجتماعى والتقاليد الثقافية الواحدة، كلاهما تدريسه وبحوثه لابد وأن تختلف. الوجه الآخر

(1) Parsons, T.: "The Social System" The free Press Glencoe Illinois P. 505.

(2) Ibid. : P. 505.

لخلق أدوار جديدة هو الإرجاع للأدوار القديمة ومحتوى الأدوار المهجورة. ذلك ما هو معروف باسم ظاهرة البطالة التكنولوجية لأنه لأسباب مختلفة من الصعب للشخص ذاته أن يكتسب المعرفة والتكتيك الجديدين، وعادة جداً قبل أن يجد حلا للمشكلة يلقى العزل العادى لإحالته على المعاش..

النموذج الثانى: تتوقف الانعكاسات فى المركب الآلى على وطأة التغيرات التكنولوجية على صفات أو خصائص التنظيمات أكثر منها على أدوار معينة. فهناك نواحى كثيرة ممكنة لمثل هذه الوطأة، ولكن أهمها، حقيقة هى أن التقدم التكنولوجى دائمًا يؤدى إلى زيادة مقصودة فى تقسيم العمل، والمتطلبات المصاحبة من زيادة التنظيم المتعمد... التغير فى بناء التنظيمات، مثل التغير فى المحتوى لأدوار معينة، يصنع توترات، هناك مصالح مكتسبة معقدة فى المحافظة على منظمة كما هى، لا بد من التغلب عليها...

النموذج الثالث: انعكاسات التغير التكنولوجى على الأدوات الاقتصادية، هذه تتعلق بتركيب نسق التسهيلات ومن خلاله على بناء القوة. إدخال تسهيلات طبيعية جديدة فى شكل مهمات وآلات وما شابه ذلك، هو واضح.. ولكن بالنسبة للنظام الاجتماعى ما زال هاماً جداً ذلك التغير فى النماذج المهمة للمهارة والخبرة، وفى الإدارة لنماذج معينة من المنظمات[1].

ثم يقدم بارسونز التأثيرات على الوجه الآخر الذى يختص عنده بالثقافة والأنساق الاعتقادية وأنساق الرموز التعبيرية والمكافآت بعبارة تتضمن معنى يدل على أنها تغيرات تالية لما يحدث فى الوسائل الاقتصادية، أى أن التأثير التكنولوجى يحدث أولا فى مركب الوسائل الاقتصادية ثم ينتشر منها على بقية وجوه الثقافة إذ يقول (يمكننا الآن أن نتحدث عن الانعكاسات على بناءات التكيف adaptive structures خارج المركب الوسائلى أو الآلى. بمعنى أن هذه التغيرات تحدث نتيجة للتغير التكنولوجى ومركب الوسائل الاقتصادية وهذه التغيرات التكيفية ما هى إلا استجابة للتغير فى العاملين السابقين. ويذكر (أن أهمها هو نسق القرابة وأن ما أدى إلى عزل الأسرة المزدوجة هو التخصصية

---

(1) Ibid.: P. P. 506- 509.

والبيروقراطية التى أدت إلى زيادة الأدوار المهنية، وأن عمليات دمج الشخصية فى داخلها النسق المهنى يجب أن تكون مستقلة نسبياً عن التماسك القرابى. هذا العزل للأسرة المزدوجة بدوره كان له انعكاسات على الدور النسائى.. ومحتمل زيادة حدة فصل الدور الجنسى، وأن له علاقة كبيرة بانبعاث ظواهر مثل نمط الفتنية. ولقد ازدادت التوترات على الدور النسائى ومن هنا أنتج أنماطا معينة من توترات ردود الأفعال، وبالتأكيد لها علاقة مع التناقض السريع لمعدل المواليد حتى الآن. هذه العوامل بدورها يحتمل أن يكون لها انعكاسات أبعد على عمليات التنشئة الاجتماعية للأطفال. وجه آخر هام جداً هو تغير تكنولوجية إدارة المنزل باستخدام التكنولوجيا لجعل عملية إدارة المنزل أسهل.. ثم يقرر أن انعكاسات التغيرات التكنولوجية على المنظمات الدينية فى البناء الاجتماعى تتبعها فهى أكثر صعوبة. ثم يذكر الرموز المعبرة ذات العدد والآلات التى أتاحها النمو التكنولوجى مثل السيارة والثلاجة وآلة التسجيل والتليفزيون حيث تعبر عن المكانة، إذ أن عدد الخدم كتعبير عن المكانة فقد دوره. ثم يتجه إلى شرح أثر عملية التغير التكنولوجى فى إعادة تنظيم مستمرة لنظام المكافأة.. فقد نشأت أدوار جديدة اكتسبت أهمية استراتيجية، أو أدوار قديمة أصبحت مهجورة أو انخفضت أهميتها نسبياً.. وأن هذا يؤدى إلى حدوث توترات أكثر من أى صراع مصالح، وتعتبر هذه العملية هى العامل الأول فى ما يسمى صراع الطبقات)[1].

نظرية ميرل:

وكذلك يذهب ميرل فى نظريته للتخلف الثقافى مذهبًا يكاد يشبه ما ذهب إليه تالكوت بارسونز، إلا أن ميرل بدلا من جعلها مجريين، فإنه يجعل مراحل التغير الناتج عن التجديدات التكنولوجية على ثلاث مراحل. كل مرحلة تتخلف وراء الأخرى فعنده (النظام الاقتصادى عادة يشعر بالوطأة الأولى للتغير الناتج من تقدم التكنولوجيا. هذه النظم هى الأنماط المنظمة للعلاقات الاجتماعية الموجودة لإنتاج وتوزيع السلع والخدمات. فالتغيرات الشاملة فى النظم الاقتصادية تبعث سلسلة

(1) Ibid.: P. P. 510- 513.

التغيرات التكنولوجية والاجتماعية المعروفة باسم الثورة الصناعية -أساس صنع الحياة تحرك من الزراعة إلى المصنع ومن الريف إلى المدينة، وتغير حجم المشاريع الفردية وأصبح أسلوب جديد فى العمل والمال ضرورياً لتشغيل التجديدات التكنولوجية. ففى العالم الحديث المؤسسات الكبيرة هى مثل للتكيف البنائى لسلسلة طويلة من التغيرات التكنولوجية)[1]. ثم يأتى عنده بعد ذلك النظم الاجتماعية (إذ الأنماط المنظمة للعلاقات المشتملة على الأسرة والكنيسة والمدرسة والحكومة هى الثانية التى تشعر بوطأة التغير الاجتماعى. ذلك صادق خاصة ببناء النظام، وأقل صدقا للمفهوم أو مجموعة القيم، التى تتغير ببطء كثير)[2]. ثم المرحلة الثالثة أو العنصر الذى يشعر أخيراً بالتغير أى يكون المتخلف الأخير عنده هو القيم الاجتماعية. (فالقيم التى فى قلب النظم هى الأهداف التى من أجلها يكافح الناس، والنهايات التى يبحثون عنها، فالزواج بواحدة قيمة اجتماعية فى قلب الأسرة المسيحية، والحرية هى أساس النظم السياسية والاقتصادية، فمعظم القيم الأساسية تتجمع حول الأنماط النظامية تلك العناصر الأيديولوجية تتغير ببطء جداً)[3] ويختم ميرل هذا التصنيف بقوله (وهكذا العناصر فى مجتمع لا تتغير بنفس معدل السرعة)[4].

ولكن ميرل يعترض على أوجبرن فى أنه ليس كافيًا فقط القول إن مختلف عناصر المجتمع تتغير بمعدلات مختلفة، بل يرى أن توضح بعض العوامل التى تعطى النشأة لهذا الظرف، لأن مثل هذه المعرفة مهمة لفهم المشاكل الاجتماعية والضبط الاجتماعى، وتنشأ هذه العوامل لدرجة كبيرة، وإن لم تكن كلية، من طبيعة الشخصية، التى هى جزء من نتائج المجتمع والثقافة. وملخص العوامل التى أشار إليها ميرل هى (نزعة المحافظة على الشخصية الناجمة عن عمليات التنشئة الاجتماعية التى تكسب كل فرد اتجاهات وقيم وأهداف ومعايير مجتمعة، وأى تغيير يهدد أو يبدو أنه يهدد هذه القيم يصبح تهديداً للشخصية ذاتها. والعامل الثانى هو الاتجاهات نحو مختلف التغيرات فقد تكون هذه الاتجاهات تشجع التغيرات أو ترفضها، ويضرب لذلك مثلا بالمجتمع الأمريكى الذى يشجع

(1) Mirrell: op. cit., P. 471.
(2) Ibid. : P. 472.
(3) Ibid.: P. 472.
(4) Ibid.: P. 472.

التغـيرات فى الميدان التكنولوجى ويرفض التـجديدات فى النظام الاقتـصادى التى ينظر إليها من الشك إلى العدائية الشديدة. وإن هذا الاختلاف يساهم فى اختلاف معدل التغير بين العناصر المختلفـة. ثم يذكر أن العامل الثالث هو المصالح المكتسبة التى تحاول أن تؤخر التجديد الذى يهددها)[1] إلا أن ميرل فى حذر العالم العارف بشدة تعقد العملية الاجتماعية ينهى بحثه هذا بقوله (قد لخصنا عن عمد نمط التغير الاجتمـاعى الناشئ عن العوامل التكنولوجية. هذه العمليـة لا تحدث أبدًا فى مثل هذا النموذج المحكم، فالمجتمع هو معقد جداً حتى أن أى نمط لا يمكنه أن يصف الموقف الحادث. فالتغير الاجتماعى هو مفهوم ديناميكى ويتضمن مجالاً واسعًا من تعديلات المكانة والدور على مدار فترة من الزمن. ولهـذا تعطى كثير من العوامل المختلفة النشأة للتغير الاجتماعى حتى أنه من المستحيل عزل أى سبب مفرد أو كل العوامل المحيطة. ولقد ذكرنا فقط واحد من عديد النتائج العملية الممكنة التى تنشأ من تقديم تجديد تكنولوجى)[2].

نظرية ماكيفر:

أما ماكيفر فإنه ينعى على استخدام مفهوم التخلف الثقافى فى معظم الدراسات الاجتماعية بدون تحليل مناسب مما أدى إلى خلط كثـير فى الكتابات الاجتماعية إذ قد استخدم المفهــوم (لكل أنواع اللاتوازن أو سوء التكيف الناشئ فى داخل عملية التغير الاجـتماعى. بدلا من تجديدها لتفاوت الفاعـلية داخل النسق نفسه)[3]. بل أنه يعتـرض على معنى التـخلف عند أوجبرن الذى وصل إلـيه عن طريق قسـمة الثقافـة إلى مادى ولا مادى، وأن اللامادى تابع فى تغيره للمـادى، بقوله (عندما ننسب التخلف نحن نعنى أن شيئًـا ما يقع وراء أو يفشل فى المحافظة على الخطوة مع شيء آخر إذن ماذا يتخلف وراء ماذا؟)[4] وإن مجرد توجيه هذا السؤال يستلزم الأمر (أن يكون لدينا مسـتوى للقياس ممكن التطبيق لكـل من المتخطى والمتخلف.

(1) Ibid.: P. 47.

(2) Ibid. : P. 47.

(3) Ibid.: P. 479.

(4) Maciver a Pege; op. cit., P. 573.

وحيث لا يكون متاحًا مثل هذا المستوى لا يمكننا الحديث بصواب عن تخلف. وحيثما يفشل جزء واحد أو ناحية واحدة من نسق إنتاجى فى الارتفاع لدرجة كفاءة جزء آخر أو ناحية أخرى، يكون اصطلاح تخلف لائق ومناسب، ولكن بما أن السؤال موضع البحث ليس من نوع الكفاءة المقارنة، فاستعمال هذا الاصطلاح يصبح غامضًا ومبهما، وربما يؤدى إلى متضمنات خاطئة)[١]. ويرى ماكيفر أن حل هذه المشكلة يأتى عن طريق (التمييز بين العوامل الثقافية والتكنولوجية ومن ثَمَّ يمكننا تحرير فروض التخلف من الخلط ونعطيها استعمالا أكثر ثراء)[٢].

ومن ثَمَّ اتجه ماكيفر إلى وضع تقسيم جديد يتفق مع نظريته. وأعطى هذه التقسيمات مفاهيم جديدة تعبر عن أنواع التخلف من ناحية ومن ناحية أخرى محددة لأنواع العلاقات بين أجزاء التنظيم الاجتماعى والتغير التكنولوجى فهو يقسمها إلى تخلف تكنولوجى Technological Lage وحجر تكنولوجى Technological restraint.

ويعنى بالتخلف التكنولوجى (حيثما تفشل أى واحدة من الوظائف المتساندة فى داخل عملية تكنولوجية، تفشل فى إنجاز أو حفظ درجة الفاعلية أو الكفاءة المطلوبة لتعاونها المنسجم مع الباقى، حتى أن الإنتاجية لكل العملية تتعطل أو تتأخر أو تتوقف عند هذه النقطة. ومثلا على ذلك هو الفشل المتكرر للإدارة لحفظ كفاءة كلية عندما تتسع شركة فى المجال، وخاصة عندما تصبح جزءا من ائتلاف -يعتمد مقياس التخلف التكنولوجى على قدرتنا فى قياس الكفاءة النسبية لمختلف العوامل المتبادلة القيام بالوظائف وكذلك لبيان فشل عامل معين فى المحافظة على السرعة)[٣].

ويقصد ماكيفر بالحجر التكنولوجى، عندما تعرقل أو تمنع التدبيرات المرسومة لحماية بعض المصالح القائمة، تقديم أدوات أو أساليب أكثر فاعلية وكفاءة أو الانتفاع بمنتجات أكثر كفاءة. ويميز ماكيفر أنواعًا مختلفة من الحجر التكنولوجى، وهى:

١- حجر تحدده المصالح البيروقراطية، هنا قوة القصور الذاتى، والتقاليد، أو مقاومة نظام قائم لطرق أو أساليب فنية أكثر كفاءة.

---

(1) Ibid.: P. 575.

(2) Ibid.: P. 575.

(3) Ibid.: P. 576.

٢- حجر تحدده المصالح الاقتصادية المحصنة عندما تواجه تهديدًا لما تحصل عليه من أرباح ومميزات أخرى، ومن ثَمَّ تعارض الاستغلال للعمليات الجديدة، أو المناهج الجديدة، وهو يختلف عن النمط الأول فى أن المعارضة تنبع بصفة خاصة عن الاعتبارات الاقتصادية.

٣- حجر تحدده المصالح الثقافية، هنا الخط الرئيسى لمعارضة النمو التكنولوجى تحدده تقاليد أو معايير القادة والجماعات والمجتمعات أو اعتبارات أخلاقية خاصة أو مذهبية وهنا يميز ماكيفر بين نمطين، نمط فيه ثقافة المجتمع تقاوم التجديد التكنولوجى، وثقافة أخرى تكون تقاليدها تشجع التجديد. ويفرق أيضًا ماكيفر فى النمط الأول الذى لا يشجع على التجديد أنواعًا فرعية أخرى تذهب من التطرف فى المقاومة -حيث تكون الثقافة متزاوجة مع نسق تكنولوجى مختلفًا تمامًا، ثم يفرض من الخارج على هذا المجتمع تكنولوجيا جديدة، وهكذا يحدث تدمير الوسط الذى تعبر ثقافة المجتمع عن نفسها من خلاله -إلى المقاومة اليسيرة حيث تكون الثقافة ذات مستوى أعلى ولديها قدرة على التميز بين النسق التكنولوجى والتقاليد والمعايير والقيم، وتكون التجديدات قدمتها حكومة نفس المجتمع، وهنا تكون الوطأة أقل والنمط الثقافى الذى تشجع ثقافته على التجديد، يكون لديه استعدادًا للمواءمة مع التجديد.

٤- ثم يقدم ماكيفر نمطًا آخر تحت اسم الصدام الثقافى وهو لا يقصد به الصدام الثقافى حيث تحدث الصراعات المذهبية والأيديولوجية، ولكن يقصد به صراع القيم والمذاهب المتصارعة أو أساليب الحياة عندما تحتك فى داخل نفس المجتمع: فالخوف من تكنولوجيا غريبة هو ليس ببساطة خوفًا من أنها سوف تقلب القيم القديمة، إنه أيضًا خوف من أن التكنولوجيا الغريبة سوف تقدم قيما غريبة ومستويات وأهداف مختلفة. أى أن المقصود بهذا المفهوم هو الصراع الذى يحدث داخل مجتمع ما بين نمطين ثقافيين كاملين كل منهما يحيط بأسلوب كامل للحياة، أحدهما ثقافة المجتمع الأصلية والآخر جلب أو فرض عليه من الخارج، وتزيد حدة الصراع إذا كانت الثقافة الأصلية متحدة مع الجماعة السائدة[1].

(1) Ibid.: P. P. 576- 580.

نقد نظرية التخلف الثقافى

وهكذا يتبين من العرض السابق للدراسات التى دارت حول مسألة التخلف الثقافى أن هذه المسألة ذات شقين. الأول فيما يختص بمفهوم التخلف نفسه كما صاغه أوجبرن من أن العناصر الثقافية اللامادية تتخلف وراء العناصر المادية، ووضح أن علماء الاجتماع قد اختلفوا حول هذه المسألة، فبعضهم قرر بأنه لايمكن الادعاء بأن العناصر اللامادية تتخلف وراء العناصر المادية، وبعضهم أيد أوجبرن فيما ذهب إليه، وآخرون لم يرفضوا الفكرة ولم يؤيدوها. ولكن تركوا موضوع المساجلة حول مفهوم التخلف من حيث أسبقية وجوده على وجوه من الثقافة، إلى محاولة توضيح التأثيرات الاجتماعية التى تكابدها النظم الاجتماعية نتيجة التغير التكنولوجى، وهى الشق الثانى من المسألة، وحول هذه النقطة أيضا اختلف علماء الاجتماع، فمنهم من حاول إبراز أن النظم تختلف فى أسبقيتها فى التأثير بعوامل التغير التكنولوجى وأن أقربها إلى التغير هى أكثرها ارتباطًا بالعناصر التكنولوجية، مشايعين فى ذلك أوجبرن، وأعادوا بذلك إلى الأذهان نظرية الانتشار فى دوائر وأن أكثر المناطق تأثرًا هى المنطقة المباشرة لمركز التغير، وبعضهم ابتعد عن هذه الفكرة وآثر الأمان العلمى ووضح آثار التغير فى النظم الاجتماعية دون التعرض لمسألة الارتباط وشدته بالعناصر التكنولوجية، ولكن نظروا إلى المسألة من زاوية أخرى وهى مدى قدرة النظم الاجتماعية على المقاومة ورتبوا النظم حسب شدة مقاومتها، وآخرون تركوا كل هذا وذهبوا إلى محاولة وضع مفاهيم جديدة تشرح عملية التأثير الاجتماعى وعلاقتها بعمليات المقاومة المنبعثة من النظم الاجتماعية.

وفى الحقيقة أن مفهوم التخلف الثقافى كما صاغة أوجبرن هو صادق ولكن بالنسبة لمكان معين وزمان وبعملية معينة وهو التغير التكنولوجى فى المجتمع الأمريكى. حيث التغيرات التكنولوجية سريعة جداً والنظم الاجتماعية بطيئة جداً، كما وضح ذلك بارنز فى دراسته الممتعة عن النظم الاجتماعية الأمريكية وتخلفها،

ومن ثَمَّ فإن مفهــوم التخلف الثقافى إذا درس من الناحيــة العلمية، بمعنى، على أساس أنه نظرية اجـتماعيــة يمكن أن تصدق كقانون اجـتماعى فإن الأمــر يختلف تمامًــا، إذ أنه لا يمكن الادعاء بأن العناصــر اللامادية تتــخلف دائمًا وراء العنــاصر المادية من الثقافية. إذ أن هذا الأمر لا يصدق على المجتمعات التى تجرى فيها الآن تغيرات اجتــماعية جذرية فى بنائها الاجتمــاعى نتيجة للحركات الاجتــماعية التى أدت إلى إزالة النظم الاجتــماعية القــديمة وأحلت محلها نظمًــا أخرى، ثم جلبت التكنولوجيــا إلى تلك المجتمعات بــعد ذلك استجابة لهــذه النظم الجديدة، أى أن التغير فى النظم الاجتماعية ووجوه الثقافة اللامادية كان سببًا فى التغير التكنولوجى فى تلك المجتمعات .

وكذلك عندما قرر أوجبرن أن العناصر اللامادية تتغير متأثرة بالتغير التكنولوجى لم يدرس المسألة إلا من جانب واحد ولـم يعطها النظرة الشاملة بمعنى «أن أوجبرن توفر على دراســة تأثيرات التكنولوجى على وجوه الثـقافة اللامادية تتــخلف دائمًا وراء العناصر المادية من الثقــافة، إذ أن هذا الأمر لا يصدق على المجتــمعات التى تجرى فيها الآن تغيــرات اجتماعية جذرية فى بنائها تعرض لهــا عرضا أرجعها إلى التراكم التكنولوجى ولـم يتخط هذا إلى دراســة العوامل التى أدت إلى هذا التراكم التكنولوجى، وواضح أن وراء هذا التراكم التكنولوجى عمليات اجتماعية هى التى أدت إلى ذلك التراكم. والغريب أن أوجبرن نفسه قد كرر فى أكثر من مقال له أن الحاجة أم الاختراع، والحاجة هنا ما هى إلا قوى اجتماعية تعمل على هذا التراكم التكنولوجى.

وأكثر من ذلك أنه قــرر «ليس هناك شىء أصلى إذا ألغيت مسـألة الدرجة فأى تغير يمكن أن يختار قدر وضعه شىء آخر فى حركة، والذى كان أيضا فى حركة، وهكذا حتى نعــود إلى مايسمى الأسـباب اللانهائية، بالمثل بــالنسبة للتغـيرات فى التراث الاجتماعى ككل. لا يمكن إثبات الأسبقية سواء للثقافة المادية أو اللامادية، لأن التغـيرات فى الثقــافة اللامادية ربما تكــون متأثرة بواسطة تغـيرات فى الثقــافة المادية، التى كانــت من قبل تعزى إلى تغـيرات فى الثقــافة اللامــادية، التى كانت

سابقًا تعزى إلى تغيرات فى الثقافة المادية، وهكذا. فعندما كل أجزاء الثقافة المتداخلة العلاقات تكون فى حركة وكل جزء يباشر قوة على أجزاء أخرى، لايمكن تعيين مكان أصل الحركة»(١). ولكنه يعود فيقول فى مكان آخر «واضح أن الظروف الاجتماعية تمهد للاختراعات الميكانيكية، وأيضا الاختراعات الميكانيكية تسبب تغيرات فى الظروف الاجتماعية. ولكن من المرغوب فيه معرفة أى التتابع أكثر عمومية، لم يؤسس بعد تعميمًا شاملاً فى هذه النقطة، ولكنه فى الوقت الحاضر فى العالم الحديث يبدو أنه أسهل وجود بيان عن تكنولوجيا تسبب تغيرات فى الظروف الاجتماعية. ومن ثَمَّ نحن نميل لتفضيل الفرض ذى الأهمية الكبرى وهو أن تتابع التكنولوجيا يسبب التغيرات الاجتماعية»(٢).

ومن ذلك يتضح أن أوجبرن ونمكون عندما يتحدثان عن العالم الحديث هما يربطان حديثهما بزمان معين ومكان معين، هو المجتمع الأمريكى بعد الاستقلال. إذا لو اتجه أوجبرن ومن تبعه من العلماء إلى أوربا التى كانت المصدر الأول للتراكم التكنولوجى فى العالم الحديث لتبين لهم أنه لولا حركة اجتماعية ضخمة عبارة عن تغير كبير فى وجوه الثقافة اللامادية، وهى تلك الأفكار والقوى الاجتماعية التى عملت على خلخلة قبضة الكنيسة وضبطها للنظم الاجتماعية والعقلية فى أوربا. ففى الحقيقة أن «نموا دقيقًا وهامًا فى التاريخ الاجتماعى للمجتمعات الغربية، هو ماسهل إلى حد كبير التغيرات التكنولوجية والتنظيمية والأيديولوجية، التى ميزت المجتمع الحديث من مجتمع القرون الوسطى، هو التقلص التدريجى فى دور الأيديولوجية الكنسية وزيادة فى الأيديولوجية الدنيوية»(٣).

وكذلك أخطأ أوجبرن ومن شايعه فى اعتبار أن المجتمعات البدائية التى تكابد تغيرات اجتماعية شديدة وسريعة نتيجة لوطأة التغير التكنولوجى الذى جلب إليها وفرض عليها فرضًا . إذ أن أوجبرن كان واقعا تحت وطأة القهر الأيديولوجى

(1) Ogburn ahd Nimkoff: "H.B. of Sociology" op. cit., p.57.

(2) Ibid. :p. 577.

(3)La piere. Richard : oP. cit.. p. 304.

وفكرة قبلية كونها عن المجتمع الأمريكى، وكذلك استهواء رؤية الآثار الاجتماعية لوطأة التغير التكنولوجى دون النظر إلى العملية الديناميكية التى يتميز بها التغير الاجتماعى نظرة شاملة. إذ أنه ومن شايعه لم يتبينوا أن تلك المجتمعات البدائية هى أولاً وقعت تحت وطأة الاستعمار، والاستعمار يعنى أولاً تغيراً فى النظام السياسى فى تلك المناطق أى أولاً تغيرا فى أحد وجوه الثقافة اللامادية، وإلالما أتيح لهذه العناصر التكنولوجية أن تفرض عليهم، ولوكانت قدمت لهم دون مساندة النظام السياسى المتمثل فى الحكومة المستعمرة، لاتخذ التغير شكلاً آخر، أى أنه حتى فى هذه المجتمعات ابتدأ التغير أولاً فى الوجوه اللامادية من الثقافة.

ولو نظر أوجبرن ومن تبعه إلى هذه المجتمعات من ناحية أسباب التخلف الثقافى لوجدها تختلف تمامًا عن أسبابها فى المجتمعات الحديثة ولأفصحت عن طبيعة العملية الاجتماعية، فى المجتمعات الحديثة «المجتمعات الرأسمالية» فى هذه المجتمعات يكون التخلف فى عناصر الثقافة اللامادية هو نتيجة التغير السريع الذى يطرأ على التكنولوجيا وأساليبها وعلى التنظيم الاقتصادى ومؤسساته ونمو العلم وأساليبه الفنية والتطبيقية مع بطء نسبى فى عناصر الثقافة اللامادية فى نفس المركب الثقافى، بينما التفاوت فى المجتمعات البدائية ينشأ عن التعارض بين مركب ثقافى بما فيه العناصر المادية الذى فرض عليهم، ومركبهم الثقافى، أو بين النظم الاجتماعية بما فيها النظام الاقتصادى وتكنولوجية ونظم المجتمعات البدائية، فهو نوع من الصدام الثقافى، ليس نوعًا من التخلف بين عناصر مواد ثقافة واحد، جانب منها يتخلف وراء الجانب الآخركما هو فى مفهوم أوجبرن ومن شايعه وإنما يمكن النظر على أنه نوع من انعدام التوازن الجذرى، فالمجتمع البدائى قبل وقوعه تحت الاستعمار كانت العلاقات الاجتماعية فيه تؤلف نظمًا اجتماعية متجانسة بل وشديدة الترابط أو بمعنى آخر مركبًا ثقافيًا متكاملاً يشيع فيه التوازن. ولكن الاستعمار يأتى أولاً بتغيير فى النظام السياسى أى يفقد المجتمع حرية العمل والتفكير وفقًا لنظمه ومعتقداته. ومن ثمَّ يحدث انعدام التوازن ويصبح المركب الثقافى غير منسجم ولا متسق، وإنما تتصارع فيه قوى التحكم والضبط الاستعمارى مع قوى الضبط الاجتماعى الأصلية، بحيث يصبح الصراع بين قانون

استعماري مفروض ويباشر تنفيذه المستعمر، وقيم المجتمع الأصلى، أى بين أسلوب فى الحياة وأسلوب آخر. فهو تعارض جذرى ولا يشبه على الإطلاق ذلك الذى يحدث فى المجتمعات الغربية نتيجة التغيرات التكنولوجية دون التعرض للمركب الثقافى ككل، بل هو تعارض فرعى بين متغيرات فرعية وليس بين أسس البناء الاجتماعى، الذى أيضا قد يتضمن قوى متعارضة لكنها عادة تكون فى حالة اتساق وانسجام أو فى حالة توازن، وهذا ما يسمح فى المجتمعات الغربية بالتغيرات التكنولوجية وآثارها الاجتماعية دون إحداث أزمات مدمرة للنظم الاجتماعية، وخاصة أن تلك المجتمعات قد جهزت ثقافتها بعرف وتقاليد عالية التشجيع للتغيرات فى المجال التكنولوجى، وهذا يعتبر أحد عوامل الاتساق والانسجام للقوى المتعارضة فى تلك الثقافات.

والشق الثانى الذى اختلف حوله علماء الاجتماع فى مسألة التخلف الثقافى هو اختلاف معدلات السرعة التى تتغير بها مختلف وجوه الثقافة أو مختلف النظم الاجتماعية أو مادرس آخرون من ناحية اختلاف درجة تأثر عناصر الثقافة المختلفة أو مختلف النظم الاجتماعية بالتغير التكنولوجى. وفى الحقيقة أن هذه المسألة تدور حول الظروف الحاكمة للتغير، أو العوامل الاجتماعية الى تتدخل فى عملية التغير، ليس التكنولوجى فقط، بل أى عملية من عمليات التغير الاجتماعى. وهو ما يجب أن يسميه بعض علماء الاجتماع بتسهيلات أو عوائق التغير فى المجتمع أوما يذهب إليه علماء الأنثروبولوجيا فيطلقون عليه اسم عوامل القبول أو الرفض.

وتدور هذه المسألة حول نقطتين، الأولى هى اتجاه المجتمع نحو التغير نفسه من حيث التشجيع عليه أو مقاومته، أو فى كلمات أخرى قيم وتقاليد ومعتقدات وعادات المجتمع أو ما يطلق عليه أوجبرن ومن يشايعة بالعناصر اللامادية، أو ما يسميه آخرون بأيديولوجية المجتمع واتجاهاتها نحو التغير. والنقطة الثانية فى هذا المبحث هى طبيعة النظم الاجتماعية المؤسسة فى علاقتها بعملية التغير من حيث التسهيل أو المقاومة، ويتعلق بهذه النقطة الممارسون للنظم وهى الجماعات

المتفاعلة داخل المجتمع، واتجاهات كل جماعة نحو عملية التغير المقدمة ومدى تأثيرها على مكانه وأدوار كل جماعة من حيث القوة والرفعة أو التدهور والتهديد لمراكزها، أو ما يحب بعض علماء الاجتماع تسميته بظاهرة المصالح المكتسبة.

النقطة الأولى وهى اتجاه المجتمع نحو التغير من حيث قبول أو رفض أوتسهيل وإعاقة عملية التغير، تكمن فى أن كثيراً من المجتمعات قد هيأتها ثقافتها اللامادية أو قيمها وتقاليدها وعاداتها وأيديولوجيتها لقبول التغير، وأخرى هيأتها لرفض التغير. «فأهمية الميول الاجتماعية فى تحديد الإنجازات الحالية لا بد وأن يؤكد عليها بصفة خاصة من بين هذه الميول سوف يكون الميل نحو التغير الاجتماعى نفسه، فالمقاومة أو منع التغير الاجتماعى قد يكون قيمة عظيمة فى بعض الثقافات. بينما فى مجتمعات أخرى يشجع التجديد ويكافأ ويشرف»[1].

فعلماء الاجتماع وخاصة الأنثروبولوجيون ممن يهتمون بدراسة البناء الاجتماعى يذهبون إلى أن البناء الاجتماعى يتميز بالاستقرار النسبى وأن لديه القدرة على الاستمرار فى الوجود إلا أن الأبنية الاجتماعية تختلف من حيث درجة المرونة والجمود التى تتصف بها، وأن التغير الاجتماعى الذى يحدث فى هذه الأبنية يتوقف على درجة مرونة وجمود البناء فما عملية التغير الاجتماعى إلا تفاعل لهاتين الخاصتين أو صراع بينهما على الإبقاء أو التغير، ومن ثَمَّ يتوقف التغير الاجتماعى فى تلك الأبنية الاجتماعية على العناصر أو القوى الاجتماعية التى تتيح لخاصية دون الأخرى التفوق النسبى. وأن الذى يجعل لدى البناء الاجتماعى القدرة على التغير هى خاصية المرونة، والقوى الاجتماعية التى تتيح لهذه الخاصية التفوق النسبى تكمن فى أن هناك بعض المجتمعات قيمها وعاداتها وتقاليدها هى دائمًا فى حالة توقع للتغيرات.

وما التوقع إلا اعتقاداً مشعوراً به بأن تغيراً ما سوف يحدث، أى أن ثقافة مثل ذلك المجتمع تكون مفتوحة للتغيرات، أو فى كلمات أخرى أن المناخ الاجتماعى يشجع على استقبال التغيرات، فمثلاً «المناخ الاجتماعى للاختراع فى مجتمعنا هو يعجل بهذه التغيرات التكنولوجية التى ينظر إليها على أنها مرغوبة، طالما أنها

---

(1) Lundburg and others : "Sociology" op. cit., p.715.

تبدو أنها تجعل الحياة أسهل وأغنى وأكثر إشباعًا فيقابل المجدد فى هذه الحقول بالتقدير وتتوج مجهوداته بمكافآت مالية فى التكنولوجيا والعلم التطبيقى هناك جو من القبول» [١]. ولكن هذا القبول ليس متروكًا بلا حدود «فتوقعات التغير دائما تضع صورًا محددة على عملياتها يتوقع التغير فقط بين حدود معينة»[٢]. كما أنه ليس متماثلا أو بدرجة واحدة عند كل المجتمعات، فهناك مجتمعات يكون القبول مسموحًا بـه فى بعض وجوه الثقافة دون الأخرى، كما تختلف درجة القبول فى تلك الوجوه المسموح بها باختلاف المجتمعات، أو قد يكون التغير مقبولا ومسموحًا به فى كل أوجه الثقافة فى مجتمعات أخرى. ففى المجتمعات ذات الثقافة الراقية «هناك تقليد طويل من توقع التغير فى المخترعات التكنولوجية التى تعمل على إثراء الحياة البشرية»[٣].

وكذلك التغير تختلف درجات قبوله باختلاف وجوه الثقافة «بعكس الاستقبال التقليدى الذى أعطى للاختراعات التكنولوجية اختراع دين جديد أو نظام أسرة أوأيديولوجية اقتصادية، يقابل باتجاهات تبتدئ من الشك إلى العدائية السافرة»[٤].

ويليه فى الدرجة الحقل الذى يقع فيه التغير التكنولوجى ثم النظم الشديدة الترابط بالتكنولوجيا، ولكن أيديولوجية المجتمع الأمريكى تقف حائلاً أمام قبول التغير فى النظم الاجتماعية، كما وضح بارنز فى حديثه عن تخلف النظم الاجتماعية فى ذلك المجتمع، إذ أن تقاليده وقيمه وعرفه تقف حائلاً دون مجرد التفكير فى التغير فى هذه الجوانب من الثقافة ويعبر عن ذلك سمنر بقوله: «هناك من يريدون مناقشة الزواج المزدوج.. فشلوا فى الحصول على من يسمح لهم بذلك. والبعض الآخر يريد مناقشة الملكية. وبالرغم من أن هناك كتابات نشطة فى هذا الموضوع فلا أحد يريد مناقشتة. الزواج والملكية هم فى المعايير. الشىء الذى يلاحظ فى كل هذه الحالات أن الجماهير تعارض كل مناقشة ضد المعايير»[٥]. أى أن المجتمع الأمريكى ليس فيه توقعًا للتغير فى هذه الوجود من الثقافة.

(1) Mirrill: op. cit., P.474.

(2) Barnett: op. cit. P. 57.

(3) Ibid: p.313.

(4) Mirrill: op.cit. P.475.

(5) Sumner: op.cit., 75-77

وفى الناحية المقابلة هناك مجتمعات توقع التغير فيها أمر مطلق ومباح فى كل وجوه الثقافة، فمثل هذه المجتمعات يتميز بناؤها الاجتماعى بمرونة عالية لتقبل التغيرات. «فجماعة النفاجو Navago يتوقعون نموات جديدة فى ثقافتهم، فى تاريخهم. فهم يرحبون بالتغير ويقبلونه على أنه تكيف حقيقى للعالم المحيط بهم، وكذلك الساموانز Sumoans من المتوقعين للتغيرات ولكن بطريقة تختلف عن النفاجو، فهم يتوقعون أن كل فرد بينهم يتحد مع كل شىء يفعله، والتقليد شىء مؤسف، فكل فرد له طريقته فى لبسه وفى رقصه وفى بناء مسكنه، فتوقع الانحراف يمتد حتى إلى الدين والتنظيم السياسى لكل من الفرد والقرية، فالقاعدة هى التجديد»[١]. بل هناك مجتمعات بلغت درجة توقع التغير فيها إلى أعلى مستوياتها، أى أن ثقافتها قد جهزت ذلك المجتمع للتوائم مع أى تغير وفى أى وجه من وجوه الثقافة مثل جماعة البالوانز Paluans «يتوقعون التغير فى ثقافتهم، هذا الاتجاه منجسم مع تاريخهم. فالظاهر أنهم كانوا دائمًا غير مستقرين سياسياً، والهزيمة ومعاناتها ليست شيئًا جديداً بالنسبة لهم، فمنذ اكتشف الجزيرة الأوربيون فإن شعبها قد أخذ سيادة الغرباء عليهم كأمر طبيعى وأنه حقاً خاصاً بالمنتصر.

فهم تفلسفوا حول التغيرات التى قدمها الألمان واليابانيون والأمريكيون، بل بعضهم يسأل من التالى»[٢].

كل هذه الحالات تبين أن التغيرات التى تتمشى مع المعايير من السهل إحداثها «لكن التغيرات التى تعارض المعايير تتطلب مجهوداً طويلاً وصبراً إذا كانت ممكنة كلية»[٣]، من ثَمَّ فالمعايير تشكل التغير بلونها وتحدد منذ اللحظة الأولى المقبول منه والمرفوض. وهكذا فأيديولوجية أى مجتمع هى «جزء حيوى من الحياة الاجتماعية وبتوليفها مع العوامل الأخرى، فإنها إما لتبنى وتسهل التغير فى النسق الاجتماعى أو لا تشجع وتعارض التغير»[٤]. فالفلسفة الاجتماعية لأى مجتمع

---

(1) Barnett: op.cit. p. 56-57.

(2) Ibid, p. 99.

(3) Sumner: op.cit., P.94.

(4) Le piere: op.cit., p.263.

ذات تأثير بالغ فى قبوله أو رفضه لنوع معين من التغيرات إذ أن تلك الفلسفات الاجتماعية ماهى إلا التصورات الفكرية لذلك المجتمع سواء عن علاقة أعضائه ببعض أو علاقتهم بالبيئة الطبيعية. ولما كان أى تجديد لا يقفز من لا شىء، إنما هو ينشأ فقط بين تلك الأفكار وأن الأفكار هى التى ألفت بين عناصره، فطالما أن التجديد منبعث من خلال الأفكار فهى إذن التى تشكل مادته الأولى، ومن ثَمَّ فهى تحدد منذ اللحظة الأولى مجاله وأسلوبه.

ولا يمكن النظر إلى هذه الفلسفات الاجتماعية أو الأيديولوجيات كعوامل ثابته لأنهم لا ينشئون أنفسهم من لا شىء ليحدثوا آثارهم. كما أن آثارهم تتغير بتغيير محتوياتهم، فمحتوى الأيديولوجية فى المجتمعات الأوربية فى القرون الوسطى التى كانت تقوم على الأفكار الدينية ذات القداسة والتحديم الشديد منعت تلك المجتمعات زمناً طويلاً من التفكير فى مواضيع معينة، أو بمعنى آخر من محاولة التوليف بين عناصر الثقافة توليفة جديدة غير التى أتاحتها الكنيسة. ومن ثَمَّ كانت هذه الفلسفات الاجتماعية عائقًا وحائلاً دون التغير السريع فى تلك الحقبة، ولكن عندما ابتدأت الأفكار القائمة على أساس من التفكير العقلى والتحرر من الحجر الكنسى، أو بمعنى آخر الأيديولوجيات الداعية إلى التجديد وحرية الحركة نحو التوليف بين عناصر الثقافة، فإن تحول وتغير محتوى الأيديولوجية الأوربية هيأت المناخ الاجتماعى للتغير. إذا أن الفرق بين الأيديولوجية الكنسية القائمة على جزاءات صارمة وممارسين لا يقبلون أى تفسير إلا ماتركه الأسلاف من القساوسة. وبين الأيديولوجية الدنيوية التى تجعل مواد الثقافة أيا كانت خاضعة للشرح والتفسير لكل فرد عن طريق العقل والتجريب. إذ «تتضمن الأيديولوجية العلمانية مفاهيم قابلة للاختبار كلية، ولهذا الأيديولوجية العلمانية يمكن أن تتغير كنتيجة للخبرات التجريبية. فطالما يعتقد الناس حقّاً أن ملوكهم ملوكًا بالإرادة الإلهية ومرسمين إلهيا ولا يمكنهم فعل الخطأ، سوف لا يرغبون فى الخروج عن هذه القاعدة مهما كانت الأدلة التى تقدمها تجاربهم الشخصية مع حكمهم، ولكن عندما يصبح الناس يعتقدون أن

حكومتهم من صنع أنفسهم أو أجدادهم سوف ينظرون إلى أعمالها نظرة المحاسب بل وقد يعملون ضدها»[1].

كما أن الأيديولوجية الدنيوية نوعان ومن ثَمَّ يختلف تأثيرهما على التغير فلقد ذكر أوجبرن أن هناك نوعين من الأيديولوجية، أحدهما خيالية وهى تصدر عن التطلعات وآمال الإنسان ومخاوفه أو مشاعر أخرى، وسمى هذه الأفكار بالمعتقدات، وأنها تحتوى أفكارًا لا تتعلق عن قرب بالحقائق، ورغم ذلك لها تأثيرها، فهى تتحكم فى عملية التغير، وضرب مثلاً لذلك بفكرة الجنس فى الأيديولوجية النازية التى لم يكن لها أساس حقيقى سواء بيولوجى أو أنثروبولوجى ورغم هذا لعبت دورًا هامًا فى بناء اقتصاد مكتفى ذاتيا فى السلع المادية، وكذلك الأيديولوجية الماركسية وتأثيرها على التنظيم الاجتماعى فى الاتحاد السوفييتى. كما أن هناك أيديولوجية تتميز بخليط من أفكار الحقيقة والخيال ومثل لذلك بفكرة: دعه يعمل. وقرر أن العالم المادى يتأثر أكثر بواسطة الأفكار الواقعية عن تأثره بالمعتقدات. فالثقافة المادية لا تلين بسهولة للأفكار من النوع الخيالى»[2].

وهكذا فطالما يعتقد مجتمع ما فى أن أحد أوجه الثقافة لا يجوز فيه التجديد إما بسبب العرف أو التقاليد أو القيم أو الأيديولوجية، يصبح تغير هذا الوجه من الثقافة بطيئًا جداً.

وليس معنى هذا أن هذه المعتقدات أو القيم أو الأيديولوجيات هى قوالب جامدة غير قابلة للتجديد بل هى أيضا تجرى عليها عملية التغير. ومن ثَمَّ فإن القيم التى تشجع التغير تكون هى ذاتها متأثرة بهذا التغير، بمعنى أنه كلما كانت القيم من النوع المشجع على التغير تصبح هى ذاتها أسرع تغيرًا من تلك التى لاتشجع التغير، فهى كما تقف حائلاً دون التغير لا تتغير هى. وهكذا يصاب المجتمع بالجمود أو المرونة نتيجة لما فيه من قيم ومعتقدات ومعايير. وفى الحقيقة إن هذا المجال من المجتمع أو الثقافة هو أشد المناطق مقاومة للتغير، ومن ثَمَّ أقلها

(1) Ibid.:p.304.

(2)Ogburn and Nimkoff,: op. cit., p.p. 578-581.

تأثرًا بالتغيرات الاجتماعية أو التكنولوجية، إذ أن هذه العناصر لها جلالها وقدسيتها التى اكتسبتها من كونها أتت إلينا من الماضى وغرست فينا وتوحدت مع ذواتنا أثناء عملية التنشئة الاجتماعية. «فلقد أتت إلينا المعايير من الماضى ولقد ولد كل فرد بينها. وطالما أنه ولد فى جوها فهو لا يستطيع أن يضيق عليها أو يفقدها، ومن ثَمَّ يزعن كل فرد لتأثير المعايير وتشكله قبل أن تكون له القدرة على فحصها عقليًا»[(1)].

وليس معنى هذا أنها لا تحمل فى طياتها الأسباب العقلية لرسوخها ولكن بالعكس «هى تتضمن فى ذاتها تبريراتها الذاتية بواسطة التقاليد والفائدة والرغبة وتؤيد بجزاءات خفية، وهى ليست منبهة للفكر بل على العكس، فقد تم صنع التفكير وأصبح منغرسًا فى المعايير. وهى لا تحتوى إطلاقًا أى تجهيز لتغيير ذاتها فهى ليست أسئلة ولكنها إجابات لمشاكل الحياة فهى تضع نفسها كشىء نهائى وغير متغير لأنها تقدم إجابات معطاة على أنها صدق»[(2)].

وهكذا ينمو الإنسان فى مجتمع معين ذا عرف وتقاليد وقيم معينة، هذا النمو الواقع تحت تأثير وفى ظل هذه العناصر يشكل أسلوب أعضاء المجتمع فى التفكير والعمل، ومن ثَمَّ تصبح قوالب ذات صلابة، ولهذا ينظر أعضاء المجتمع لمواد الثقافة وما يطرأ عليها من تغير فى أساليب منمطة قد هيئتها تلك الأنماط وكونت منها فلسفة عن الحياة، تلك هى التصورات الفكرية التى يواجه المجتمع بها التغيرات، ومن ثَمَّ فإن كانت التغيرات تتفق مع تلك الفلسفة فإنه يسمح بها، وتلك التغيرات التى تتعارض معها تقاومها وتكبتها من ناحية، ومن ناحية أخرى يكون تأثرها هى بالتغير يكاد لا يذكر، أى أن هناك تناسبًا طرديًا بين مقاومة المعتقدات والقيم وبين شدة تأثرها بالتغيرات، «ولهذا يعتبر التغير تغلبًا على المقاومة، إذ أن عملية التغير طالما أنها تتعدى الأنماط المنتظمة للفعل والعلاقة، لهذا: التغير ليس أبدا مجرد تحول للأنماط ولكن تحولاً بواسطة التغلب على المقاومة»[(3)].

---

(1) Sumner. op. cit., p.76.

(2) Ibid: p.76.

(3) persons: "Social System" op. cit., P. 491.

وذلك هو السبب فى أن التغير التكنولوجى أصبح سريعًا فى الثقافات الراقية حيث إن المحتوى الثقافى ليس فيه مقاومة لهذه التغيرات، إذ أن قيمته وأيديولوجيتة سوف تسمح مباشرة بنجاح التغير فى المحتوى الإدراكى للجزء الخاص بها من الثقافة، والعكس صحيح، بمعنى أن شدة المقاومة التى تقابل التغيرات فى مجال النظم الاجتماعية فى المجتمع الأمريكى مثلاً تسبب عدم قدرة التغير على التغلب على المقاومة المتضمنة فى المحتوى الثقافى للمجتمع.

وبالمثل إذا كانت عناصر الثقافة شديدة الترابط وكان الإبدال جذرياً، فإن المقاومة تبلغ أعلى مراحلها، وتخف حدتها إذا كان الإبدال سطحياً. كما يحدث عندما يراد إدخال فى ثقافة شديدة الترابط، عنصر من ثقافة أخرى تختلف عنها جذرياً أى ذات قيم وعادات وتقاليد متعارضة تمامًا، إذ أن العنصر الثقافى المراد إدخاله، هو فى ثقافته الأصلية يشكل حالة من التوازن والانسجام والتكيف مع بقية عناصرها، فإذا نقل إلى الثقافة المتعارضة فهو بالتالى يكون متعارضًا مع عناصرها ويشكل حالة من اللاتوازن وسوء التكيف، ومن ثَمَّ تشتد المقاومة لإخراج العنصر المحدث للاتوازن لإعادة اللاتوازن إلى ما كان عليه، أو مساندة العنصر الدخيل بقوة كبيرة تمكنه من التغلب على المقاومة لإحداث تغيرات جذرية فى المحتوى الثقافى لقبول التغير نفسه.

ذلك يشبه ما حدث فى المجتمعات البدائية نسبياً التى وقعت تحت سيطرة الاستعمار الأوربى، خاصة إذا كانت ثقافة المجتمع المقهور من النوع الذى مناخه الاجتماعى لا يهيئ لقبول التغيرات، ومن ثَمَّ «فالتغير يقبل واقعياً ولكن بمعنى القهر، فبعض الناس يقبلون الذى لا يمكن تجنبه بيأس، والبعض يقاسون فى صمت والبعض فى مرارة، حقيقة إن بعض الناس يتوقعون التغير ولكن لايرحبون به، هذا لا يعنى أنهم تحت رحمة القوى الاجتماعية التى ليس لهم سلطان عليها، إنما يعنى هذا أنهم تحت رحمة أناس آخرين ذوى عقائد وأفكار عكس أفكارهم وعقائدهم»[1]. وذلك ما يطلق عليه بعض العلماء «التكيف

(1) Barnett. op. cit., P. 50.

الثقافى الغذائى «Hostile acculturation»[1]. حيث تكون عناصر الثقافة المفروضة متعارضة جذرياً مع عناصر الثقافة المفروضة عليها، ومن ثَمَّ يعنى التغير فى تلك المجتمعات التغلب على مراكز المقاومة فى المحتوى الثقافى لتلك المجتمعات أى قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم ومعاييرهم، ومن هنا تتدهور القيم المتوارثة وتتفكك العلاقات الاجتماعية التقليدية، ويصبح المجتمع غير متوازن ولا منسجم إذ أن القوى التى كانت تعطيه تماسكه قد قهرت.

وتخف حدة المقاومة إذا كانت عناصر الثقافتين المستعيرة والمعيرة متشابهتين، ومن ثَمَّ يكون توطين السمة الثقافية الجديدة غير مقلق للقيم والتقاليد لتشابهما فى الثقافتين، وإن أحدث شيئًا من اللاتوازن فهو من النوع الذى يمكن التغلب عليه بسهولة لأنه لا يمس مراكز المقاومة الشديدة من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون هناك القوى الاجتماعية التى سببت الاستعارة مؤيدة للسمة الجديدة، كأن تكون هذه السمة أكثر إشباعًا من السمة القديمة، وهذا ما يطلق عليه (التكيف الودى Friendyl acculturation)[2].

●●●

(١) دكتورأحمد أبو زيد «البناء الاجتماعى مدخل لدراسة المجتمع » ج١، ص ٢٧٨.

(٢) المرجع السابق ص ٢٨٨.

النموذج الثانى

النظريات الحتمية ونقدها

لم تتوقف النزعة الحتمية عند تفسير التطور الاجتماعى فى مراحل جامدة فقط، بل امتدت أيضًا إلى العوامل العلية فى التغير الاجتماعى ولقد شاع هذا الأسلوب فى تفسير التغير الاجتماعى ووجد له مؤيدين وأنصاراً حتى تكونت نظريات تدعى حتمية هذا العامل أو ذاك. ويشرح ماكيفر معنى الحتمية فى قوله (نحن نعنى بالنظريات الحتمية أى مذاهب تفسر السلوك الإنسانى والتغيرات فيه، تفسيراً أولياً بالظروف البيئية والخارجية والمادية)[1] وهذا التفسير به قصور إذ يغفل النظريات الحتمية التى تنادى بعامل أو آخر من عوامل الثقافة اللامادية. ويسمى ماكيفر هذا النمط من التفسير بالحتمية البيئية ويشرحه كالآتى (هذا النمط من التفسير له اختلافات كثيرة، طبقًا للتركيز على واحد أو أكثر من نواحى البيئة. مثلاً إذا جعلت التغيرات المناخية أو الجغرافية أولية، فنحن نتعامل مع ظروف بالتأكيد لا تخضع لرغبة الإنسان ويصبح التفسير بسيطًا جداً (وإن كان غير ملائم أبدًا). وإذا ركزنا على الظروف الاقتصادية أو التكنولوجية يصبح التغير أكثر تعقيداً، ليس فقط لأنها دائمًا وغالبًا سريعة التغير، ولكن أيضًا لأنها هى نفسها تعبيرات عن المناشط الإنسانية. ومن ثَمَّ فالحتمية ليست مطلقة. مثل هذه التفسيرات يمكن أن تظل مسماة حتمية إذا كانت تدعى أن التغير البيئى هو دائمًا العامل المدخل للتغير الاجتماعى، أو إذا جعلوا التغير الاجتماعى غير مقصود ولكنه نتيجة ضرورية للتغير البيئى)[2].

وهكذا يتضح أن ماكيفر يقصر تعريفه للنظريات الحتمية على العوامل البيئية. ولكن فى الحقيقة أرى أن يمتد التعريف ليكون (يحدث التغير الاجتماعى عند النظريات الحتمية نتيجة لتوفر قوى معينة اجتماعية أو طبيعية دون أن يكون

(1) Maciver and Page: op. cit., P. 558.

(2) Ibid.: P. 558.

للإنسان نفسه دخل فى معظم الأحوال). ولقد اختلفت النظريات الحتمية حول نوع القوى أو العامل العلى الحتمى للتغير الاجتماعى. ويمكن تلخيص معظمها فى الآتى:

١- نظرية الحتمية البيولوجية: التى ترجع التغيرات الاجتماعية إلى الاختلافات الوراثية فى الذكاء والقدرات والإمكانيات. ويندرج تحت هذه الحتمية أيضًا الحتمية العنصرية التى ترجع الاختلافات بين المجتمعات إلى اختلافهم فى الأصول السلالية، وكذلك يتفرع منها الحتمية السيكولوجية التى تفسر التغييرات الاجتماعية فى ضوء الدوافع أو الغرائز كما يمكن إلحاق المدرسة الداروينية أيضًا بالحتمية البيولوجية إذ أنهم يرون أن المجتمع يتطور طبقًا لقوانين التطور البيولوجى، وأنه يعبر عن صراع مستمر من أجل البقاء وأن البقاء للأصلح.

٢- نظرية الحتمية الجغرافية: التى تفسر التغير الاجتماعى على أنه استجابة للعوامل الجغرافية مثل المناخ والتربة والموقع وما إلى ذلك من الحقائق الجغرافية، وهذه النظرة تعتبر امتدادًا لما ذهب إليه كل من أرسطو ومنتسكيو أن الأنظمة الاجتماعية والسياسية، على أنها نتاج مباشر للظروف الجغرافية فى المناطق المختلفة. ومن أشهر المتشعبين لها العلامة تافت وهنتنجتون.

٣- نظرية الحتمية الاقتصادية: كما عند سمنر وكيلر ومورجان. ولكن الحتمية الاقتصادية فى أعلى مراحلها وأوضح صورها تتمثل عند كارل ماركس، الذى كان يرى أن العامل الاقتصادى هو العامل الأساسى فى تحديد بناء المجتمع وتطوره.

٤- نظرية الحتمية التكنولوجية: التى ترى أن أصل كل تغير اجتماعى هو استجابة للتغير فى الوسائل التكنولوجية وأن التغيرات الاجتماعية الحادثة فى أى مجتمع هى للحاق بالتغير التكنولوجى.

٥- نظرية الحتمية الأيديولوجية: التى ترى أن نسق المعتقدات هو الذى يتحكم فى التغيرات الاجتماعية وتطور المجتمع. فهذا النسق هو الذى يحدد المرغوب

والمسمـوح والممنوع (فيرى ماكس فـبر أن نشأة الأخـلاق البروتستانتـية هى التى جلبت إلى الوجود الصناعة الحديثة والأشكال الرأسمالية للحياة الاقتصادية)(١).

كمـا أن أوجست كونت (رأى فى تطور العـقل البشرى سـببًا للتـقدم)(٢) ودى روبرتى كان يعتبر الأفكار هى البواعث الأولى أى أن التغير الاجتماعى يعتمد عنده فى المحل الأول على الأفكار أكثر مما يعتمد على العناصر المادية الملموسة التى تحتل بذلك مكانًا ثانويًا بالنسبـة للعناصر اللامادية(٣). (واعتقد دوركـيم أن التصورات الجمعـية هى التى صنعت التمـاسك الاجتماعى ومن ثَمَّ الاسـتقرار الاجتـماعى. وسومبارت Sumpart قال إن ظهور روح جـديدة فريدة، أو انبعاث مجـموعة من الأفكار جعلت من اكتساب الثروة الهدف الأكبر فى الحياة وذلك ما صنع التغيرات التى كونت المجتمع الحديث(٤).

إن هذه النظريات الاجتمـاعية فى محاولتـها لتفسيـر التغير الاجتـماعى بعامل واحد وتصوره فى نمط محدد عام وأبعـدت أى عامل من عوامل التحكم الإنسانى الواعى المقصود. فهى تعارض وجهة النظر التى يعتقدها لستر وارد وتشارلس الوود من أمريكا ولدفيج شتاين من ألمانيـا، وهوبهوس من بريطانيا الذين كانوا يرون أن المجتمع يتغيـر نحو التقدم بفضل الجهود المقصودة الرتيـبة المتواصلة. أو بقول آخر عن طريق التخطيط الدقيق.

وعلى الرغم من أن النظريات الحتمـية قد أبرزت عناصر هامة فى عمليـة التغير الاجتماعى إلا أن إرجاعـها التغير إلى عامل واحد، واعتباره نظامًـا شاملاً محددًا لشرح جميع التـغيرات الهامة فى المجتمعات، دون اعـتبار لظروف الزمان والمكان والتراث الاجتماعى، أدى بها إلى الانحراف عن حقائق علمية اجتماعية واضحة.

فهذه النظريات أغفلت مبدأ السببيـة العلمية المؤسس على التفاعل بين متغيرات

---

(1) La Piere. Richard. T.: "Social Change", McGrow Hill Book Com. N.Y. 1665 P. 261.

(2) Ibid.: P. 291.

(٣) دكتور أحمد أبو زيد: البناء الاجتماعى مدخل لدراسة المجتمع، ص ٢٦.

(4) La Piere: op. cit, P.292.

متشابكة كما أنها تجاهلت أيضًا حقيقة أن النظم الاجتماعية ونوع الأحداث المختلفة تتوقف دائمًا على التفاعل بين عوامل معقدة، تتشابك وتتداخل فى تكوين الوسط الاجتماعى، فمن ظروف جغرافية إلى بيولوجية وعوامل اقتصادية وتكنولوجية ومعتقدات، إذ أن (البيئة التى نستجيب لها معقدة جداً، ولهذا فإن استجابتنا لها لابد أن تكون منتخبة. هذه الصعوبة تظهر عندما نحاول التوفيق بين الأنماط المختلفة للنظرية الحتمية، فمثلاً نفترض أننا ننشد تفسير الصفات الخاصة لمجتمع أمريكا الشمالية. فنحن لا نستطيع فى نفس الوقت إعطاء الأولوية مع هنتنجتون Huntington لتأثير المناخ والجغرافيا، ومع ترنر Turner لتأثير أسلوب حياة الحدود، ومع ماركس للنسق الاقتصادى، ومع فبلن Veblen للعادات التى ولدها تكنيك الصناعة. أى أن كل الظروف التى أفردناها ربما يكون لها أهمية لفهم مجتمع أمريكا الشمالية، ولكن إذا أخذ واحد منها كتفسير كلى، ويضاد كل الآخرين، تنشأ الصعوبة من أنه لا يمكن لأحدها أن يؤسس أرضية حتمية خالصة، لأننا لا نستطيع على هذه الأرضيات تفسير لماذا مجتمعنا يستجيب للبعض فى وقت ما، وبرفضها فى وقت آخر[١].

وعلى الرغم من أن العلوم الاجتماعية لم تصل فى تطورها إلى الحد الذى يوضح العلاقات الصحيحة بينها وأثر كل عامل فى التغير، إلا أن الحقيقة الثابتة هى أن أى عامل من هذه العوامل يعتبر متضمنا فى السلوك الإنسانى.

ويبدو أن النزعة الحتمية فى هذه النظريات تقوم على فرض استحالة التجديد الجوهرى فى التاريخ الإنسانى كما يظهر واضحًا عند ماركس. بل إنه ذهب إلى حد التنبؤ الكامل الحتمى للتغير الإنسانى، ووصف عملية اجتماعية عامة تتحكم فى جميع التغيرات الماضية والتغيرات الحاضرة والمستقبلة كذلك. (فعنده مرحلة النمو التكنولوجى تحدد أسلوب الإنتاج والعلاقات والنظم التى تكون النسق الاقتصادى، هذه المجموعة من العلاقات بدورها هى المحدد الرئيسى لكل النظام الاجتماعى)[٢].

---

(1) Maciver and Page: op. cit., P.P. 558- 559.

(2) Ibid.: P. 559.

فهو أفرط فى تلخيص التطور الرأسمالى بادعاء التركيز المتزايد للثروة وتزايد البروليتاريا. وأفرط فى تلخيص دور الدولة كتنظيم لطبقة سائدة التى سوف تذبل مع الثورة الشيوعية. ولقد تنبأ بأن هذا سيحدث فى إنجلترا الدولة الصناعية الرأسمالية السابقة فى النمو الصناعى، ولكن الثورة حدثت فى روسيا الزراعية، والدولة لم تذبل بل تأكد دورها عما كانت فأصبحت المنتج الوحيد.

ومن ثَمَّ فهذه النظريات لا تدعى فهم الماضى فحسب، وإنما تؤكد كذلك استحالة حدوث تغيرات جديدة فى ظروف الحياة الإنسانية. هذا على الرغم من أن مبدأ التطابق العلمى لا يقوم على الاعتقاد بضرورة حدوث ظروف معينة مقررة إذ أنه مؤسس على المبدأ القائل إنه إذا حدثت بعض الظروف فسوف يتلوها نتائج معينة، وقد أظهرت حقائق التاريخ الإنسانى -كما حدث فى الثورة الروسية وقيامها فى بلد زراعى بدلاً من صناعى كما زعم ماركس- فساد الاعتقاد باستحالة ظهور ظروف جديدة فى المجال الاجتماعى.

ومن ثَمَّ (فقبول تفسير خالص هو بالتأكيد سوء فهم للتعقيد المتناهى للعلاقات بين الحياة والبيئة. تلك البيئة التى لا ينبهها فقط فنون الإنسان ووسائله الفنية ولكن أيضًا معتقداته ورغباته وتطلعاته[1] وفى الحقيقة (أن نظرية عامة عن عمليات تغير النظم الاجتماعية ليست ممكنة فى الحالة الحاضرة للمعرفة. السبب بسيط جداً، أن مثل هذه النظرية سوف تتضمن معرفة كاملة عن قوانين عملية النسق وهذه المعرفة نحن لا نملكها[2].

والعجيب أن بعض هذه النظريات الحتمية، وخاصة الحتمية البيئية التى تدعى الموضوعية فى تفسيرها للتغير الاجتماعى، تتصور أن من الموضوعية إخراج العامل الإنسانى من هذه الموضوعية.

والحقيقة أن الإنسان أحد عناصر مكونات المجتمع بل هو أهم عنصر من عناصره، وفى جعله مجرد مستجيب لمؤثرات البيئة وتغيراتها، كما تدعى النظريات

(1) Maciver and Page: op. cit., P.P. 572- 573 .

(2) Parsons: op. cit. P. 486.

الحتمية إغفال لفاعلية الإنسان، وإذا قيل إنه فى مطلع الإنسانية كان الإنسان يستجيب للبيئة لا حول له ولا قوة، وهذا قول فيه كثير من الشك، والأقرب إلى الصحة أن تدخله فى الظروف المحيط به لم يكن ناميًا. وإنه بتقدم العلوم الطبيعية ثم الاجتماعية، أصبح العمل الاجتماعى الواعى عاملاً رئيسيًا فى التغير الاجتماعى وتطور الأحداث التاريخية بحيث يتعذر وضع حد جامد مقدمًا لمسار التغير الاجتماعى.

وغنى عن البيان أن هذا التعارض لا يقودنا إلى إقصائهم كلهم، إذ الحقيقة أن النظريات الحتمية قد كشفت أثناء دراستها عن علاقات ذات أهمية، ووضعت فروضًا نشطت البحث الاجتماعى. إنما ما يؤخذ عليها هو تحيزها لعامل أو آخر فالجماعات الإنسانية فى تكيفها بظروف بيئتها، يمكن أن تتخذ أساليب عديدة، فهناك مكان لعمل القلة الأذكياء، وهناك مكان لدور الصدفة، وهناك مكان لعوامل البيئة من اقتصادية وتكنولوجية وجغرافية. وهناك أيضًا مكان لنسق المعتقدات ليلعب دوره فى توجيه التغير الاجتماعى. فمرة يكون هذا العامل أو ذاك مؤثرًا ومرة أخرى متأثرًا، وقد يكون مؤثرًا ومتأثرًا فى آن واحد. وهكذا فإن التفسيرات الحديثة تأخذ العلية النسبية لجميع العوامل فى تفسير التغيير. (لقد أصبح واضحًا أن التغير لابد وأن يشرح كعملية تتوقف على تفاعل عوامل عديدة)[1]. فالتغير الاجتماعى يحدث نتيجة لعوامل عديدة. مثل التكنولوجى والصناعى والاقتصادى والأيديولوجى والدينى وليس لعامل واحد ترجيح أو أفضلية على العوامل الأخرى فى حد ذاته.

وإن كان يذهب بعض العلماء إلى أن التكنولوجيا هى أساس لكل التغيرات فى العلاقات الاجتماعية، كما يؤكد آخرون أن حالة الفنون الصناعية تسود المناطق الأخرى للمجتمع. كما يذهب آخرون إلى أن التنافر بين الطبقة التى تملك أدوات الإنتاج والطبقة التى لا تملك هى الأهم، وأيضًا وضع البعض العوامل الأيديولوجية أو الدينية على أنها تؤدى للتعديلات الأساسية فى الدور

(1) Maciver and Page: op. cit.. P. 626.

والمكانة. والحقيقة أن المجتمع ككل هو عملية معقدة من التفاعل الاجتماعى لعديد من العوامل. وكل العوامل السابق ذكرها وأكثر، تعمل فى التغير الاجتماعى.

ويلاحظ أن التغير الاجتماعى نفسه لا يسمح بسبب واحد، إذ أن كل عنصر فى المجتمع يؤثر فى كل عنصر آخر. (وهكذا التغير الاجتماعى ليس له سبب واحد، وبالمثل ليس هناك نظرية للتغير وحيدة ومحيطة. فلقد حاول كثيرون إقامة الحقيقة العظيمة الضخمة للتغير الاجتماعى على سبب واحد مثل التجديدات أو التطلعات الدينية. لا نظرية من هذه النظريات كافية للإحاطة بالحقيقة المعقدة للتغير الاجتماعى)[١].

فالحقيقة أنه ليس هناك واحد أو اثنين من المصادر الأولية من المحركات للتغير الاجتماعى، فالمحرك لعملية تغير قد يتولد فى نمو وتصور ثقافى، مثل ما يحدث تمامًا فى نمو علم أو أفكار دينية، وقد يتولد أيضًا فى تغير فى التركيب السكانى أو فى حجمهم، أو التحول فى البيئة الطبيعية (فالمبدأ المنهجى الرئيسى لنظريتنا هو الاعتماد المتبادل لمجموعة من المتغيرات. لوضع نظرية عامة عن أولية عامل من عوامل التغير الاجتماعى هى فى الحالة الراهنة للمعرفة تتطلب مسألة الاعتماد المتبادل التجريبى الذى مازال فى حاجة إلى برهنة. ولهذا نحن نضع مقدمًا ما نسميه مفهوم جماعية المصادر المحتملة للتغير الاجتماعى مع الفهم أن التغير ربما يتولد فى أى جزء من النسق الاجتماعى موصوفًا فى مصطلحات بنائية أو مصطلحات من المتغيرات)[٢].

***

(1) Merrill, F E.: "Society and Culture" Prentice Hall Inc., Englewood Cliffs, New Jersey, 1965. P. 406.

(2) Parsons: op. cit., P.P. 493- 4949.

المراجع العربية

أحمد أبو زيد -دكتور- البناء الاجتماعى- مدخل لدراسة المجتمع- الجزء الأول، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٥ .

أحمد الخشاب -دكتور- التفكير الاجتماعى- دار المعارف- القاهرة- ١٩٧٠م.

اميل دوركيم -قواعد المنهج فى علم الاجتماع- ترجمة دكتور محمود قاسم- مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- ١٩٥٠م.

تيماشيف -نظرية علم الاجتماع- ترجمة الدكاترة محمود عودة، محمد الجوهرى، محمد على، السيد الحسينى- دار المعارف- القاهرة- ١٩٧٧م.

سمير نعيم أحمد -دكتور- النظرية فى علم الاجتماع- دار المعارف- القاهرة- ١٩٧٩م.

محمد فؤاد حجازى -دكتور- البناء الاجتماعى- مكتبة وهبة- القاهرة- ١٩٧٩م.

مصطفى الخشاب -دكتور- أوجست كونت- لجنة البيان العربى- القاهرة- ١٩٥٠م.

●●●

المراجع الأجنبية

1- BARNETT, H.G.: "Innovation" Mc Grow- Hill BooK Comp. Inc. N.Y. 1953.

2- BENDIX, RENHARD: "Max Weber's Sociology to day" International Social Science. Jornal, Vol. XVII, 1956.

3- BLALOCK, H.M.: "Theory Construction, From Verbal to Mathematical Formulation" Prentic- Hall, Englewood Cliffs, N.J. 1969.

4- BLAU, P.: "Exchange and Powe in Social Life" Wiley, New York, 1964.

5- BLUMER, H.: "Symbolic Interactionism, Perspective and Method", Prentic- Hall, Englewood Cliffs, New Jersy, 1969.

6- Buckley, W.: "Sociology and Systems Theory" Prentice- Hall, Englewood Cliffs. N.J., 1967.

7- COSER, L.A.: "The Functions of Social Conflict" Free Press, Chicago, 1956.

8- COSER, L.A.: "Continuities in the Study of Social Conflict" Free Press, New York, 1967.

9- COMTE, AUGUST: "The Positive Philosophy" trans. and condensed by Harriet Martineau, London, George Bell and Sons, 1896.

10- DAHRENDORF, R.: "Class and Class Conflict in industrial Society", Stanford Universty Press Stanford, Calif., 1959.

11- DURKHEIM, EMILE: "The Division of Labour in Society" Trans., George Simpson. Glenovce III.: The Free Press, 1949.

12- DURKHELM, E.: "The Division of Labor in Society" trans by Simpson, Glencoe, Free Press, 1933.

13- GARFINKEL, H.: "Studies in Ethnomethodology" Prentice- Hall, Englewood Cliffs, New Jersy, 1967.

14- GERTH ansd MILLs: "From Max Weber, Essays in Sociology" A Galoxy Book, Oxford University Press, New York, 1958.

15- GIBBS, J.: "Sociological Theory Construction" Dryden Press, New York, 1972.

16- GOFFMAN, E.: "The Presentation of Self in Everyday Life" Doubleday, New York, 1959.

17- GOULDRER, A.W.: "The Cominig Crisis in Wester Sociology" Avon, New York, 1970.

18- HOMANS, G.: "Contemporary Theory in Sociology" in Hand Book of Modern Sociology" edit. by Faris, Rand McNally and Comp. Chicago, 1964.

19- KOEING, S.: "Sociology, An Introduction to the Science of Society" Barnes and Nobele, New York, 1960.

20- LA PIERE, RICHARD: "Social Change" McGraw- Hill Book Comp. N.Y. 1965.

21- MACIVER, R.M. and PAGE, Ch.: "Society" Macmillan Comp. LTD., London, 1932.

22- MARTINDALE, D.: "The Nature and Types of Sociological Theory" Houghton Mifflin, Boston, 1960.

23- MARX, KARL: "A Contribution to Critique of Political Economey" trans. by N.I. Stone, New York. International Libarary Publeshing Co. 1914.

24- MEAD, G.H.: "Mind Self and Society" University of Chicago Press, Chicago, 1934.

25- MEMMSEN, WOLFGANG: "Max Weber's Political Sociology and his Philosophy of World History" International Sociology, Unescco Volum VII, 1965.

26- MERRILL, F.: "Society and Culture" Prentice- Hall Inc., Englewood Cliffs. New Jersy. 1965.

27- MERTON, R.K.: "On Theoretical Sociology" Free Press, New York, 1967.

28- MILLS, C.W.: "The Sociological Imagination" Oxford University Press, New York, 1959.

29- MILLS. C.R.: "Sociological Imagination" Gross Press, New York, 1961.

30- MILLS. C.W.: "White Collar, The American Middle Classes" Oxford Universty Press, New York, 1956.

31- MILLS. C.W.: "Power Elite" OXford Universty Press New York, 1956.

32- NISBET, R.A.: "Sociology as an Art Form" Pacific Sociological Review, 1962.

33- OGBURN and NIMKOFF: "A Hand Book of Sociology" Roulidge and Kegan Poul, London, 1953. P. 546- 547.

34- OGBURN: "Social Change" Encyclopidia of Social Science.

35- OGBURN: "How Technology Changes Society" Annals of the American Academy of Political and Science, Junnary 1947.

36- PARK, R.E. and BURGESS, E.: "Introduction to the Science of Sociology" University of Chicago Press Chicago, 1921.

37- PARSONS, T.: "Evoluation and Objectivity in Social Science: an interpretatio of Max Weber's Controbation" International Social Science Jornal, Unesco, Volume VII, 1965.

38- PARSONS, T.: "The Social System" The Free Press Glencoe 111., 1951.

39- Parsons, T.: The System of Modern Societies" Prentic- Hall, Englewood Cliffs, New- Jersy, 1971.

40- Parsons, T.: "Some Problems of General Theory in Sociology" in J.C. McKinney and EA.. Tiryakian (eds) Theoretical Sociology, Perspective and Developments. Appleton Century Crofts. New- York, 1970.

41- REYNOLDS, P.D.: "A Primer in Theory Construction" Bobbs- Merrill, Indianapolis, 1971.

42- RIESMAN, D.: "The Lonely Crowed" Yale University Press, New Haven, 1961.

43- SPENCER, HERBERT: "The Principles of Sociology" D. Appleton and Co., New York, 1898.

44- SuMNEr, W.C.: "Folkways" Ginnand Com. Boston, U.S. A.

45- TIMASHEFF, N.S.: "Sociological Theory, Its Natur and Growth, 3ed, Randm House, New York, 1967.

46- TIRYAKIAN, E.A.: "Structural Sociology" in McKinney and Tiryakian (eds.), Theoretical Sociology, Perespectives and Developments" Appleton Century Crofts, New York, 1970.

47- TOENNIES, F.: "Community and Society "Gemeins- chaft und Gesellschaft" trans. by Charles, P. Looms, Michigan state University Press, 1957.

48- WEBER, MAX: "Basic Concept in Sociology" Peler Owen, London, 1962.

49- WEBER, MAX: "The Theory of Social Economic Organization" trans. by A.M. Henderson and Tallcot Parsons, ed. Parsons. Glencoe Ill., The Free Press, 1947.

50- WEBER, MAX: "The Theory of Social and Economic Organization" trans. by Henderson and Parsons, Glenoce, Free Press, 1947.

51- WILLER, D.: "Scientific Sociology, Theory and Method Poentic-Hall Englewood Cliffs. New Jersy, 1967.

52- WOLFF, K.H. (ed. and trans): "The Sociology of George Simmel," Free Press, New York 1950.

53- ZETTERBERG, HANS, L.: "Social Theory and Social Practice" Totowa. New Jersy, Bedminster Press. 1963.

محتويات الكتاب

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث: نظريات الصراع

(٩١ - ١٣٨)

الفصل الرابع: السلوكيون الاجتماعيون

(١٣٩ - ١٩٣)

الفصل الخامس: نماذج لنقد النظريات

(١٩٥ - ٢٣١)

***

كتب للمؤلف:

- الأسـرة والتصنيـــع .
- التغيـــر الاجتمـاعى .
- البنــاء الاجتمـاعى .
- النظريات الاجتماعية .



